سلسلة الأعمال المترجمة (5) ترجمة آلية

# التقرير الأخير لأوروبي
# عن غات
# والتوارق في منطقة آيير
# )دفتر رحلة إرفين دو باري

{1877 / 1876}

ترجمة وتعليق

الماني-- فرنسي

بقلم

**هنري شيرمر**

ترجمة آلية للعربية

**توفيق عياد الشقروني**

LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية

الكتاب: التقرير الأخير لأوروبي عن غات والتوارق في منطقة آيير (دفتر رحلة إرفين دو باري {1877ـ1876}

المؤلف: إرفين دو باري

ترجمة الية: توفيق عيّاد الشقروني

الناشر: الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية/ مؤسسة Libyan Word Bridge

السنة 2025م

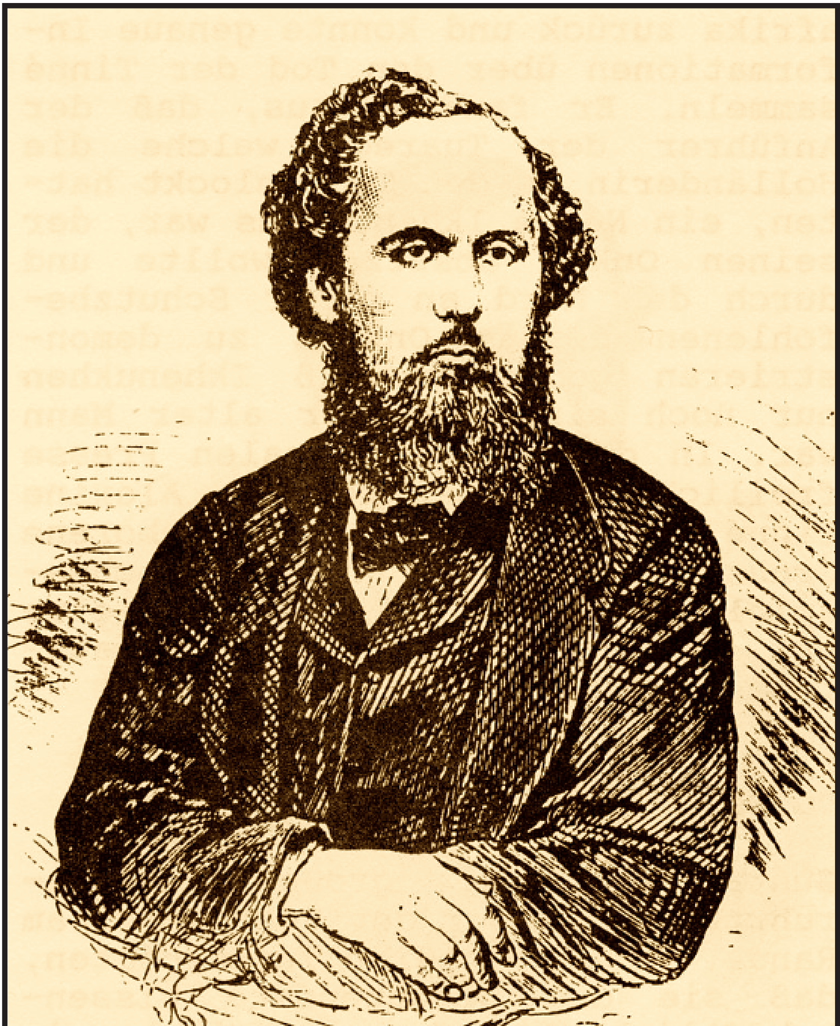
سلسلة الأعمال المترجمة (5)

التصميم والإخراج: الناشر



LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية



إرفين دو باري، 1876—1877

# LE
# DERNIER RAPPORT D'UN EUROPÉEN
# SUR GHÂT
# ET
# LES TOUAREG DE L'AÏR

(JOURNAL DE VOYAGE D'ERWIN DE BARY, 1876-1877)

TRADUIT ET ANNOTÉ

PAR

HENRI SCHIRMER

Professeur de Géographie à l'Université de Lyon.

PARIS

LIBRAIRIE FISCHBACHER

(Société anonyme)

33, RUE DE SEINE, 33

1898

# كلمة الناشر

من قلب شغفنا بالمعرفة، ورغبتنا الصادقة في بناء جسور متينة بين الثقافات، انطلقت مؤسسة "Libyan Word Bridge" لتكون أكثر من مجرد دار نشر، بل لتكون منصة ثقافية حقيقية، تتيح للقارئ الولوج إلى عوالم المعرفة الغربية، وتشاركه رحلة استكشاف الآفاق الفكرية والأدبية المتنوعة. نسعى جاهدين إلى سد الفجوة المعرفية، وإثراء المحتوى العربي بمواد علمية وأدبية ذات قيمة حقيقية، مستفيدين من الإمكانات الهائلة التي يوفرها التطور المتسارع في مجال الترجمة الرقمية، ومن توفر العديد من الكتب التي أصبحت خارج نطاق حقوق الملكية الفكرية، لتصبح متاحة للجميع دون قيود أو حواجز.

نعلم جيدًا أن الاعتماد على الترجمة الإلكترونية، على الرغم من إيجابياته الكثيرة في الوصول إلى كم هائل من النصوص، لا يزال يشكل تحديًا حقيقيًا يواجهنا بمسؤولية كبيرة. فما زالت هذه التقنية في طور التطور، وقد تعجز أحيانًا عن نقل المعنى بدقة متناهية، أو التعبير عن جماليات اللغة الأصلية، أو نقل المشاعر والأحاسيس التي تحملها الكلمات. إلا أننا نرى في وضوح هذه الترجمة وقابليتها للفهم، دافعًا قويًا للاستمرار في هذه التجربة، فهدفنا الأسمى ليس مجرد نقل الكلمات، بل إتاحة المعرفة وتعميم الفائدة منها، وجعلها متاحة لأكبر شريحة ممكنة من القراء.

ونحن على ثقة بأن القارئ، بوعيه وفطنته، سيقدر قيمة هذه الجهود، وسيتجاوز أي قصور لغوي أو أسلوبي قد يظهر في بعض النصوص، وسيتعامل معها بعقل نقدي واعٍ، مدركاً أن الترجمة، مهما بلغت دقتها، تبقى في النهاية وجهة نظر بشرية، تحمل معها جزءاً من شخصية المترجم وخلفيته الثقافية.

إننا إذ نقدم هذه الترجمات، فإننا نضع نصب أعيننا هدفاً آخر لا يقل أهمية، وهو أن تكون ترجماتنا محايدة وموضوعية قدر الإمكان، وأن تكون

بمثابة مرآة تعكس بصدق رؤية المؤلف الأصلية، لا أن تكون صدى لأهوائنا أو تحيزاتنا الشخصية. فكم من مرة رأينا كيف أن التوجه الأيديولوجي للممولين، أو الخلفيات الفكرية للمترجمين، أو حتى المصالح التجارية، قد أثرت على طبيعة الترجمة، وشوهت بعض معانيها، أو حرفتها عن مقاصدها الأصلية. هذه الاعتبارات مجتمعة، تخلق في كثير من الأحيان قيوداً غير مرئية، قد تُنتج ترجمات مُوجّهة أو منقوصة، لا تعكس بالضرورة وجهة نظر المؤلف بشكل كامل وصادق.

لذلك، فإننا في مؤسستنا نتعهد بأن تكون ترجماتنا جسرًا آمنًا للمعرفة، لا يشوبه أي تحيز أو تلاعب، وأن يكون هدفنا الأساسي هو خدمة القارئ وتزويده بالمعلومة الصحيحة، دون توجيه أو فرض رؤى مسبقة. سنحرص على تقديم النصوص المترجمة بأمانة وموضوعية، تاركين للقارئ حرية الفهم والتفسير، وتكوين القناعات الخاصة به، بناءً على وعيه وفهمه الخاص. وسوف يقتصر تدخلنا على إضافة بعض الشروح أو المعلومات التي نرى أنها ضرورية لتقريب القارئ من المعنى المقصود، أو لتوضيح سياق النص، أو لإبراز بعض الجوانب الثقافية التي قد لا تكون مألوفة لديه، مع الحرص على عدم فرض أي رؤية أو رأي شخصي.

وبالمقابل، فإننا نؤكد أن تقديمنا لهذه الكتب لا يعني بالضرورة تبنينا أو موافقتنا على كل ما ورد فيها من آراء واستنتاجات، أو أننا نؤيد المؤلف في كل ما ذهب إليه من أفكار أو تصورات. قد نختلف مع المؤلف في بعض القضايا، أو نرى أن بعض أوصافه غير لائقة أو غير مقبولة، ولكننا نؤمن بحق القارئ في أن يرى النص كما هو، دون تعديل أو تلطيف، حتى يكون رأيه عن الكتاب والمؤلف مبنيًا على فهم كامل ووعي تام، وحتى لا نكون نحن الحكام على قيمة النص أو مصداقيته. وحتى نكون أكثر صراحة معكم.

إننا نعترف أن الترجمة هي عمل بشري، وأن المترجمين بشر معرضون للخطأ والسهو، وأن بعض النصوص قد لا تكون دقيقة، ولكننا في الوقت نفسه

نؤكد أننا نبذل قصارى جهدنا لتقديم ترجمات عالية الجودة، وأننا نعتبر القارئ شريكًا لنا في هذه المسؤولية، ونرحب بأي ملاحظات أو تصحيحات منه، بل نشجعه على ذلك.

ولا يفوتنا أن ننبه القارئ إلى أن بعض المعلومات والاستنتاجات الواردة في هذه الكتب قد لا تعكس الحقائق العلمية أو التاريخية الراهنة، نظرًا للتطور المستمر للمعرفة والبحث العلمي. ونحن على ثقة بأن القارئ الواعي سيأخذ هذه النقطة في الاعتبار، وسيتعامل مع هذه الكتب بمنظور نقدي، وبما يخدم إثراء معارفه وتوسيع آفاقه. ففي نهاية المطاف، نؤمن بأن الترجمة هي رحلة مستمرة، لا تنتهي عند الوصول إلى الكلمات، بل تتعداها إلى فهم الأفكار، وتحقيق التواصل الحقيقي بين الثقافات، وتكوين رؤية أكثر شمولاً ووعياً للعالم من حولنا. وهي أيضاً مسؤولية عظيمة، نحملها على عاتقنا بكل ما أوتينا من جهد وإخلاص.

ونشكر الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية في تعاونها وحماسها للمساعدة في مشروعنا.

الناشر

2025م

ملاحظات:

- فهرس المحتويات يشير الى صفحات هذه النسخة المترجمة.
- الارقام بين القوسين المركنين نوعان أرقام صفحات الاصل. وأرقم ملاحظات المترجم الفرنسي.
- الأرقام في فهرس الأسماء والأماكن تشير الى صفحات الاصل.
- لا توجد حواشي سفلية في نص الكتاب. فقط في الملحق توجد حواشي للمترجم وفق الترقيم في الكتاب
- بعض الاسماء الواردة في الكتاب تحتاج مزيد من الضبط.

# فهرس المحتويات

# ملاحظة المترجم الفرنسي

إن اسم إرفين دو باري (Erwin de Bary) غير معروف كثيراً في فرنسا. فجثمانه يرقد منسيّاً في زاوية من واحة غات، ولا يخطر لأحد أن يقرأ في المجلة الأجنبية التي نُشر فيها قديماً دفتر رحلته، وهو الأثر الوحيد الباقي من نشاطه. ومع ذلك، فإن عمله غير المكتمل يستحق أكثر من هذا النسيان.

إن منطقة آيير (l'Aïr) التي وصل إليها تُعد من أغرب مناطق العالم وأقلها معرفة. فجبالها ومناخها لا يزالان يشكّلان لغزاً للجغرافيين. أما بالنسبة لعالم الطبيعة، فهي من تلك المناطق المختارة التي استطاعت أن تحتفظ ببعض عينات النباتات والحيوانات، الشاهدة على عصور ومناخات بائدة. ويبحث المؤرخ فيها عن آثار حضارة زنجية قديمة جداً، وعن دلائل على علاقات ربما ربطت مصر القديمة بمنعطف نهر النيجر. ويرى فيها التاجر أهم محطة على الطريق الأسهل لعبور الصحراء الكبرى.

ومع ذلك، لم تكن هذه البلاد موضوعاً لاستكشاف أوروبي سوى مرتين. نتائج الأولى، وهي رحلة بارت (Barth) وريتشاردسون (Richardson) عام 1850، معروفة عالمياً. أما الثانية (عام 1876) فهي التي ننشر ترجمتها اليوم.

لن يجد القارئ عند إرفين دو باري تلك المعرفة الشرقية العميقة، ولا تلك القدرة المدهشة على البحث التي جعلت من سلفه الخالد نموذجاً لا يُضاهى. لكنه دوّن، بضمير حي نادر، كل ما رآه جديراً باهتمام المستكشفين، وحتى في مناطق سبق استكشافها، مثل غات مثلاً، لاحظ الكثير من الأمور الجديدة. كما أنه كان مراقباً صادقاً لا تؤثر في أحكامه أي دوافع سياسية أو تجارية. كان حلمه حلم عالم طبيعة: دراسة الأجزاء المجهولة من الصحراء الكبرى الجنوبية. كان

إرفين دوباري من آخر المنتسبين إلى تلك المدرسة من المستكشفين في منتصف القرن الذين لم تكن طموحاتهم سوى توسيع معارف الإنسان.

واليوم، وقد أصبحت هذه المنطقة مخصصة، بموجب المعاهدات، للبعثات العلمية الفرنسية، بدا لنا من المفيد أن نضع بين يدي القارئ الفرنسي هذه الرواية الأخيرة لشاهد عيان. وهي تتألف من جزأين مختلفي الأصل:

1. تقرير كتبه الرحالة في غات بعد عودته من رحلته في منطقة التاسيلي حتى وادي ميهرو، ونُشر عام 1878 في مجلة الجمعية الجغرافية في برلين. نقدم ترجمته هنا، مع إضافة بعض الصفحات التي رأيناها جديرة بالنشر، مأخوذة بالكامل من دفتر الرحلة.

2. ابتداءً من الأول من نوفمبر 1876، يأتي دفتر الرحلة نفسه، المكتوب يوماً بيوم، والذي لم يتح للرحالة مراجعته. وكان من الممكن إعادة ترتيبه كما كان ليفعل هو نفسه بلا شك، لكننا التزمنا بضرورة عدم إدخال كلمة واحدة لم يكتبها بنفسه. اقتصرنا فقط على حذف بعض التفاصيل الشخصية والتكرارات التي قد تجعل القراءة مملة، وحاولنا تعويض نقص التنظيم بفهرس للأسماء الجغرافية.

لم نحتج إلى إعادة بناء خط سير الرحلة، إذ هو مرسوم سلفاً على الورقتين 12 و19 من الخريطة الممتازة لإفريقيا بمقياس 2.000.000/1، المعدّة بإشراف القائد دولانوى دوبيسي (de Lannoy de Bissy). أما بيانات الحرارة والضغط الجوي وغيرها، المنتشرة في دفتر الرحلة، فسنجدها مجمعة في نهاية هذا المجلد في سجلٍ للأرصاد الجوية، إلى جانب مذكرتين كتبهما الرحالة نفسه حول جيولوجيا الصحراء الوسطى ونباتات منطقة آيير.

هـ. شيرمر (H. Schirmer).

# سيرة ذاتية موجزة

إرفين دو باري ينحدر من عائلة عريقة، يُذكر اسمها بين فرسان الحملة الصليبية الثالثة الذين تبعوا فيليب أوغست، وموطنها الأصلي مدينة تورناي الفرنكية القديمة. نحو عام 1675، وبعد أن خرجت تورناي من المملكة الفرنسية، اضطرت العائلة، التي كانت قد اعتنقت الإصلاح الديني، إلى الهجرة هرباً من اضطهاد محاكم التفتيش الإسبانية، فاستقرت تباعاً في فرانكفورت، ثم أمستردام، وأخيراً في بافاريا، حيث وُلد إرفين دو باري عام 1846.

درس العلوم الطبيعية في جامعتي لايبزيغ وزيوريخ، ثم في ميونيخ حيث نال عام 1869 شهادة الدكتوراه في الطب. وفي الوقت نفسه، وقد استولى عليه شغفه بإفريقيا، انكبّ على دراسة أعمال بارت ودوفييري، وتعلم العربية ولهجة التوارق الشمالية. عام 1873، مدفوعاً بحلمه الدائم، انتقل إلى مالطة ليعمل طبيباً هناك، كي يكون أقرب إلى إفريقيا ويتعرف أكثر على عادات طرابلس وفزان. ولتحقيق هذا الهدف، قام عام 1875 برحلة تمهيدية إلى جبال غريان. وبعد عام واحد، غادر طرابلس نهائياً متوجهاً إلى غات مع قافلة تاجر طرابلسي.

تظاهر بأنه طبيب تركي، فوصل دون عوائق إلى المدينة الصحراوية الشهيرة في 10 أكتوبر 1876. ومن خلال دفتر رحلته، يتبين كم واجه من صعوبات لاحقاً. إذ اضطر إلى التخلي عن مشروعه لاستكشاف الهقار، بعدما أوقف مراراً في تقدمه الجريء على هضبة التاسيلي ثم في منطقة آيير، فعاد إلى غات في 3 أكتوبر 1877، منهكاً لكنه متفائلاً. كتب مساء ذلك اليوم: «في غضون خمسة عشر إلى عشرين يوماً، أعتزم العودة إلى آيير. صحتي ممتازة.» لكن بعد أقل من أربع وعشرين ساعة كان ميتاً.

قضى سهرة مرحة عند القائمقام يتحدث مع معارفه. وفي السادسة صباحاً، حاول خادمه إيقاظه فلم يفلح رغم هزه بعنف. وجاء في تقرير رسمي:

«كان تنفسه يشبه تنفس رجل غارق في نوم عميق.» وعندما عادوا لرؤيته نحو العاشرة، كان جسده قد برد وتيبّس.

هل كانت هذه النهاية الغريبة نتيجة الإرهاق والحرمان؟ أم أنه مات متأثراً بتناول مادة مخدّرة، من تلك السموم التي كان وجهاء غات – كما يذكر هو نفسه – يجلبونها من تونس؟ لقد أثار الرحالة المسكين، بسذاجته، كثيراً من الشكوك وارتكب أكثر من خطأ. فهل كان موته عملاً نابعاً من تعصب ديني؟ أم انتقاماً شخصياً كُتم طويلاً وانفجر في اليوم الذي عاد فيه دوباري سالماً من آيير على غير توقع؟ إنها واحدة من تلك الألغاز المظلمة التي تحتفظ الصحراء بسرّها.

# غات
# والتوارق في منطقة آيير

## الفصل الأول مدينة غات

تبدو غات، من الخارج، كأنها حصن منيع. بالكاد تقطع بضع بوابات صغيرة انتظام السور الطويل المصنوع من الطين البني، الذي يطوّق المدينة بحزام من الشرفات المسنّنة. وكان العلم التركي يرفرف فوق أعلى نقطة من المدينة. وحركة رجال طوال القامة، ملفوفون في أردية بيضاء طويلة، يدخلون ويخرجون من هذه الأبواب الصغيرة التي يضطرون للانحناء بشدة لعبورها؛ وهنا وهناك يُرى جندي تركي بزيه الرسمي.

كان لهذا الهدوء والسكون وقع غريب عليّ، وأنا المعتاد على صخب العربات والجموع عند مداخل المدن. هنا لا عربات ولا حتى شوارع؛ فقط أزقة ضيقة يغمرها الرمل حتى تختفي وقع الأقدام. وجميع الأبواب يحرسها جنود، يأخذون الأسلحة من الداخلين ويعيدونها عند خروجهم.

داخل المدينة، حيّاني كثيرمن السكان، وأبدوا سرورهم بوصول طبيب؛ إذ ظنوا أنني سأستقربينهم. وساقنا زقاق منحدرإلى أطلال قلعة قديمة كانت تحتل في الماضي قمة التل، الذي غمرته اليوم المنازل. وبجوارها بيت الحاج مصطفى، حيث اتخذته مقرّاً مؤقتاً.

عمارة البيوت في غاية البساطة. يدخل المرء غالباً من ردهة (سقيفة) إلى فناء مربع تحيط به ثلاث غرف أو مخازن، يحتل كل منها جانباً من البناء. لا طابق ثانٍ ولا نوافذ؛ فالضوء يدخل من الباب ومن ثقوب صغيرة تُفتح

عشوائياً في الجدران الطينية. ولا تُدق المسامير في الجدران لأن الطين يتفتت بسهولة؛ فيُستعاض عنها بعيدان خشبية طويلة أكثر نفعاً. والأبواب أيضاً بلا معادن، تصنع من ألواح نخيل تربطها سيور جلدية. وهكذا هي بيوت غات جميعها، وحتى بيت القائمقام لا يختلف عنها.

ليس من عادة الناس هنا أن يدعوا القادمين الجدد يستريحون؛ فالبيت يمتلئ على الفور بالزوار الذين لا يكفون عن الدخول والخروج طوال اليوم. ويسعى كل واحد لمعرفة حال الغريب ليقدّر قيمة الهدايا التي يمكن انتزاعها منه، ويزعم كلٌّ نفوذه وسلطته، وكثير منهم يطلب «هدية مؤقتة» في الانتظار.

وسط هؤلاء الرجال المقنّعين، التقيت بفرح باثنين من معارفي القدامى: الحاج محمد دديكورا، الذي عرفته في طرابلس أثناء رحلته إلى مكة، وتاجر شاب من توينين[4] كنت قد عالجته هناك، فاحتفظ لي بذكرى طيبة. وهما من ساعداني على التمييز من بين التوارق المحيطين بي ومعرفة الأشخاص ذوي الأهمية بالنسبة لي.

استقبلني القائمقام في غات، «الصافي»، بأفضل حفاوة. وقال لي عند لقائنا: «هذه المدينة تابعة للسلطان، وأنت هنا آمن كما لو كنت في أي مدينة من مدن العثمانيين؛ والتوارق لا يملكون أي حق داخل الأسوار، فإذا أزعجك أحدهم بمطالباته فما عليك إلا أن تخبرني، وسأضمن لك الراحة.»

الصافي رجل ذكيّ قويّ وحازم، يعرف تماماً كيف يتعامل مع التوارق. وهو ابن الحاج الأمين الذي نعلم من دوفييري[5] أنه بذل جهده لإقناع الأتراك بضمّ غات. وما لم ينجح فيه الأب تحقق اليوم على يد الابن.

تحتل المدينة حامية من نحو مئتي جندي، مما يمنح القائمقام سلطة وهيبة تتجاوز حدودها[6]. وفي الساحة بين المسجد والثكنة يوجد مدفع فولاذي يُلقَّم من الخلف، منقوش عليه: «كارلسروه، 1872». يُطلق هذا المدفع في المناسبات الدينية والأعياد، فيملأ صوته التوارق رهبة وإعجاباً. وهم يتصورون أن مفعوله في الحرب سيكون عظيماً، فيؤدي ذلك إلى تأثير معنوي كبير في أوقات

السلم.

أهالي غات والتجار الأجانب مسرورون بطبيعة الحال من احتلال المدينة، إذ كانوا من قبل تحت رحمة تقلبات التوارق، غير آمنين على أموالهم ولا على حياتهم. كان لا بد من استرضاء شيوخ القبائل قبل عبور أراضيهم، وهذه «الفديات» بلغت مبالغ طائلة، إذ كان استياء رجل واحد كافياً لجعل الأمن المنشود أمراً مشكوكاً فيه. وفي المدينة نفسها كان التوارق يتصرفون وكأنهم في أرضٍ مفتوحة. فإذا لم تُفتح لهم الأبواب بسرعة[17] حطّموها، ويعدّ السكان أنفسهم محظوظين إن أفلتوا من الضرب. وكان التارقي يأخذ ما يشاء دون تردد، وويلٌ لمن يحتجّ. هكذا كانت الأمور في الماضي[7]، أمّا اليوم فقد تغيّر كل شيء.

قبل دخول المدينة يُجبر التارقي على تسليم سلاحه، ولا يُعاد إليه إلا عند خروجه[8]. وإن حاول أن يعيش على نفقة غيره، نادراً ما تُفتح له الأبواب. وإذا اندفع إلى العنف، حكم عليه القاضي دون رحمة بالسجن، وهو عقوبة لا يحتملها. فيضل جائعاً بثيابٍ ممزقة، يتجول في الشوارع وهو يلعن الأتراك الذين أدخلوا قوانين غريبة. أمّا الشيوخ، فحالهم أفضل، لأنهم وإن فقدوا سلطتهم داخل المدينة، بقوا أسياد الصحراء، وما زالوا يفرضون الرسوم على القوافل العابرة.

[18]وتجنباً للنزاعات، اقتسم الشيوخ حقوق الحماية مرة واحدة وللأبد، وتنتقل هذه الحقوق بالوراثة. فكل تاجر من غدامس يعدّ له بين أزدجر حامياً أو أكثر يدفع له في كل مرة سبعة تالار[9]، إضافة إلى ريالين عن كل حمولة جمل. وهذه هي الضريبة المقررة عرفاً، لكنها ليست كل شيء. فمن أراد أن يعيش بسلام مع زعماء التوارق وجب أن يقدم لهم هدايا غالباً تفوق قيمتها الضرائب بكثير، خاصة إن كان غنياً. لذلك يتمسك التوارق بشدة بهذا المورد المالي، ويدافع كلٌّ عن نصيبه بحذر وغيرة. وقد كانت مسألة من يتولى حماية تاجر غني من غدامس سبب الحرب الطويلة المستعرة حتى اليوم بين الهقار

والأزدجر.

ومن الغرائب أن التاجر الغدامسي المتوجه إلى السودان عبر غات لا يدفع أي ضريبة[10]، لكنه يؤدي أربعين ريالاً عند عودته. أما التبو من جواي وأغيلال فيدفعون لشيخ إكنوكن وحده ريالين عن كل رأس عبد أو حمولة جمل. أما كلّ أوي فهم معفون من الضرائب[11].

[19]الإدارة التركية لم تمس هذا النظام، ولن تفرض ضرائب أو جمارك خلال السنتين الأوليين من الاحتلال، لكن الحال سيتغير لاحقاً بلا شك على حساب التوارق الذين سيفقدون استقلالهم تدريجياً[12]. ومع ذلك، يتضح من مظاهر كثيرة أن سادة الصحراء يجدون السيطرة التركية الحالية، رغم ضعفها، أمراً لا يُطاق. صحيح أن إكنوكن نال «البرنوس» الرسمي وينتظر صدور الفرمان من إسطنبول، لكن باقي زعماء الأزدجر لا يعتبرون أنفسهم ملزمين بموقف أميرهم، ويعلنون احتجاجهم – أحياناً بأشد الأساليب – كلما ذُكرت سيادة السلطان.

وإذا حاول الأتراك أن يشددوا قبضتهم، أو طالبوا قبائل التوارق بدفع أي ضريبة، فستنشب حتماً النزاعات. فالتوارق يطلقون على جيرانهم في فزان، باحتقار: «الذين يدفعون الضريبة».

إن ضم غات يُعزى أولاً إلى الشيخ الحاج الأمين وأسرته التي سعت إلى ضمان حكم المدينة، وثانياً[20] إلى جهود التجار الأجانب الذين تضرروا من ظلم التوارق. أما إكنوكن، فلم ينضم إليهم إلا في لحظة الخطر الأكبر، عندما ألحق به الهقار خسائر فادحة، ولم يبقَ أمامه سوى الخضوع لهم أو استدعاء الأتراك لنجدته، فاختار الحل الثاني. لكن القبائل لا تحمل أي ودٍّ للأتراك، وترى في أهتاغل، أمير الهقار، القائد المستقبلي للتوارق[13]، بينما فقد إكنوكن هيبته تماماً.

وقد أثارت زيارتي لغات بين التوارق نقاشاً حاداً حول من له الحق في تلقي هداياي. وبعد جدال طويل تقرر أن وريث حتيطة، الذي كان حامياً

للبعثة الإنجليزية لريتشاردسون، هو وحده المؤهل لاستلامها. ووفقاً للعُرف التارقي، يرث الابن الأكبر للأخت الكبرى، وهكذا أصبح عثمان، أحد زعماء إيمانغاساتن، هو الحامي لي.

إن استمرار العداء بين الفصيلين الكبيرين من توارق الشمال حال دون تنفيذ هدفي الرئيس، وهو استكشاف كتلة الهقار. فأردت على الأقل محاولة الوصول إلى البحيرة الشهيرة[21] ميهرو، للتحقق من وجود التماسيح فيها. وعندما أطلعت أصدقائي الجدد على هذا المشروع، رأوا أنني لا أستطيع المغامرة بعيداً في أرض العدو إلا في حماية «رَزُو» (غزوة) تتجه في الاتجاه نفسه. أعلن عثمان استعداده لقيادتي. وبما أن المحاربين كانوا قد استُدعوا فعلاً لغارة جديدة في أرض الهقار، وجب أن أُعِدّ نفسي بسرعة. كان مكان تجمع توارق الأزدجر في ديدر، وكانت القبائل تتقاطر إليه من كل صوب، مما جعل عبوري آمناً نسبياً. وتمّ رحيلي بسرعة حتى إنني اضطررت إلى ترك رسائلي وتقاريري غير مكتملة في غات.

ونتوقف هنا قليلاً عن متابعة التقرير الذي يتواصل في الفصل التالي بسرد الرحلة إلى التاسيلي، لنقتبس من دفتر الرحلة الكامل الملاحظات التالية المتعلقة بأيام الإقامة الأولى في غات:

«10 أكتوبر» — زيارات كثيرة من التوارق. أخبرني محمد داديكورا أن أسرة إيمانان[14] لم يبقَ منها سوى رجلين وسبع نساء، إذ قُتل الآخرون في آخر حرب[22] لهم مع الأوراغن. وكان الإيمانان يسكنون هنا قبل قدوم القبائل التارقية الأخرى، لكنهم خضعوا مع الزمن لقانون الأقوى.

والتوارق لا يتزوجون سوى امرأة واحدة، ولا يتخذون جواري. وأجمل النساء نساء الإيمانان.

«11 أكتوبر» — قدّم لي داديكورا تفاصيل عن مقتل دورنو-ديبيريه. فقد قُتل على طريق غات بين المويلح وتماسينين[15]. الأربعة من الإفوغاس الذين رافقوا الفرنسيين كأدلاء خططوا للقتل مسبقاً. وكان أربعة آخرون من

الإفوغاس[16] ينتظرون على الهضبة تحت خيمة. وعندما اقترب المسافرون، حاول التاجر جوبير أن يتناول بندقيته، لكن مرافقيه من الإفوغاس طمأنوه قائلين إن القوم من رجال إكنوكن. فذُبح جوبير فوراً. حاول دورنو-ديبيريه[23] الفرار، لكنه لحق به وقتل لأنه لم يكن مسلحاً. ويقال إن من بين القتلة الذين كانوا تحت الخيمة رجلاً من خامتة. وكان الفرنسيون يعلمون أن الإفوغاس على خلاف مع إكنوكن، ويقال إنه لو جاءوا مع ختامة لكانوا قُتلوا أيضاً[17].

عندما يؤدي التارقي قسماً ويريد أن يلتزم بعهده، يرفع يده اليمنى إلى جبهته ثلاث مرات. وجميع التوارق يمارسون هذه العادة المسماة «تِمِّي». وهذه الإشارة ضرورية عند منح «الأمان»، وإلا فلا ثقة في كلمتهم.

زارني ابن الشيخ أغ بكر الصغيروألحّ في أن أعطيه برنوساً من الصوف الفاخر، ولما رفضت صرخ وغضب. ووالده هو قاتل الآنسة/للسيدة «تينيه»[18].

صديقي من تونين يقول لي إن عدد مقاتلي الأزجر يبلغ نحو ثلاثمائة محارب، والهقار[24] ألف [19]، وفي الماضي كان الأزجر هم الأكثر عددًا.

12 أكتوبر. - ذهبت مع حسن إلى تونين، التي تقع شمال المدينة. إنها قرية منفصلة، وسكانها على علاقة صداقة مع الهقار. ولهذا السبب لا يمكن لفتى من تونين أن يغامر بالذهاب إلى غات: سيتم ضربه من قبل شباب تلك المدينة. في المقابل، يتمتع شرفاء تونين بسلطة كبيرة. وأصلهم من توات [20].

رأيت في حديقة النخيل شجرة برتقال وشجرة ليمون أحضرهما الشيخ من طرابلس قبل ثلاث سنوات. ماتت إحدى هاتين الشجرتين، لكن الأخرى أصبحت عالية جدًا ومحملة حاليًا بالبرتقال المائل للاصفرار. أشجار التين تحمل أيضًا ثمارًا، لكنها لا تزال صغيرة [21]. ولاحظت [25] كمية من ثمار الرمان؛ إنها بيضاء بدلاً من أن تكون حمراء. تُزرع الكروم على تعريشات، على ارتفاع حوالي 3 أقدام فوق سطح الأرض. ينمو نبات البرمباخ من تلقاء نفسه وله هنا أوراق ضخمة [22].

وتوجد أعداد كبيرة [26] من حلزونات «Melania teberodata» [23] في نبع

في تونين وفي قنوات الري. معظم الأفراد صغار الحجم.

وفي طريق العودة، لمحت من بعيد أكواخ إيخنوخن؛ وهو جالس أمام أحدها. يبلغ عمره الآن مائة وسنتين [24]. وخليفته الشرعي هو كلالة، لكن هذا الأخير ضعيف الشخصية، يكاد يكون مرابطًا؛ ولذلك فإن إيغ-بكر هو صاحب النفوذ الأكبر[25]. من المعروف أن عرب وادي شاطئ والأزجر هزموا الهقار بالقرب من جبل تيفيدست. على الرغم من هذه الهزيمة، لا يزال الهقار يمتلكون الجزء الأكبر من الغنائم، ولهذا السبب لا يريد إيخنوخن أن يسمع عن السلام، لأنه خسر تقريبًا كل قطعانه، والأهم من ذلك، خسر اثنين من أبنائه.

سمع القائمقام عن رحلتي إلى تونين وأرسل لي على الفور ليقول لي ألا أذهب خارج أسوار المدينة بدون جندي مرافق، لأنه لا يمكن الوثوق بالتوارق. ويجب أن أخبره إلى أين أريد الذهاب، وسيعطيني دائمًا رجلاً ليرافقني.

التوارق الأكثر نقاءً في العرق هم الأوليميدان؛ وهم أيضًا الأكثر عددًا [26]. قبائلهم تتقاتل في الوقت الحالي.

[27] أراني القائمقام ساق زنبق بحر[27] وُجدت في محيط غات. قيل لي إن جبل ودّان [28] يحتوي على الذهب، ولكن المسيحيين وحدهم هم من يعرفون كيفية البحث عنه هناك.

زارني عثمان، ابن أخي حطيطة، برفقة إيغ-بكر. طلب الأول مني مائة تالر، ورفيقه خمسين. عندما اعترضت وسألتهما لماذا يجب أن أدفع مبلغًا بهذا القدر، أجاب عثمان بأنني لا يجب أن أدفع مقابل بضاعتي، بل مقابل رأسي. طردت الوقح وأعلنت له أن غات لم تعد بلده، بل أصبحت ملكًا للسلطان، مما أثار غضبه الشديد.

عندما يتحدث التارقي عن السلطان، يضع القليل من الرمل في راحة يده وينفخ فيه كنوع من السخرية.

13 أكتوبر. - زيارة من صديقي حسن من تونين. لديه حمى، وأعطيته الكينين. بشكل عام، هناك الكثير من الحمى في هذه المنطقة [29].

[28] إيغ-بكر [30] ينتمي إلى حزب إيخنوخن، الذي تزوج إحدى بناته. إذا مات هذا الأخير، سيصبح كلالة أميرًا بالحق، لكنه لطيف المزاج لدرجة أنه لا يتمتع بالنفوذ؛ في المقابل، يخشى الجميع إيغ-بكر بسبب عنفه، وهو بالتالي صاحب السلطة الأكبر.

في الظهيرة ذهبت لأول مرة إلى المسجد، وهو مبني من الطين، منخفض وقذر من الداخل؛ كان مكتظًا بالمصلين. نظروا إلي، لكن دون أن يقولوا شيئًا. وساميت [31]، الذي أراد مرافقتي، اختفى في اللحظة الأخيرة.

17 أكتوبر. - وفقًا للمعلومات التي قدمها صديقي ديديكورا، توجد في غات القبائل الأربع التالية [32]:

1. الإيحدجنن، وتضم ثلاث فروع؛

أ ) آيت تدجنن حنا، وهم كثيرون؛

ب) آيت المختار، وهم قليلون؛ وهي قبيلة صافي؛

ج) آيت حمودن.

كل هؤلاء الإيحدجنن ينحدرون من التينيليكوم.

2. كيل رابصا [33]، هم أيضًا من عرق تينيليكوم [29]، لكنهم ليسوا جزءًا من الإيحدجنن. وفي فترة زمنية بعيدة، قبل مجيء هذه القبائل إلى غات، كانت هذه المدينة محتلة من قبل الإيميكاميسان والكيل-تيليك، الذين لا يزال بعض أحفادهم موجودين في المدينة اليوم. وجاءت القبائل الأربع المذكورة أعلاه إلى غات بعد عصر النبي، ووجدوا فيها الإيميكاميسان والكيل-تيليك. كان الإيميكاميسان قد استقروا سابقًا في هليلبريس، بالقرب جدًا من المدينة، والكيل-تيليك في أنغايان، أيضًا في الجوار، حيث كان لديهم حصن.

15 أكتوبر. - مرت ثلاثة أيام ونحن نعاني من القِبلي (الريح الجنوبية)، والسماء رمادية بالكامل ويبدو وكأن البلد كله في ضباب. قيل لي إن الأمر غالبًا ما يكون كذلك في غات. ويشعر الجميع بالمرض؛ ويشكون من التعب في جميع الأطراف؛ يعاني الكثير من الناس من التهاب الملتحمة. في الظهيرة عاصفة رملية

كبيرة؛ كل شيء مغلف بضباب رمادي؛ من شرفتي الصغيرة لا أستطيع حتى رؤية المنازل [30] المجاورة، ويؤثر الغبار بشكل مؤلم على العيون.

- عم حسن من تونين يقول لي إن هناك نوعًا من الأشجار على جبل ودّان خشبه صلب كالحديد، ولا يوجد في أي مكان آخر، ولا حتى في السودان.

بعد ظهر هذا اليوم، استقبلت زيارة من محمد تيني، الشاب، الذي طلب مني أدوية. ولدى تيني عبيد يعملون كوكلاء في تمبكتو، وكانو، وكوكا، وآداماوا. وقال إنه إذا تمكنت من الذهاب إلى الهقار، فسيكون أقصر طريق للوصول إلى تمبكتو. طريق آخر يتجه مباشرة إلى الغرب، لكن قطاع الطرق من الأوليميدان يجعلونه خطيرًا للغاية. الطريق الأكثر أمانًا هو دائمًا طريق السودان، ولكنه أيضًا الأطول.

16 أكتوبر. - علمت اليوم أن قافلة كبيرة جاءت من الجزائر إلى غدامس؛ يوجد فيها ثلاثة فرنسيين لديهم خادم مسلم؛ يريدون الذهاب إلى الهقار، ويحملون الكثير من البضائع [34].

إيغ-بكر والحاج الشيخ هما شخص واحد [35].

[31] اليوم دعاني صافي، ووجدت عنده الحاج مصطفى ساميت/زميت وعثمان وثلاثة توارق آخرين. أعلن صافي بلهجة رسمية بعض الشيء أن التوارق اتفقوا على الاعتراف بأن عثمان هو صاحب الحق الأكبر علي [36]، ولذا يجب أن أعطيه قدر ما يعطيه الغدامسيون؛ وبما أنه لا يريد برنوسًا، فإن رأي زميت هو أن أدفع 10 تالر. وأعلن عثمان استعداده للمغادرة معي غدًا إلى وادي ميهرو؛ لكني أريد أن أرى أولاً ما إذا كانت هناك مطالبات أخرى، حتى لا يثيروا لي صعوبات في الطريق. وعثمان هذا لديه مظهر محتال؛ عيناه المائلتان واللامعتان تجعلاني أفكر في ياباني. ويبدو أن شقيقه على العكس تمامًا: رجل بارز من جميع النواحي؛ لكن الهقار جرحوه بشدة لدرجة أنه لن يتعافى أبدًا. آمل أن أغادر من هنا قبل وصول الفرنسيين، لتجنب التعليقات التي قد تضر بهم وبي.

أعلن لي ديديكورا أن لدي الآن جميع حقوق المسلم؛ وقال إنه لا يجرؤ أحد على التحقق مما إذا كنت مختونًا أم لا [37]؛ هذا، في رأيه، أمر [32] ثانوي تمامًا. وزرت محمد ديديكورا في منزله. وكان لديه كتب لابن خلدون والبخاري [38] والكثير من الكتب الأخرى.

رأيت بعض التبو ينتظرون اللحظة للانضمام إلى غارة (رازيّة)؛ وآمل ألا تحدث. فهؤلاء الناس قبيحون، سود [39]، لديهم أفواه كبيرة وقامة أقل من التوارق.

17 أكتوبر. - بعد ظهر هذا اليوم، استقبلت زيارة من عثمان وأوفينايت [40]. يطالب هذا الأخير أيضًا بـ «العادة» [41]، ويقول لي عثمان أن أعطيه شيئًا، لأنه شيخ أيضًا؛ ولكن بما أن صافي قال لي صراحة إنني يجب أن أدفع المال لأحدهما فقط، أجبت بالنفي، مما أدى [33] إلى شجار مزعج بين الزعيمين، وضعت له حداً بطلبي منهما المجيء معي إلى القائمقام. وجدناه في الشارع، جالسًا مع الكثير من الأصدقاء، من بينهم زميت، والذين ابتعدوا بمجرد رؤيتنا نقترب. ذهبت إليه مباشرة وشرحت له الأمر؛ فطمأنني مؤكدًا لي أنني لا أدين لأحد بشيء، باستثناء عثمان. شيئًا فشيئًا، اقترب القادة الآخرون، لكن دون أي إشارة إلى قضيتنا.

في طريق العودة، زرت إيخنوخن العجوز. كانت فتاة أو امرأة جالسة، محجبة، بجانبه. تحدث كثيرًا عن الفرنسيين وقال إن بروسيا وروسيا متحدتان ضد فرنسا؛ وأن الألمان كانوا دائمًا على علاقة مع الروس وكانوا أيضًا أعداء السلطان. واحتججت على العكس، لكنه لم يصدقني، واستمر في الابتسام بطريقة طفولية إلى حد ما [42].

[34] 18 أكتوبر. - هذا الصباح، أرى من شرفتي التوارق جالسين أمام أكواخهم في السهل، جنوب المدينة، ورماحهم الطويلة مغروسة في الرمال أمامهم. غالبًا ما يخيمون أيضًا على الكثبان الرملية العديدة التي تمتد شرق غات. وقطاعات كبيرة من الماعز الصغيرة تذهب للرعي، تحت قيادة أحد

العبيد. والنساء يذهبن إلى الينابيع - وهناك عدد كبير منها في الجوار - ويحضرن الماء في أباريق مستديرة كبيرة؛ وعبيد آخرون يدفعون حميرًا محملة بالسماد للحدائق. والسماء، مثل سمائنا الصيفية، ليست خالية تمامًا من الغيوم.

اليوم، جاء عثمان إلي لتحصيل 7 تالر (= 11 ونصف ريال)، وهو مبلغ رسوم المرور الذي يدفعه كل شخص قادم من طرابلس؛ أما القادمون من الجزائر فيدفعون لإيخنوخن. ولقد دفعت نفس الرسم الذي يدفعه الغدامسيون، ودفعته لصافي، الذي أصررت عليه أن أُعامل كالمسلمين الآخرين.

بعد ظهر هذا اليوم، قمت بجولة حول المدينة مع ضابط صف تركي وزرت جبل كوكومين، الذي يطل على المدينة من منحدره الجنوبي. وجدت العديد من التلال الصغيرة من الحجارة غير المصقولة، مع [35] غطاء داخلي من كتل كبيرة ولوح كبير يغطي الكل. تم فتح معظمها من قبل الباحثين عن الكنوز، وتناثرت العظام. يُروى أن الكوكومين كان مأهولًا قبل تأسيس غات. يبلغ قطر هذه التلال من 5 إلى 6 أقدام وارتفاعها حوالي 4 أقدام. هذا الجبل بأكمله عارٍ تقريبًا؛ فقط النبات الجاف الذي يسمى «الحيشن» [43] يرى في كل مكان.

20 أكتوبر. - الليلة، استُدعيت إلى إيغ-بكر، المصاب بالحمى التيفوئيدية. ووجه البغيض مشوه بالهذيان والمرض. وامتنعت عن إعطائه أي دواء، لأنه إذا مات، فلن يفوتهم أن يقولوا إنني سممته. ومن الغريب رؤية كل من شارك في مقتل الآنسة تينيه يختفي الواحد تلو الآخر.

21 أكتوبر. - جاء عثمان ووعدني ببذل المستحيل لإرضائي خلال الرحلة، ولكن يجب أن أعطيه مقدمًا 3 تالر المخصصة للخادم الذي سيرافقنا. تركته يتسول طويلاً، وفي هذا المساء فقط، بعد أن جعلته يقسم بألا يطلب مني أي شيء في المستقبل، أعطيته هذا المال، وكان مسرورا للغاية. هذا الرجل الذي بدا لي في البداية فظًا جدًا، أصبح مطيعًا تمامًا، ولا أشك في أنه سيتصرف بشكل جيد في الطريق.[37]

# الفصل الثاني الرحلة إلى تاسيلي ووادي ميهرو

في صباح يوم 12 أكتوبر، جاء عثمان لفحص أمتعتي وقِربي (أوعية الماء الجلدية). تركنا جانبًا كل ما لم يكن ضروريًا للغاية؛ وفي المقابل، حملنا الكثير من الذخيرة، وما يكفي لإطعام ثلاثة أشخاص لمدة شهر. بقيت أنتظر، وقد جهزت نفسي بالفعل، أمام البوابة الجنوبية للمدينة، عندما جاء رسول من القائمقام يطلب مني باسم سيده أن أُصَرِّح كتابيًا بأنني أغادر غات طواعية وأنه لم يكن لدي أي سبب للشكوى أثناء إقامتي.

جعلني هذا الطلب، الذي قُدم في هذه اللحظة، حائرًا، لأنه في النهاية بدا وكأنهم يريدون أن يبرئوا أنفسهم، تحسباً لوقوع مكروه لي. لذلك عدت إلى المدينة وقلت انطباعي بصراحة للحاكم. لكنه أكد لي بأكثر الطرق الرسمية أنه يمكنني الوثوق بـ [38] رفيقي، وأن هذا التصريح الكتابي يُطلب من جميع المسافرين دون استثناء، لإثبات للباشا في طرابلس أنهم راضون عن الإدارة. ولاحظ أحد الحاضرين ملاحظة مميزة، وهي أنه لا يمكن أبدًا التأكد من أي شيء عند الذهاب إلى الإمغاد [44].

يتمتع هؤلاء الإمغاد بأسوأ سمعة، سواء عند الأوليميدان أو الأزجر أو الهقار. والسبب في ذلك بلا شك هو بُعدهم المعتاد عن مراكز السكان المستقرين، وحالة الفقر النسبي والجهل والتوحش [45]، بينما يكتسب النبلاء (الإموشاره) درجة معينة من الثقافة من خلال إقامتهم في مدن مثل غات، أو عين صالح، أو غدامس، حيث يتواصلون مع الكثير من الأجانب.

في النهاية، قدمت الشهادة المطلوبة وعدت لأجد عثمان. وكان هذا الأخير يخوض مناقشات لا نهاية لها مع مواطنيه، فالبعض لم يرغب في السماح لي برؤية بلادهم، والبعض الآخر طالب بهدايا لأنفسهم. وفي الساعة التاسعة والنصف، أزلنا أخيرًا هذه العقبة الأخيرة، واتجهنا شمالًا.

[39] عبرنا أولاً سهل «إتاخس»، الذي تتقاطع تربته الطينية الجافة مع شبكة من الشقوق، حيث يتكرر شكل الخماسي إلى ما لا نهاية. وفي الساعة 11 وصلنا إلى وادي «غاليه»، الذي لا يختلف عن المناطق المحيطة به إلا بوجود شريط من النباتات الأكثر غنى؛ وإلى الشرق امتد صف من التلال المسطحة، بقايا «حمادة» وأدى التآكل المستمر دون توقف إلى تقطيعها إلى طاولات معزولة. على اليسار كان لدينا حافة «تاسيلي»، وهي هضبة مرتفعة قليلاً، امتدت صخورها السوداء إلى ما لا نهاية حتى أفق الغرب. وتوقفنا في وادي «تانسو»، بعيدًا قليلاً عن طريقنا، لأن التوارق يتجنبون التخييم على الطرق الرئيسية، ويبحثون دائمًا عن زاوية منعزلة، بحيث يمر الأشخاص غير المنتبهين دون أن يروهم. وادي «تانسو» هو فرع من وادي «أويريرات».

عندما حل الليل، أعد التوارق أسرتهم بالطريقة التالية. حفر كل واحد منهم بيده حفرة بيضاوية في الرمل، مع الحرص على إزالة جميع الحجارة؛ ثم وضع سرج جمله في أحد طرفي الحفرة، وأسند إليه درعه الجلدي الكبير، ليحميه من الريح. غرس رمحه بجانبه في الرمل؛ وكذلك سيفه في متناول يده. ثم، ملفوفًا في بطانيته، نام في سريره الرملي، وبعد أن تأكد بنظرة من الاتجاه الذي كانت تتخذه الجمال أثناء الرعي. وبما أنني تركت خيمتي في غات لتبسيط أمتعتي [40]، لم يتبق لي سوى أن أقلدهم. وهكذا قضينا جميع ليالينا تحت النجوم.

في صباح يوم 23 أكتوبر، رأينا في الشمال مخروط جبل «تيلوت»، الذي يشبه البركان لدرجة الخلط، ولكنه أيضًا كتلة من الحجر الرملي. بعد عبور وادي «أويريرات»، المغطى بأشجار الصمغ، صعدنا إلى الهضبة على اليسار، وشرعنا في عبور هذه الصحراء الحجرية، حيث لا تجد شجيرة، ولا عشبًا، ولا حتى كثيبًا، بل مجرد صخر عارٍ على مد البصر.

في الساعة الواحدة، نزلنا لجلب الماء في وادي «أهنارت»، حيث تؤدي غابة من نبات الأثل (الطَّرْفاء) إلى نبع «إيهانارن». هذا النبع مخبأ وسط الكثبان

الرملية؛ وغابة من نبات الأسل (الحَلفا) وتغطي التلة الرملية التي يخرج منها السائل الثمين. ويقيم هنا عبد من التوارق بشكل دائم، لمساعدة المسافرين على ملء قِربهم وسقي جمالهم. لقد جمل مسكنه المنعزل بالنخيل وحتى زرع بعض الكروم. لتوفر له حديقة خضروات صغيرة من البصل والبطيخ.

في الساعة الرابعة، وصلنا إلى سهل «تيتيرسين» الأخضر، عند سفح جبل «تيلوت». وجدنا هناك مخيمًا للإمغاد، كانوا متجهين إلى «ديدر»، مكان تجمع «الْغَزْو» (الحملة). وكان لدي غراب كنت قد قتلته في الطريق وبناءً على دعوة أحد رفاقي، بأن أُلقيه في النار بكل ريشه، وعندما تفحم من الخارج، التهمه هؤلاء الإمغاد بشهية كبيرة. وضحك النبلاء الإموشاره [41] وسخروا، وقالوا لي إن كل شيء جيد للإمغاد، سواء كان سمكًا أو طائرًا أو زاحفًا [46].

كانت المجموعة تتألف من رجال من قبائل مختلفة للغاية؛ حتى الإيميتريلالن من فزان كانوا ممثلين. وقام المحاربون بمحاكاة القتال بحيوية لا تترك مجالًا لأي نقص. أطلق الخصوم صرخات حادة، وضربوا دروعهم الجلدية الكبيرة على ركبهم، ثم اقتربوا وتناوشوا بضربات سيف قوية حتى يكشف أحدهم نفسه، وهو خطأ قوبل بضحكات عالية. واستمر الحديث لوقت متأخر من الليل؛ عن موضع لا ينتهي: الغنائم التي كان كل واحد يخطط للحصول عليها في هذه «الرازيّة» (الغارة). وفاجأنا مطر غزير بشكل غير سار أثنا نومنا.

«تيتيرسين» هي الحوض الذي تصب فيه كمية من الأودية، وبالتالي هي واحدة من أكثر المراعي خصوبة في بلاد التوارق. ويتكون الغطاء النباتي بشكل أساسي من نبات «Arthratherum pungens»، ونوع مركب آخر غير محدد بعد، بأزهار صفراء، يسميه التوارق «تاندفرت».

في صباح يوم 24 أكتوبر، انفصلنا عن الإمغاد، لاستئناف الاتجاه نحو الجبل. لمحت على يسار الطريق، على تل، عدة بقايا من المقابر. وفي الداخل، لا تزال هناك غرفتان مربعتان، مبنيتان بألواح حجرية، ومن الواضح أنها كانت تحتوي على جثث [42] في وضع القرفصاء، لأن أبعاد هذه الغرف استبعدت

أي افتراض آخر.

يسمي التوارق هذه الأنقاض «إد-دبيني» ويعرفون معناها جيدًا، لأنهم عندما يبحثون عن الكنوز، يجدون دائمًا هياكل عظمية فيها، وغالبًا ما يجدون أيضًا خواتم وفخارًا. ولسوء الحظ، لم أتمكن من فحص أي من هذه الاكتشافات. وتكثر المقابر في منطقة غات بأكملها، وخاصة في تادرارت. ويروي التوارق أنهم مارسوا هذا النمط من الدفن حتى وقت اعتناقهم للإسلام.

وتوقفنا في وادي «تاهرهايت»، الذي يساوي سهل «تيتيرسين» في خصوبته. وجدت فيه نبات «47] «Zilla macroptera] وهو مزهر. وفي الساعة الخامسة، أقمنا مخيمنا في «تيهوبار»، على حافة نبع وفي ظل أشجار النخيل والأثل.

هطل المطر طوال الليل. وواصلنا طريقنا عبر متاهة من الكثبان الرملية المنخفضة، حيث ينمو الأثل و»القطف» [48] بشكل رائع. مررنا عدة مرات أمام صخور تشبه الفطر، ولشدة ترققها عند قاعدتها. وجدت ثلاثة من طاولات الحجر هذه، كانت متلاصقة تقريبًا: كانت تحمل علامات تآكل متطابقة. [43] من الواضح أن المياه في هذا المكان شقت لنفسها ذات مرة ممرًا عنيفًا بين الصخور، حيث أفرغت قاعدتها. اليوم، واختفى كل أثر لمجرى النهر.

وهناك مضيق ضيق، مفتوح بين كتل الحجر الرملي المتراكمة، يقودنا إلى وادي «إيماكس» الذي يذهب إلى وادي «تيهوبار». وقطيع من طيور الحجل (القطا) ينهض أمامنا. ويصبح المكان أكثر جفافاً، وينتهي بنا الأمر على «الحمادة»، ولم يعد حولنا سوى الحجر الرملي الداكن. وفي هذه الهضبة، حيث لا تنمو نبتة عشب واحدة، توجد «وردة أريحا» بكمية كبيرة لدرجة أنها تغطي الأرض حرفياً. ومن الصعب تمييز أغصانها البنية والجافة، الملتفة على شكل كرة، عن الصخرة، ويبدو المشهد أكثر كآبة.

تنتشر الكثير من التلال (المقابر) على هذا السطح، ويتعجب المرء من العثور عليها بأعداد كبيرة في الجزء الأكثر قفراً من الصحراء الكبرى اليوم.

نلتقي ببعض التوارق، الذين، مثل الذين سبقوهم، يتجهون إلى «ديدر».

ينزلون من جمالهم الطويلة، ويغرسون رماحهم في الأرض أمامهم، ويبدأون المحادثة. عندما يخبرهم عثمان بأننا ذاهبون إلى «ميهرو»، وأنني أريد فقط رؤية التماسيح هناك، يضحكون بصوت عالٍ؛ يتخيل البعض أن هذا مجرد ذريعة، وهم مقتنعون بأن دليلي عثمان قد حصل مني على مبلغ كبير، ليرافقني إلى هذا الحد. وسرعان ما يلاحظون مخزوني من [44] التمر، ويريد الجميع الحصول منه؛ أخشى أن ينفد طعامي. لقد استمتع إمغاد «تيتيرسين» بالفعل على حسابي؛ فماذا سيكون الحال في المستقبل؟ أخيرًا، في الساعة الرابعة، يمتطي هؤلاء الجياع دوابهم ويختفون في الأفق.

[44] أجبرنا المطر الغزير، في الساعة الخامسة، على البحث عن مأوى في صخور «تنتورها»، حيث وجدنا مجموعة كبيرة لجأت هي الأخرى إلى هنا. وأشعلنا نارًا تحت صخرة متدلية، ورتب الجميع أمورهم لقضاء الليل بشكل مريح. يولي التوارق اهتمامًا خاصًا لحماية دروعهم الجلدية الكبيرة من الرطوبة [49]، لأنها تتشوه عند الجفاف بعد المطر ولا تستعيد شكلها الأصلي أبدًا. ويحتمي التارقي خلف هذا الدرع، من الرأس حتى الركبتين، ضد ضربات خصمه؛ لكنها دروع غير فعالة ضد البنادق، وقد رأيت أكثر من درع من هذه الدروع مثقوبة بالرصاص الذي قتل صاحبه الأول في «الأهقار».

قضيت يوم 26 في «تنتورها»، بينما ذهب عثمان ليرى إبلاً يملكها ترعى في مكان ما هنا. لذلك بقيت مع التوارق، الذين كانوا ينتظرون الأصدقاء للذهاب جميعًا إلى «ديدر».

استغل العديد منهم وقت الراحة هذا لتجديد [45] تصفيفة شعرهم، مما أتاح لي فرصة جيدة لمراقبة طريقتهم. لقد حلقوا الجانب الأيسر من الرأس بالكامل، تاركين في منتصف الجمجمة شريطًا من الشعر يمتد من الجبهة إلى مؤخرة العنق، وعلى الجانب الأيمن، فوق وخلف الأذن، شريطًا آخر من الشعر يلتقي بالأول. تم فصل شعر قمة الرأس بعناية ورفعه، ليشكل عرفًا بارتفاع حوالي 10 سنتيمترات؛ وبعد ذلك شرع كل واحد في لف العمامة المصنوعة من

القطن الأزرق حول رأسه، حيث يمر أحد طياتها تحت الذقن لحماية الفم والأنف، بينما يُسدل طية أخرى على العينين. وبهذه الطريقة يمكن للتارقي أن يحجب وجهه بالكامل، حتى أن عينيه لا تُريان؛ ومع ذلك، فهو يرى بما فيه الكفاية من خلال هذا النسيج الخفيف. هذا القناع وعُرف الشعر الذي يرتفع على قمة الرأس يعطي التارقي مظهرًا وحشيًا ومشؤومًا [50].

27 أكتوبر. - استأنفنا مسيرتنا. وادي «إينيسان»، الذي وصلنا إليه نحو الظهيرة، يختلف تمامًا عن الأودية التي عبرناها حتى الآن: يقع مجراه محصورًا بين الجدران العمودية لمضيق عميق. القليل من النباتات [46] وجدت ما يكفي للبقاء فيه. بعض الشجيرات (التي تسمى «Rhus dioïca»، واسمها التارقي «تهوناك») تجذرت في شقوق الصخور. كان الجانب الأيسر من المضيق مغطى بالرمال حتى مستوى الهضبة تقريبًا، بينما كان الجانب الآخر خاليًا منها تمامًا: مثال رائع على النقل الذي تسببه الرياح.

سمحت لي هذه الجدران الصخرية بالتعرف هنا على سماكة طبقات الحجر الرملي: إنها 40 قدمًا. وفي الأسفل، في قاع الوادي، نجد الحجر الجيري.

صعدنا الوادي للعودة إلى الهضبة، حيث أجبرنا المطر الذي بدأ مرة أخرى على التوقف بالقرب من كوخ للإمغاد، حيث يصب وادي «تيفرغاسين» الصغير في سهل يحمل الاسم نفسه. نحو المساء، جاءت مجموعة من التوارق النبلاء يحملون لعثمان خبرًا غير متوقع: بعد وصول رسالة من مرزوق/مرزق، تم إلغاء الغارة (الرازيّة) المخطط لها. في الوقت نفسه، وأرسل لنا إيخنوخن ليقول إنه ليس من الحكمة المضي قدمًا إلى «ميهرو» حيث يمكن أن نلتقي بالهقار، وأنه من الأفضل تأجيل هذه الرحلة إلى أوقات أفضل. وعندها، أعلن عثمان انتهاء رحلتنا وأراد الاستعداد للعودة. لكنني، الذي رأيت نفسي قريبًا جدًا من الهدف، والذي تحطمت كل آماله، لم أستطع أن أتقبل فكرة العودة دون إنجاز أي شيء. حاولت إغراء عثمان بوعود جديدة، وضحت له كم سيكون [47] مخجلًا له إذا علموا في غات أنه عاد في منتصف الطريق،

دون أن يريني بحيرة «ميهرو» التي جئت من أجلها من مسافة بعيدة. وذهبت محاولتي سدي، وقال التوارق، الذين وجدوا بالفعل أنه من غير المعقول بذل كل هذا الجهد للذهاب لرؤية البحيرة، وإن عثمان سيكون مجنونًا إذا خاطر بحياته من أجل نزوة كهذه، وأقسموا أننا سنقع في أيدي الهقار. وكان عثمان من نفس الرأي ووصف لي الهقار بأنهم أكثر البشر قسوة وسفكًا للدماء؛ وفي الوقت نفسه، أوضح لي أن وادي «ميهرو» ليس فيه أي شيء مميز على الإطلاق، وأنه يشبه كل الأودية الأخرى، وأنه سيتولى مهمة أن يريني أودية أجمل بكثير! وباختصار، أصبحت «ميهرو» فجأة أبشع مكان على وجه الأرض، وأي وادٍ صغير أفضل منها!

تعبت من الجدال، واكتفيت بالرد عليه: «حسنًا، بما أنك خائف من الهقار، فسأعود إلى غات وأبحث لنفسي عن دليل أكثر شجاعة منك!» لقد لمست النقطة الحساسة. كما لو أن ثعبانًا لدغه، قفز التارقي من الأرض، وغرس رمحه في التربة وأقسم أنه مستعد للموت معي، وأنه لم يكن خائفًا على نفسه، ولكن، عندما رأى الخطر، خاف فقط من أن يُتهم لاحقًا بموتي! من تلك اللحظة، لم يكن عليّ أن أنطق بكلمة أخرى؛ لقد انتصرت عزة النفس.

كانت الصعوبة تكمن في العثور على رفيق، لأنه كان من الضروري وجود تارقي كـ «كشاف» [48]، بينما يبقى الآخر إلى جانبي. حالفنا الحظ في العثور - مقابل مكافأة جيدة - على رجل معروف بأنه محارب جيد ودليل ممتاز في هذه الأرجاء. والغريب أنه كان من قبيلة «تجيهي-ملين»، أي من الهقار؛ ومع ذلك، كان «عمّا» - وهو اسمه - يكره مواطنيه السابقين بعمق وكأنه أزجري.

كان «عمّا» قصيرًا، مكتنزًا، قويًا جدًا، وذا قدرة تحمل لا تصدق. كان مظهره يعكس بالفعل القسوة والوحشية التي تُنسب عادة إلى الهقار؛ وعندما فكرت في أنه يكره مواطنيه، تساءلت كيف يجب أن يكونوا هم! ولكن يجب أن أقول إنه كان مفيدًا جدًا لي. لم يكن لدى أحد بصر أكثر حدة منه، أو أذن أدق؛ لم يعرف أحد كيف يتعرف على الأثر بشكل أفضل، وحتى على «الحمادة»

الصخرية، لم يكن يخطئ أبدًا. ولم يفلت منه شيء؛ أود أن أقول تقريبًا إنه ظل متيقظًا حتى في نومه. لم يتوقف عن إظهار الكثير من الاهتمام بي؛ ومع ذلك، لم أستطع منع نفسي من الشعور بنفور لا يمكن التغلب عليه تجاهه بسبب الوحشية التي لا تُصدق التي كان يعامل بها الجمال.

عندما رفعنا مخيمنا، في 28 أكتوبر، كان خبر إلغاء الغارة (الرازيّة) قد أرعب الإمغاد بالفعل، وكانت صفوف طويلة من الجمال تعبر الهضبة العالية للذهاب إلى غات بحثًا عن الأمان. كان الجميع يغادرون البلاد المفتوحة [49] للتراجع نحو هذه المدينة أو فزان. وكان الطريق أمامنا خاليًا، وقال لي عثمان: «إذا رأيت رجلًا، أطلق النار دون تردد، لا يمكن أن يكون إلا هقاريًا».

توقفنا في مضيق صغير، عند سفح جبل «إيكوهاون». يُطلق هذا الاسم على عدة تلال متساوية الارتفاع، ممتدة من الشرق إلى الغرب، ومُشكَّلة من نفس الحجر الرملي ذي الطبقات الأفقية، والذي ينحت فيه التآكل الجدران والمسلات والأبراج وغيرها من المنحدرات التي تشبه الأطلال والتي أشرت إليها بالفعل.

تحدد هذه التلال بداية منطقة من الجبال الطاولة التي، بقدر ما استطعت الحكم، تحافظ على نفس المظهر في كل مكان. الحجر الرملي الذي يمتد دون انقطاع من الحافة الجنوبية لـ«حمادة الحمراء» حتى هنا، يتدرج هنا أيضًا في طبقات ذات أفقية مثالية من القاعدة إلى قمم الجبال.

ينتج عن هذا رتابة كبيرة في المشهد الطبيعي. بغض النظر عن مدى اختراقك للكتلة الجبلية، فإنك دائمًا ما تصادف نفس الأشكال: القمم والرؤوس كلها في نفس المستوى؛ تظهر جميع الملامح نفس المدرجات على شكل سلالم، تتوافق مع الطبقات المختلفة. جميع الأودية محفورة بنفس الطريقة في المصاطب الطويلة من الركام التي تشكل، نوعًا ما، الدرجة السفلية من الجبل. هذه المصاطب، المغطاة بالحجارة السوداء والـمُجرَّدة تمامًا من النباتات، تحمل طابع «الحمادة» بالكامل وتتناقض مع غطاء النبات في الأودية [50] الرملية

الواقعة في الأسفل. فقط عند نقطة التقاء واديين، تتسع الأودية على حساب مصاطب الركام وتشكل ما يشبه السهل.

في صباح اليوم التالي، في الساعة التاسعة، غادرنا مخبأنا، بعد أن قام رفقائي بتبريد رماد مخيمنا بالماء، خوفًا من أن يخمن هقاري وجودنا في هذه الأرجاء إذا وجدها ساخنة. وسرنا نحو جبل «أداموليت»؛ على اليسار، استمرت هضبة «تاسيلي» بامتدادها المظلم واللامع، دون نقطة مرجعية يمكن للعين أن تستريح عليها. على اليمين، كان لدينا المنحدرات العارية تمامًا لجبل «إيكوهاون». وكشفنا الآن عن الجدار الطويل لجبل «وادروس».

توقفنا لإصلاح قبضة بندقيتي المكسورة. واتبع عثمان الطريقة التالية: أخذ قطعة من الجلد الجاف، مأخوذة من قدم جمل، ونقعها في إحدى قِربنا. عندما تم تليين الجلد بشكل مناسب، تم ربطه بالأوتار حول القبضة، ثم تغطيته بالكامل بخيوط. بمجرد أن جف مرة أخرى في الشمس، تمكنت من استخدام بندقيتي التي أصبحت صلبة كما كانت من قبل. لدرجة أنني فضلت لاحقًا الاحتفاظ بهذا الرباط، بدلاً من تكليف بندقيتي لحدّاد. ويجب أن أشير أيضًا إلى أن الماء الذي نُقع فيه الجلد القديم قُدم لنا أيضًا كمشروب.

[51] استأنفنا المسيرة في الساعة الرابعة ووصلنا قريبًا إلى الجرف العمودي لوادي «إيريرين»، الذي يمتد شمالًا، بين «أداموليت» و»إيكوهاون». وتشكل الجدران العمودية لهذا الوادي عقبة خطيرة أمام جمال التوارق، الذين يتجنبونه طواعية. واتبعنا الضفة اليمنى بحثًا عن مسار صالح للاستخدام، وعلى الرغم من أننا كنا حريصين على قيادة جمالنا باللجام وتوجيه كل خطوة من خطواتها، إذا جاز التعبير، فقد سقطت أكثر من مرة في الركام. ولذلك اضطررت للأسف لخسارة بارومتر (مقياس الضغط الجوي) الخاص بي، مما جعل من المستحيل التحكم في الملاحظات التي قمت بها حتى الآن.

وادي «إيريرين» - الذي يُطلق عليه أيضًا «إيرينيرين» - هو أحد أكثر الأودية اخضرارًا في هذه المنطقة. تغطيه غابة من أشجار «التهاك» (Salvadora

Persica - الأراك)، والدفلة [51]، والأثل لمسافة طويلة، والمضيق محفور بعمق كبير، تحت مستوى «الحمادة»، لدرجة أن أشعة الشمس تُحجب في معظم الأوقات بجدرانه العالية، وتكون درجة الحرارة فيه أكثر برودة بشكل ملحوظ. وسارع عثمان بالخروج من هذه الجنة الأرضية الصغيرة، لأن أدنى صرخة لجمالنا أيقظت صدى هائلًا فيها، مما قد يكشف عن وجودنا. [52] لذلك ذهبنا للتخييم في واد جانبي، يسمى وادي «أداموليين».

في اليوم التالي، عدنا إلى الوادي الرئيسي، الذي اضطررنا لتسلق ضفته اليسرى، بنفس الصعوبات التي واجهناها في النزول.

عند وصولنا إلى الهضبة، عند سفح جبل «أداموليت»، رأينا فجأة أشكالًا بشرية تخرج من مضيق مجاور. قبل أن ألاحظ ذلك، تركني رفيقاي واندفعا بالعدو، والرمح مرفوع، نحو هؤلاء الغرباء. لكن هذا التمثيل الحربي أفسح المجال على الفور تقريبًا لمحادثة سلمية، لأن التوارق تعرفوا على أناس من قبائلهم. كانوا ثلاثة رجال يحملون تمرًا من وادي «تجوجلت»، ولم يعلموا إلا لتوه أن الغارة (الرازيّة) قد أُلغيت وأن جميع الأزجر يتراجعون إلى غات. سارعوا لمواصلة طريقهم، حامدين الله لأنهم لم يلتقوا بالهقار هذه المرة.

عبرنا مرة أخرى مضيقًا رافدًا لوادي «وادروسين»، وبعد أن التففنا حول جبل «وادروسين» [52] من الجنوب، نزلنا على طول وادي «إيقرقار-ملين»، الذي اكتسب اسمه من الكثبان الرملية الفاتحة التي توجد بالقرب من منبعه. تستند هذه الكثبان على الجانب الجنوبي من جدار عالٍ يمتد من الشرق إلى الغرب، وهو جزء من جبل «وادروسين»، و [53] وجود هذه التراكمات من الرمل الناعم يثير الدهشة، في وسط هضبة خالية منها تمامًا. لا يمكن أن يكون هنا تفتيت في الموقع، بما أن المنطقة بأكملها تتكون من نفس الحجر الرملي، وتخضع بوضوح لنفس تأثيرات التعرية. يجب التسليم بأن رياح الشمال، التي تجتاح الجرف، سمحت للرمل بالتراكم خلفه، تمامًا كما ترسب خيطًا من الرمل خلف كل تلة أو شجيرة تعترض طريقها.

وجدنا بئرًا في وادي «إيقرقار-ملين»، عند سفح جبل «إروين»؛ لم يكن يحتوي على ماء، وهو أمر نادر الحدوث على ما يبدو.

31 أكتوبر. - استأنفنا طريقنا، ونزلنا الوادي باتجاه المصب [53]. وغطى عدد كبير من أشجار الأثل، والطلح، والشجيرات العالية المجرى الرملي للنهر، الذي يعد من أكثر الأودية خصوبة في الجبل.

لاحظت هنا، للمرة الأولى، شجيرة عالية، ذكرتني بالـ «كازوارينا». كانت أغصانها النحيلة والخالية من الأوراق، كلها عمودية، تشكل شجيرة كثيفة، اختبأ فيها الجذع القوي والمتصل تقريبًا. وغطت أزهار صغيرة لا حصر لها، موزعة بالتساوي على النبات بأكمله، الأغصان، وأظهرت لي كبسولة جافة العديد من البذور التي تعلوها خصلة حريرية.

[54] الاسم التماشقي لهذا النبات هو «آنا» [54]. لم أصادفه إلا نادرًا، خلال هذه الرحلة.

في الساعة الثامنة، اتجهنا شمالًا، متبعين دائمًا وادي «تافلامين»، المحصور في هذا المكان بين قمم عالية تحمل الاسم نفسه. وادي «نازاريت» هو رافد أيسر لوادي «تافلامين»، وليس أيمن، كما تشير خريطة دوفييه. بتصحيح هذا الخطأ الصغير، أود أن أعلن أن هذه الخريطة كانت مفيدة جدًا لي، وأن كتاب دوفييه بشكل عام كان أفضل دليل لي في هذا البلد.

بينما كنا نسير على طول الوادي، رأيت، بالقرب من قمة جدار صخري على اليمين، شريطًا أسود، يمتد موازيًا للطبقات الأفقية للجبل. قيل لي إن هذا نبات يسمى «تيلوكات» [55]، ولا يوجد إلا في الأماكن التي يصعب الوصول إليها.

في الساعة الحادية عشرة، كنا أمام جبل «آلومتاغيل» الشاهق، الذي يجبر وادي «تافلامين» على الانعطاف شرقًا. ثم غادرنا الوادي، وصعدنا مجرى سيل باتجاه الغرب، ووصلنا إلى وادي «ميهرو». ويتحد وادي «تافلامين» ووادي «ميهرو» في المصب، شمال جبل «آلومتاغيل» بقليل.

[55] بمجرد عبورنا الجدار الصخري الذي يفصلهما، دخلنا في شجيرات حقيقية من الأثل والآراك. وادي «إيريرين» نفسه لم يكن بهذا الكثافة. غطت نبتة متسلقة تسمى «آرنكاد» [56]، بأوراقها على شكل قلب، أعلى أشجار الأثل ونشرت لولبياتها الطويلة، من قمم أغصانها؛ وشكلت شبكة حقيقية، حولت بعض مجموعات الأشجار إلى شجيرات لا يمكن اختراقها.

كنا نتقدم بصعوبة. على الرغم من أننا كنا نعتلي جمالنا، كانت أغصان الأثل تلسع وجوهنا في كل لحظة، وكانت رؤوس القصب المائلة تعلونا [57].

تخلت الجمال في النهاية عن شق طريقها، واضطررنا إلى السير في مجرى الوادي نفسه، المليء بالرمل الناعم، حيث كانت حيواناتنا تغوص بعمق في كل خطوة. وتعكس هذه البقعة الرملية ببريقها ما يشبه المياه الجارية بشكل يثير الحيرة. ويتعزز الوهم بوجود حزم العشب العالية التي تتدلى على طول الضفاف المتدلية، والقصب الذي يحد المجرى من الجانبين.

في الساعة الثانية، توقفنا في منتصف الوادي، أمام مجموعة من القصب، وقال لي عثمان [56]: هذا هو «السباربه». سمعت بوضوح صوت ارتطام سائل، وعندما عبرت الشجيرات بصعوبة بالغة بمساعدة رفيقيّ التوارقي، وجدت نفسي أمام حوض صغير يبلغ قطره 4 إلى 5 أقدام، تظهر على سطحه فقاعات هواء باستمرار: ومن هنا جاء صوت الارتطام الذي أراد التوارق التعبير عنه باسم «السباربه». كان عمق هذا الحوض حوالي 5 أقدام بالقرب من الحافة.

كانت المياه فيه لا طعم لها إلى حد ما، مالحة بالكاد؛ وليس لها رائحة. يقارن التوارق هذا الغليان بشكل طبيعي بغليان الماء على النار، ويزعمون أن النبع مغلي. كانت درجة حرارته في الواقع 37.5 درجة مئوية، بينما كان مقياس الحرارة في الهواء يشير إلى 30. يقال إنه بعد الأمطار الغزيرة يفيض النبع ويحمل معه الرمال. وفي الواقع، ترى في المناطق المحيطة ترسبًا أبيض ناتجًا عن هذه الفيضانات.

يقع حوض ثانٍ على بعد بضعة أمتار من هناك، بالقرب من الضفة اليسرى

للوادي. هنا أيضًا، كنا نسمع غليان الماء وسط القصب، وحتى نقيق الضفادع؛ لكن أرض المستنقع كانت ضعيفة جدًا لدرجة أنني اضطررت للتخلي عن فكرة التوغل أكثر.

يبدو أن هناك العديد من الينابيع المماثلة الأخرى، لكن بعضها مغطى بالرمال ولا يرتشح إلا بالكاد، بينما يختبئ البعض الآخر في شجيرات لا يمكن اختراقها. قيل لي إن هناك نبعًا باردًا في المنبع يسمى «إينهولار».

[57] لم نتوقف سوى للوقت الضروري تمامًا، وواصلنا صعود النهر. ولاحظت جدارًا بطول 15 قدمًا، مبنيًا من الحجارة غير المصقولة، بدون مونة، بدا وكأنه يشكل سياجًا مستطيلًا. قال لي التوارق إن «الجبّارن» بنوه ليناموا فيه. وبجواره مباشرة يوجد النبع المسمى «إيمانغاساتن»، الذي ينبثق من مصطبة منخفضة مكونة من حجر رملي مختلف. ترتشح المياه أيضًا في نقطة لتقع في أسفل هذه المصطبة. ويحتوي النبع العلوي على فقاعات غاز؛ والمياه فيه مالحة بشكل ملحوظ.

مرت بعض الغزلان؛ وأطلقت النار على إحداها فسقطت، لكنها نهضت على الفور تقريبًا. ولاحقها عثمان، والرمح مرفوع، دون أن يتمكن من اللحاق بها. وواصلت طريقي، عندما رأيت، لدهشتي الكبيرة، قطيعًا من الماعز الذي، في ذعره، تلاصق ببعضه البعض وواجهني. لم يكن هناك راعٍ مرئي، على الرغم من أن كيسين من التمر كانا معلقين بالقرب من غصن شجرة طلح.

خمّن عثمان على الفور أن طلق بندقيتي أخاف هؤلاء الناس الذين من الواضح أنهم لم يكونوا ينتظرون سوى الهقار. ولهذا السبب بدأ يهز برنوسه الأبيض في طرف رمحه، ويصرخ بأعلى صوت ممكن: «العافية! العافية!» [58] لكنه لم يحصل على أي نتيجة: لم يظهر أحد. لم يكن هناك أي أثر لخطوات على الصخر. لقد كنت سعيدًا بـ [58] تناول اللحم الطازج، الذي حرمت منه لفترة طويلة، وكنت آمل أن أتمكن من شراء ماعز؛ لذلك توقفنا في وادٍ صغير، ليس بعيدًا عن النبع، وانتظرنا بفارغ الصبر عودة الراعي الهارب.

أخيرًا، لمحت، بمساعدة منظاري المقرب، رجلاً يراقب من خلف صخرة، في أعلى الجبل. لم ينزل، على الرغم من ندائنا: من الواضح أن الهقار لديهم سمعة بعدم الوفاء بوعودهم؛ لكن زوجته ظهرت فجأة كمفاوضة في اتجاه معاكس تمامًا [59]. على الفور، أنزل عثمان لثامه على وجهه، بينما جلست المرأة على حجر، تخفي نصف وجهها بطرف من ثوبها. جلس عثمان القرفصاء على الأرض على مسافة، وبهذه الطريقة، وهما يديران رأسيهما، بدأ المحادثة من بعيد. وتبين أن الراعي، عند سماع صوت بندقيتي، ورؤية فارس ملثم يركض والرمح مرفوع، لم يشك في وصول الهقار، ولجأ إلى الفرار لإنقاذ نفسه. عندما رأى الرجل، من مرصده العالي، أن زوجته تغادرنا، نزل ببطء من طريق طويل وبعيد وجاء ليحيينا.

لم يفكر أي من التوارق في السخرية [59] من خوفه، وعلى الرغم من أنه لم يكن نبيلًا، فقد حافظوا دائمًا على قدر معين من الاحترام تجاهه. لاحقًا، سألت عثمان عما إذا كان، في حالة غياب الراعي، سيعتقد أن له الحق في ذبح ماعز، على أن يعوض صاحب القطيع في غات: «لا يجرؤ أحد»، أجاب، «لأن أي امرأة لن ترغب في النظر إلينا بعد ذلك!»

في المساء، أحضر لنا ابن الراعي قرعًا مملوءًا باللحم المفروم (المدقوق)، ولكن بما أنهم أضافوا إليه حليبًا حامضًا، لم أستطع أن آكل منه.

غادرنا في اليوم التالي، 1 نوفمبر، في وقت مبكر، لصعود الضفة اليسرى للوادي باتجاه الجنوب. كان شريط أبيض من الكثبان الرملية يستند على اليسار، على جانب الجبل. في الساعة التاسعة وصلنا إلى تل مغطى بالقصب ومحاط ببقايا جدران، في وسطها حوض مليء بالماء. يُطلق على هذا النبع اسم «دجوقوق». كانت الجدران مصنوعة من حصى كبيرة مدموغة بالطين، وسمكها من قدم إلى قدمين. كان الشكل العام مربعًا يبلغ طول ضلعه حوالي عشر خطوات. توجد في الجوار أسوار حديثة من الحجارة الجافة أقامها الرعاة لتطويق قطعانهم، وقد يخطئها الغريب ويعتبرها آثارًا.

أصبحت المنطقة أكثر انبساطًا، وابتعدت الجبال عن بعضها البعض، وعلى اليمين، بجوار جبل «نازاريت»، رأينا «الحمادة». ثم عبرنا وادي «ميهرو»، الذي اتسع في هذا المكان بسبب [60] التقاء عدة أنهار، وتبعنا الضفة اليمنى. في كل مكان، كانت هناك آثار لا يمكن إنكارها لفيضان قديم: حزم من الأعشاب معلقة على الشجيرات أو حطام من الخشب والأغصان المترسبة على طول الضفاف. قيل لي إن التماسيح تنزل أحيانًا إلى هنا.

في الظهيرة، اكتشفنا لأول مرة ماءً في مجرى النهر [60]. كنا نتقدم بحذر حتى لا نخيف الزواحف، التي، وفقًا لرفيقيّ، تشم رائحة الإنسان بحس شم لافت للنظر. وتوقفنا في منتصف الوادي، في وسط الشجيرات الكثيفة، لأن عثمان كان ينظر بقلق نحو الهضبة، حيث كان يشك في وجود الهقار.

ذهبنا سيرًا على الأقدام إلى أسفل الضفة، في مكان حيث كان المجرى الصخري للوادي يحتفظ ببعض البرك الكبيرة من الماء. رأيت بالفعل حول هذه البرك آثارًا عديدة لأقدام التماسيح: كانت مطبوعة بوضوح في الطين لدرجة أن المرء كان يميز حتى الحراشف التي يكسوها الجزء الداخلي من القدم. وتترك القدم الأمامية بصمة لها شكل النجمة تقريبًا، بينما تشبه بصمة القدم الخلفية إلى حد ما بصمة قدم طفل. لم تترك الأصابع الثلاثة على الجانب الخارجي بصمات للمخالب [61]. [61] وعند سفح الضفة المتدلية، فتحت العديد من الأروقة حيث اعتادت الوحوش أن تأخذ قيلولتها. لكن التوارق حاولوا عبثًا مطاردتها من مخابئها باستخدام أعواد طويلة. صعدت إلى بركة ثانية وثالثة؛ وفي كل مكان وُجدت آثار جديدة، لكن الحيوانات ظلت غير مرئية.

يبدو أنه توجد في المنبع «رهادير» (برك عميقة) أكبر بكثير، حيث تتواجد أكبر التماسيح (الآثار التي رأيتها كانت لحيوانات يبلغ طولها من 5 إلى 6 أقدام).

بذلت قصارى جهدي لإقناع رفاقي بالتقدم أكثر، لرؤية واحد على الأقل؛ لكن الخوف من الهقاركان أقوى، وحثني التوارق على العودة. لم يرغبوا حتى في التخييم حيث كنا، وبحثوا عن مكان أكثر اختباءً، حيث لا يمكن لأهل

«الحمادة» أن يرونا.

على الرغم من أنني لم أنجح في رؤية تمساح بعيني، فإن وجودها في الجزء العلوي من وادي «ميهرو» لا يمكن أن يكون موضع شك. ولا توجد بحيرة «ميهرو»، لأن حتى هذه البرك الكبيرة في المنبع، والتي يسميها التوارق «بحر»، ليست سوى [62] تجاويف في مجرى النهر، تحتفظ دائمًا بقليل من الماء. ويؤكد التوارق رسميًا أن الوادي لا يتسع إلى حوض بحيري، وأن الماء موزع بهذه الطريقة على طول مساره.

تتغذى التماسيح على الأسماك العديدة التي رأيتها تسبح في البرك. بعد هطول أمطار غزيرة، وتحل التيارات المائية الحية محل البرك، مما يدفع التماسيح إلى النزول إلى المصب؛ وبمجرد انخفاض المياه، تلجأ إلى الأحواض الأعمق. ويقال إنه لم يعد هناك تماسيح في منطقة المنبع بعد «آهرر».

المسافر الذي يمكنه البقاء لبعض الوقت في وادي «ميهرو» سيجد بالتأكيد حيوانات ونباتات أكثر ثراءً بكثير مما هو معتاد ملاحظته في هذه المنطقة [62].

2 نوفمبر. - غادرنا النهر الأخضر واستأنفنا الاتجاه شرقًا، ولدينا على اليسار خط مستمر من الجبال، وعلى اليمين «الحمادة» وبعض التلال. اتبعنا الضفة اليمنى لوادي «نازاريت»، الذي يأتي من الجانب الشمالي للجبل الذي يحمل الاسم نفسه. توقفنا في وادي «تيسورار»، أحد روافد وادي «تافلامين».

3 نوفمبر. - عبرنا وادي «إيقرقار-ملين» [63]، عند النقطة التي ينعطف فيها شمالًا. بعد ذلك بوقت قصير نزلنا في مضيق عميق - وهو فرع من نفس الوادي - حيث دهشنا من العثور على الكثير من الخضرة: كل هذه الأودية المحصورة هي أكثر خصوبة بلا حدود من الممرات السطحية المعرضة دائمًا للرياح [63].

يُغطِّي نبات «الأماتلتل» [64] جدران الصخور هنا، وتتناوب مجموعات من شجيرات الدفلة (وردالغار) المليئة بالزهور مع نباتات «تيلوكات» ذات التوت الصالح للأكل (العنبيات)، والتي أراها لأول مرة. وإذا أخذنا في الاعتبار أنني لم أتمكن من ملاحظة النباتات التي كانت في طريقي إلا عابرًا، ومع ذلك فقد

صادفت الكثير من الأنواع الجديدة، فأي اكتشافات يحق لنا أن نتوقعها من الاستكشاف المنهجي لهذه الكتلة الوسطى من الصحراء الكبرى! واتمنى قريبًا يصبح ممكنا اجتياز هذه الأودية بأمان تام! ولكن في هذه اللحظة، علينا أن نمر على عجل، لأن العدو قد يظهر في أي لحظة.

[64] عبرنا تباعًا وادي «تافلامين»، وفرعين من وادي «تاسوني»، وأخيرًا وادي «تيهنات»، الذي يصب في وادي «إيريرين». وكنا قد نزلنا للتو إلى قاع هذا الأخير، عندما فاجأتنا عاصفة عنيفة، أجبرتنا على البحث عن ملجأ تحت صخرة متدلية. قضينا ليلة حزينة تحت سقفنا الحجري، مبللين حتى العظام، بدون نار، وبدون طعام سوى التمر. كان عثمان، الذي يعرف جيدًا خطر هذه الأمطار الغزيرة، يخشى من أن يأتي فيضان مفاجئ ليجرف جمالنا وكل شيء آخر. ولم يتوقف المطر إلا في الصباح.

في السادسة صباحًا، تسلقنا جدار الصخر بصعوبة، وعلى الرغم من أن التوارق حملوا الأمتعة بأنفسهم، سقطت جمالنا المسكينة عدة مرات. ولا يمكن للمرء أن يصدق ما تستطيع هذه الحيوانات فعله في الجبال؛ بالكاد يمكن للبغل أن يفعل أكثر من ذلك. أخيرًا، عندما وصلنا إلى القمة، أعدنا لهم أحمالهم، واستأنفت الحيوانات الشجاعة المتعبة المسير ببطء. وعبرنا بعض الممرات الصعبة الأخرى - وعبرنا وادي «أزيت» - وأخذنا نصف ساعة من الراحة؛ ولم يعد لدينا عقبات لنعبرها. أمامنا، وتعود «الحمادة» لتكشف عن سطحها الرتيب الذي لا نهاية له.

في الساعة 4، توقفنا في وادي «إيدجيف-ن-أمونى» الذي يغطي مجراه الواسع أشجار أثل (طرفاء) رائعة؛ تنمو هذه الأشجار هنا أفضل من أي مكان آخر، ويأتي التوارق هنا للتزود بخشب الرماح.

[65] 5 نوفمبر. - غادرنا الوادي، حيث التقينا ببعض الإمغاد، الذين يريدون قيادة قطعان الماعز الخاصة بهم إلى جوارغات.

واصلنا عبور «تاسيلي» الكئيب، الذي بالكاد تتخلله بعض المنخفضات

الطفيفة وبعض الشجيرات. وهنا يشعر التارقي بالراحة. وتكتشف عينه الثاقبة العدو على مسافات هائلة، وإذا كان القتال غير متكافئ، فإن مطيته السريعة تحمله كالريح عبر «الحمادات» الصخرية. ويؤكد لي عثمان أنه يجرؤ على المغامرة في قلب بلاد العدو، لأنه يعلم جيدًا أنه لا يمكن لأي «مهاري» أن يتفوق في السرعة على الحيوان الذي يركبه وفي هذه اللحظة. بينما بطء جملي سيكون مصيريًا بالنسبة لي؛ ويمكن لرفيقاي أن يضعا نفسهما بسرعة خارج الخطر، لكنني أنا نوعًا ما مسمر على الأرض؛ ولهذا السبب، يقول لي عثمان، فإن مهاريّه الجيد لن يكون مفيدًا له، لأنه لن يتخلى عني أبدًا للفرار. ولحسن الحظ، لم يكن عليّ أن أخوض تجربة إخلاصه!

الأفق الواسع لا يكشف لنا عن أي شيء مريب، ويسير التوارق وهم يغنون في «الحمادة». إنها في الغالب أناشيد حربية، معظمها مليء باللحن. ويبدأ عثمان في الغناء بمجرد أن يكون الفضاء أمامه؛ اما في الجبل، على العكس من ذلك، يسير صامتًا، وكله عيون وآذان، ويتجنب إحداث أدنى ضجيج.

وصلنا إلى «تنتورها» في المساء. كانت قوتي تتضاءل بشكل واضح منذ عدة أيام، لأن الزيارات المستمرة للتوارق في بداية [66] ورحلتنا قلصت مؤننا بسرعة إلى بضع تمرات وبعض البسكويت، وهو طعام غير كافٍ على المدى الطويل. وبعد أن تبللت حتى العظام عدة مرات، دون أن نتمكن من تجفيف أنفسنا بإشعال النار، أصبحت ضعيفًا لدرجة أن التوارق اضطروا لرفعي على جملي. في تنتورها، وأصبح تعبي شديدًا لدرجة أنني بقيت عدة أيام مستلقيًا بين الصخور التي حمتني من ريح الليل الباردة.

لحسن الحظ، كان أقارب عثمان يخيمون هنا، واعتنوا بي قدر استطاعتهم. وأقنعوني بشرب حليب النوق، الأمر الذي أدى إلى تفاقم حالتي. بناءً على طلبي، صنعوا لي مرق لحم ماعز قوي، أعطى على الفور أفضل النتائج. ومن تلك اللحظة، لم يتعب هؤلاء الأشخاص الطيبون من تزويدي به. كانت إشارة مني كافية لجعلهم يسرعون، وحتى في الليل، كان أحدهم دائمًا في خدمتي.

سأتذكر دائمًا بامتنان عميق الرعاية الجيدة التي تلقيتها من هؤلاء التوارق الفقراء. [65]

في 9 نوفمبر، استعدت قوتي بما يكفي لركوب جملي. وغادرنا «عمّا»، لأنه كانت لديه عائلته في الجوار؛ لكن كان لدينا رفيق وهو أخو أوفينايت، شيخ الإيمانغاساتن. في 10 نوفمبر، عند نبع «إيهانارن»، وعلمنا من تارقي أن إيخنوخن قد غير رأيه مرة أخرى، وأن الغارة (الرازيّة) يجب أن تتم. واستقبل عثمان هذا الخبر بحماس، ولم يكن لديه سوى فكرة واحدة: الذهاب إلى غات للمشاركة في الحملة مع أصدقائه. ومن جانبي، كنت حريصًا على العودة إلى منزلي الجيد في غات وطعام أكثر دسامة؛ لذلك اتفقنا على مواصلة طريقنا طوال الليل. [67]

استأنفنا المسير عبر الهضاب الكئيبة التي تمتد غرب كثبان غات. وغطى ضباب خريفي المشهد وحجب الرؤية، على الرغم من السماء المتلألئة بالنجوم. عند الفجر، ارتفعت الضبابات، واكتشفنا قمم نخيل «تونين». وبعد ساعات قليلة، ركعت جمالنا أمام أبواب المدينة. واستقبلني خادمي، الذي تنبأ له الناس بأنني سأموت على يد الهقار، وبابتهاج أخذ يشكر الله على عودتي الميمونة.[69]

## الفصل الثالث الإقامة في غات

(12 نوفمبر 1876 - 4 يناير 1877).

بمجرد وصولي، أتلقى زيارة من التوارق المكلفين بتجديد مطالبات الشيخ «بوبكر» الذي يدعي أن البعثة الإنجليزية قدمت هدية لعائلته، ويجب عليّ أن أفعل الشيء نفسه تجاهه. أرسلت إليه لأقول إن الغدامسيين وأنا في نفس الوضع: وقد دفع له كل منهم تالرًا واحدًا، وأنا مستعد لفعل الشيء نفسه.

وهكذا انتهت هذه المحاولة الجديدة.

13-16 نوفمبر. - يعود عثمان إلى «تنتورها»: من المتوقع وقوع غارة من الهقار، لأن الأزجر قتلوا خمسة رجال من قبيلة «تايتوق» [66] وأخذوا جمالهم.

[70] أُعدّ رسائلي، لأن الغدامسيين سيعودون إلى ديارهم في غضون أيام قليلة.

اقتحم الهقار «جانيت» وأخذوا جمال «الإيهادانارن» [67].

17 نوفمبر. - ذهبت إلى المسجد؛ لم يعد هناك من يجد ما يعترض عليه. لقد نجحت أخيرًا في العثور على الأفيون هنا، على الرغم من سعره الباهظ؛ بفضل هذا الدواء، أتعافى بسرعة ويمكنني الخروج.

18 نوفمبر. - عاد عثمان وساعدني في مراجعة يوميات رحلتي.

حلقت لحيتي، وهو ما يعتبر هنا خطيئة كبيرة؛ وسأضطر إلى تغطية وجهي بطريقة التوارق.

هناك حديث عن مفاوضات سلام، بدأها مرابط من «جانيت» [68]. الجميع يأملون أن تنجح، لأنه نتيجة لهذه الغارات المستمرة، اختفى كل أمان. وربما يمكنني بعد ذلك التوغل في بلاد الهقار-على أي حال- باتخاذ «أيير» كنقطة انطلاق.

19 نوفمبر. - زرت الحاكم «صافي»، وكان استقباله ودودًا للغاية؛ وأنا مدين بالكثير لهذا الرجل، الذي يفعل كل ما في وسعه من أجلي. وأخبرني أنه بمجرد عودتي من بحيرة «ميهرو»، بدأ الشيخ مرة أخرى في تقديم مطالباته وتلفظ بالتهديدات. أجاب صافي: «يمكنك قتل شخص ما [71]، هذا صحيح؛ ولكن كن مطمئنًا أنه إذا ارتكبت عملاً عنيفًا ضد ضيفي، فسأكون غدًا في أثرك، وسأقتل بمساعدة عرب «فزان» مائة رجل للانتقام لهذا الشخص [69]». يبدو أن الشيخ ابتعد دون أن ينبس ببنت شفة. يعتقد صافي أنه يمكنني الذهاب إلى «أيير» مع القافلة الكبيرة، وأن توصية من سلطان «أغاديس» يمكن أن تضمن لي حماية زعيم «الأوليميدان» الذي سيقودني بأمان إلى «تمبكتو».

وستغادر القافلة في غضون أسبوعين. ولا يمكنني الذهاب إلى السودان إلا بصحبة «كيل-غيريس»؛ وإلى «تمبكتو»، إلا بمساعدة «الأوليميدان». حيث يمر الطريق غرب «أغاديس» عبر بلدان جديدة وذات أهمية كبيرة؛ وربما يمكنني أيضًا التقدم من «تمبكتو» إلى «سيغو».

أسمع أن الهقار يريدون السلام حقًا. ويريد صافي أن يتم إبرامه عبر السلطة التركية، وهو بالضبط ما يريد الهقار تجنبه؛ وهكذا، أصبح كل شيء موضع شك. أتوقع أن الهقار سيكونون أكثر فأكثر تحت نفوذ غات، أي الأتراك، لأن هؤلاء ليس عليهم سوى إرسال عرب «فزان» إلى [72] «الأهقار» لجعل الهقار يستجيبون للمصالحة. وهذه الغارة التي تمت بالخيول في بلد مقفر وبعيد [70] هي درس قيم للفرنسيين؛ إنها تعلمهم ما يمكن فعله في الصحراء بالفرسان الخفيفة [71].

20 نوفمبر. - زيارة لـ «صافي»، حيث التقيت بابن «توفيق». سيذهب هذا الأخير أولاً إلى «جانيت» عند والده، الذي بدأ مفاوضات مع الهقار. ويزعم صافي أنني سأصل برفقته بأمان إلى «أغاديس». وعلى الرغم من بشرته السوداء [72]، فإن هذا الشاب يتمتع بملامح أوروبية تمامًا ووجه ودود؛ لكنه يريد المغادرة بالفعل في غضون ثلاثة أيام، وأنا مضطر لانتظار قافلة «فزان» لشراء الحبوب.

بينما كنت عند صافي، جاء إيخنوخن وبدأ يتحدث باللغة التارقية. علمت لاحقًا أن «كيل-وي» سأله عما إذا كنت مسلمًا؛ بهذا الشرط فقط يريد أن يأخذني إلى [73] «أيير»: أجاب إيخنوخن بالإيجاب. ووصل أوفينايت بعد ذلك، وخرجت معه؛ سألته عما سيكون مستعدًا لفعله في حال طلب منه إنجليزي أو ألماني القدوم لأخذه من «غدامس»؛ أعلن استعداده ليكون دليلاً له، وأكد لي أنه في هذه الحالة لن يكون لإيخنوخن أي رأي؛ في المقابل، يجب على أي فرنسي أن يتوجه إلى إيخنوخن، أي أن يدفع له «العادة» (رسوم المرور).

بعد ظهر هذا اليوم، أعلن عثمان أيضًا استعداده للمجيء لاصطحاب

المسافرين من «غدامس». قال إنه إذا أراد فرنسي أن يضع نفسه تحت حمايته، فما عليه سوى أن ينتحل صفة إنجليزي أو ألماني، وعندئذ يمكنه المجيء حتى عبر«غدامس» دون أن يتمكن إيخنوخن من تقديم مطالبات [73]. ويطلب التوارق من المسافرين المسيحيين «عادة» (رسوم مرور) قدرها 100 تالر [74].

هذا المساء، زارني حسن من «تونين»، وجاء ليطلب أدوية لعمه «مهادي». وأخبرته عن نيتي الانضمام إلى جماعة «السنوسية»؛ وافق بشدة، وقال لي إن الأمر لا يستغرق سوى يومين لذلك؛ وسيذهب للتحدث مع مهادي حول هذا الأمر[75]. وفي المساء، [74] ذهبت إلى «ديديكورا»، الذي نصحني أيضًا بالانضمام إلى جماعة دينية؛ سأجني فوائدها خاصة في السودان، مع المتعصبين «خاطاس». أعطيت سببًا بأنني نذرت هذا النذر، إذا عدت سالمًا من رحلتي الخطرة إلى «ميهرو». نصحني ديديكورا بالقيام ببعض الوضوء وبعض الصلوات قبل النوم، ومن ثم فعل ما أجده مناسبًا في نومي. وأنوي أن أقول له إنني حلمت بأنني أنتمي إلى جماعتين، جماعة «السنوسي» وجماعة «مولاي الطيب»؛ وأصدقائي في «تونين» من الأولى، وديديكورا من الثانية. ستكون الأولى مفيدة جدًا لي في السودان؛ والثانية، لرحلة إلى «تمبكتو».

22 نوفمبر. - تمكنت من الخروج هذا الصباح. عند «صافي»، وحضرت مناقشة مهمة. وكان إيخنوخن حاضرًا مع أوفينايت الذي كان يتحدث بعنف كبير، وبينما كان إيخنوخن يحثه باستمرار على الهدوء. وكان هناك أيضًا مبعوث من «عبد القادر»، شيخ «عين صالح». وكان الحديث يدور حول: أخذ رجال إيخنوخن الكثير من الجمال من الهقار بالقرب من «توات»، وأخذوا في الوقت نفسه عددًا من الجمال التواتية وهي التي يطالب بها عبد القادر. وكانت سلطة هذا الزعيم كبيرة [76].

[75] 23 نوفمبر. - صافي مريض، وقد منعوا الدخول إليه؛ وأحمد، سكرتيره، مريض أيضًا. وهذه الحمى تضعف المرء بسرعة ولا تستسلم بسهولة لمفعول

حبوب الكينين. وغدًا ستصل قافلة من الحبوب والشعير من «فزان»، وهناك نقص كبير هنا. أما بالنسبة للتمور، فلا يوجد منها على الإطلاق وفي الوقت الحالي؛ من المتوقع وصولها من «فزان».

بعد ظهر هذا اليوم، زارني «عبد القادر» من «غدامس»، وطلب مني دواءً لأوجاع الأسنان وتحدث معي عن رحلاته. وقال إنه رأى المسافرين الفرنسيين [77] في «غدامس» وحذرهما، لكنهما لم يصدقاه، لأنهما كانا يثقان تمامًا في إيخنوخن. ولقد كان هذا الرجل في أوروبا، ومحادثته وشخصيته لا تعجبني. ولا أثق به.

24 نوفمبر. - صافي، مريض جدًا، ولا يستقبل. زيارة طويلة من ابن «توفيق»؛ كان فضولي للغاية ويهتم بكل ما أعرضه عليه؛ ولكنه جاهل جدًا بنفسه، حتى فيما يتعلق ببلده: على سبيل المثال [76] لم يستطع أن يخبرني ما إذا كانت هناك جمعيات دينية موجودة فيها أم لا [78]. وأخبرني أنهم يصطادون الأسد والنعامة على الخيل، وأن الفهود أيضًا كثيرة. ولم يكن يعرف الاسم التارقي الذي يطلق على التمساح، لأنهم في «أيير» يسمونه بطريقة أخرى؛ وبشكل عام، لاحظت أن العديد من أسماء النباتات والحيوانات التي ذكرها دوفييه تحل محلها مصطلحات أخرى في «أيير»؛ ومن المحتمل أن تكون هذه المصطلحات مأخوذة من لغة «الهوسا».

25 نوفمبر. - أحضرت لصافي حبوب كينين؛ وقبلها مني بامتنان. وقمت مع عثمان بمراجعة مجموعتي النباتية، لتعلم الأسماء المحلية.

26 نوفمبر. - زرت «صافي» الذي تعافى من الحمّى. وفي المدينة، يوجد نقص كبير في المؤن، والجميع يتجمع حول شيخ البلد، الذي يحدد أسعار بيع ما يصل من «فزان»، ربما لتجنب عدم حصول الفقراء على أي شيء. لقد أعطونا كيلين من الشعير مقابل 23 قرشًا، وهذا امتياز كبير.

27 نوفمبر. - تحدث «صافي» معي بعبارات إطراء كبيرة عن أهل «أيير»، وخاصة عن الحاج «بيلخو». ومن [77] عنده ذهبت إلى «ديديكورا»، الذي

عاتبته لعدم زيارتي مجددًا، فاعتذر مشيرًا إلى مشاغله. وبخصوص انضمامي لجماعة دينية، نصحني بطريقة «مولاي الطيب»، ومع ذلك فهو نفسه من أتباع «المدنية». يعتقد أن هذا لن يسبب أي صعوبة. لذلك أريد الانضمام إلى هذه الطريقة والطريقة «السنوسية». للأسف، صديقي «حسن» من «تونين» لا يُبدي أي حماس لذلك؛ ولم أتمكن من رؤيته أثناء زيارتي للقرية. ونصحني «ديديكورا» بالذهاب إلى القاضي وتجديد شهادة الإيمان بحضور شاهدين، ثم أداء ركعتين في المسجد؛ وعندئذ سيعطيني القاضي شهادة خطية.

28 نوفمبر. - ذهبت إلى القاضي: إنه رجل داكن البشرة وذو سلوك عادي. وجهت الحديث إلى المجال الطبي، وكان ذلك مفيدًا جدًا لي، لأن القائد مصاب بطول النظر وكاد لا يرى، لعدم وجود نظارات لديه. عدت إلى منزلي، وكان من حظي أنني وجدت له عدسات مناسبة، وأعادت له بصره تقريبًا، وجعلته أفضل صديق لي.

29 نوفمبر. - قال لي «ديديكورا» إنني إذا لم يطلب مني القاضي نطق الصيغة (الشهادة)، يمكنني الانضمام إلى طريقة دينية دون أي تأخير آخر. وذهبت إلى «تونين» لرؤية الشريف، لكنني لم أجد سوى صديقي «حسن»، الذي نصحني بالدخول أولاً إلى طريقة «مولاي الطيب»، وهو أمر أسهل، ولأنه سيكون من الصعب جدًا عليّ، حسب رأيه، اتباع تعاليم الطريقتين في وقت واحد. ولدي انطباع [78] بأن الشريف لا يوافق أو حتى يريد منع انضمامي إلى «السنوسية»؛ على الأقل، تفوه حسن بهذه الكلمات: «الشريف يرى أن لا تنضم إلا إلى طريقة «مولاي الطيب»». وربما لا يرى أنه من الجيد الانتماء إلى عدة طرق، لأنه لا يمكن تكريس النفس بما يكفي لكل واحدة منها [79]؟ سأبحث عن معلومات.

في طريق العودة، قمت بزيارة للشيخ، بناءً على نصيحة «حسن». وحافظ على سلوك لائق؛ لكن بعد ذلك، أخبرني «حسن» أنه لا يزال ينتظر هدية، بل وصرح بأنه إذا لم يفعل، فلن أصل إلى السودان. ويخشى أن أكون قريبًا للسيدة «تينيه» (Mlle Tinné)، وأن أتمكن من إبلاغ إسطنبول عنه والتسبب

في متاعب له.

للأسف، فتر حماس «ديديكورا» كثيرًا؛ ولم يعد يسارع إلى إدخالي في طريقة «مولاي الطيب»، على الرغم من علمه بمدى الأهمية التي أوليها لذلك.

شهدت بعد ظهر هذا اليوم، عند القاضي، محاكمة كان فيها التاجر «عبد السلام» مدعيًا والمدعى عليه عبدًا. كان العبد قد تعرض للجلد بالفعل، ولكن بطريقة معتدلة جدًا؛ أفترض أنه استمال الجنود بالمال. وحكم القاضي بعدل كبير، على الرغم من أن «عبد السلام»، مستشهدًا بعلاقاته الرفيعة، طالب [79] بعقوبة قاسية. نجا العبد بالتهديد بقطع يديه إذا تكرر الأمر.

التقيت صديقي «حسن»، الذي حذرني من الذهاب إلى «تونين» في الوقت الحالي؛ وأشك في أن يكون وراء ذلك تهديد من الشيخ «إيغ-بكر»، الذي ينتظر الهدايا عبثًا.

1 ديسمبر. - جاء شقيق «حسن» لاصطحابي نيابة عن «المهدي»، الذي ينتظرني في «تونين». وعلمت أن شكوكي كانت في محلها: أقسم الشيخ أنه إذا لم أعطه 50 تالرًا وبرنوسًا، فلن أصل حيًا إلى السودان. وأراني «المهدي» مجموعة من الأدوية والسموم التي أحضرها من تونس.

يستمر القاضي في معاملتي باحترام، لكنه أعرب عن إعجابه ببرنوسي اليوم بطريقة مثيرة للريبة: سأضطر بلا شك للتضحية به؛ وربما سيعلن حينها أنني مؤمن حقيقي، وسيعطيني الشهادة الخطية.

واجهت مساء اليوم مشكلة مزعجة مع «إيخنوخن»، الذي كان يجلس مع بعض الأصدقاء بالقرب من الطريق، وعندما رآني أمر، سمح لنفسه أن يسأل بصوت عالٍ أين يذهب هذا «الكافر» [80]. لم أستطع إلا أن أذهب إليه وأعاتبه على سلوكه؛ قلت له إن هذا تصرف غير لائق مضاعفًا من رجل بمكانته وعمره. وأراد الحاضرون أن يجعلوني أصدق أنني أسأت السمع، لكنهم قالوا لي أيضًا إنني لم [80] أكن حكيمًا في التحدث بهذه الصراحة. على العكس من ذلك، أعتقد أنه ليس سيئًا أن أظهر لهم أنني لا أخشى أحكامهم.

لسوء الحظ، ارتكبت خطأً صغيرًا في المسجد، فقد بدأت الصلاة عندما كان الإمام قد بدأ بالفعل بالخطبة، الأمر الذي أثار ضحك بعض الناس. بمجرد أن رأيت خطأي، جلست بهدوء. من الضروري جدًا أن أتعرف تمامًا على كل هذه الطقوس، ولهذا السبب أنا أكثر تمسكًا بالانضمام إلى طريقة صوفية.

غدًا، سيتعين على «ديديكورا» أخيرًا الذهاب معي إلى «المقدم».

2 ديسمبر. - وصول قافلة كبيرة من «فزان» تحمل مؤنًا. المدينة كلها في حالة فرح. أخبرني القاضي الذي زرته أن «الجن» [81] قالوا له في نومه إنني مؤمن حقيقي ويجب حمايتي؛ ولذلك سيعطيني رسائل توصية لصديقه المرابط «توفيق»، عند مغادرتي.

زرت «بشير»، الذي استقبلني ببرود كالعادة. سألته عما إذا كان يمكنه أن يعطيني نقودًا مقابل رسائل التوصية التي منحني إياها شقيقه. ادعى أنه لا يملك أي نقود في الوقت الحالي: كذب. وهكذا، على الرغم من رسالتي الاعتماد، وجدت نفسي مهجورًا تمامًا، وعليّ أن أبحث عن المال، وإلا فسأضطر إلى انتظار [81] إرسالية من طرابلس لعدة أشهر. وفي المساء، زارني الشريف، الذي لم يكن ودودًا جدًا أيضًا.

من الواضح أن «ديديكورا» يتجنبني؛ وتمكنت أخيرًا من اللحاق به في الشارع وسألته عن انضمامي إلى طريقة «مولاي الطيب»؛ أجاب بأن «المقدم» ينصحني بالتوجه إلى الشريف. إذن هي هزيمة، لا يريدون قبولي. أصبحت صداقة القاضي ثمينة بالنسبة لي. أريد أن أسأل «صافي» بصراحة، لماذا يبتعد عني جميع أصدقائي [82]. إنه الوحيد الذي أظهر لي دائمًا اللطف. سألت الشريف إلى أين يجب أن أذهب للتعرف على مرابط عظيم، وما إذا كان يجب أن أذهب إلى «تمبكتو»، عند «بكاي»، أو إلى مكان آخر؛ أوصاني بـ«سُكُوتُو».[ لا بد أنها بؤرة رائعة للتعصب].

3 ديسمبر. - التقيت اليوم عند القاضي، بحاج من «شنقيط» [83]، لفتتني ملامحه: يشبه الهندي. عندما كان القاضي يتحدث عن إيماني المسلم، رأيت

بوضوح ابتسامة ساخرة على شفتي الحاج. إنه لا يصدق كلمة واحدة. وتحدث كثيرًا عن «نديرين» ــــ من المحتمل أن تكون «سانت لويس» في السنغال ــــ وقال لي إن قوافل تأتي إليها من «تمبكتو». ونصحني بتفضيل طريق «سُكُوتُو»، لأن «الأوليميدان» قتلوا العديد من رفاقه [84].

[82] 5 ديسمبر. - بعد ظهر هذا اليوم، زرت «عبد السلام»، صهر «صافي». إنه رجل لطيف للغاية، وذو ملامح منفتحة. ويرى أنه لا يجب أن أسلك الطريق المباشر من «أغاديس» إلى «سُكُوتُو»، فهو غير آمن. ومن الأفضل الوصول إلى «كانو» مروراً بتوارق «دوغاما» [85] الذين لن يكون لدي ما أخشاه منهم.

6 ديسمبر. - جاء بعض «الكيل-وي» وعرضوا عليّ استئجار جمالهم. لكن يجب أن أرى «صافي» بمفردي أولاً، وهو أمر صعب للغاية.

7 ديسمبر. - باءت جميع جهودي للحصول على مقابلة خاصة معه بالفشل. ومع ذلك، نصحني بتأجيل رحيلي. و«عثمان» يريد أيضًا إبقائي هنا، ليأخذني إلى «الهقار».

ويخبرني «أوفينايت» أن الجزء من وادي «ميهرو» الذي يحتوي على برك التماسيح يمتد لمسيرة ثلاثة أيام. يسمي هذه السلسلة من البحيرات الصغيرة «تارارا»؛ ولا توجد التماسيح الكبيرة إلا في الأوسع منها. لا يتوقف عن الثناء على هذه الأودية، التي هي الأماكن التي يسكنها مع قومه في وقت السلم [86].

8 ديسمبر. - رأيت الحاج من «شنقيط» مرة أخرى عند القاضي [83]، ورافقني إلى المنزل، حيث أريته مصحفي وخريطتي. وكان يعرف الأرقام الأوروبية، ولكن ليس الأرقام العربية. وذكر لي اسم مسيحي، «جون نقولا»، ويكن له الكثير من المودة؛ يقول إنه ليس لديه صديق أفضل في «نديرين». وفقًا له، فإن البلد الواقع جنوب «شنقيط» يُسمى «آل»: المنطقة بأكملها جنوب «باغينا» تابعة لسلطان «سيغو». وهو نفسه تعرض للسرقة من قبل التوارق بين «شنقيط» و«تمبكتو»، لدرجة أنه اضطر إلى مواصلة طريقه متسولًا. ويبدو أنهم ساعدوه بسخاء في «كانو»، لأنه يتحدث عنها بحماس. وجد «الأوهان» [87] أقل كرمًا.

قدمت له قطعة كبيرة من الموسلين الجديد، بدا سعيدًا بها جدًا.

9 ديسمبر. - الأخبار المتعلقة بالسلام أصبحت أكثر إيجابية. وكتب «أهيتاغل» [88] رسالة جميلة جدًا إلى «إيخنوخن»، يقول فيها إن ما يكفي من الشجعان قد ماتوا من الجانبين وإن الصراع قد طال بما فيه الكفاية؛ وأن الغرباء، الفرنسيين والأتراك والتبو، ينظرون إلى التوارق ويفرحون لرؤيتهم يمزقون بعضهم البعض ويضعفون؛ لذلك فمن الأفضل صنع السلام. لكنه لم يقدم هذا الاقتراح خوفًا، لأنه حتى بمساعدة الأتراك، لا تستطيع «غات» فعل أي شيء ضده، ولا يستطيع العرب أكثر من ذلك؛ لكن قلبه ينفطر لفكرة أن التوارق [84] يدمرون بعضهم البعض ويفتحون بلادهم للأجنبي. ويقترح أن يجتمع الوجهاء في سهل «أدمار» بالقرب من «جانيت»، ويعقدوا اجتماعًا يحضره أيضًا ثلاثة شيوخ من «أيير» وشريف «تونين».

«المهدي» هو من أخبرني بهذا الخبر. ويعتقد أنه يمكنني السفر بسلام في بلاد الهقار، إذا تمت الهدنة؛ لكنه لا يعدني بشكل قاطع بمرافقتي: من الواضح أنه يريد أن يتقاضى ثمنًا باهظًا.

10 ديسمبر. - رأيت اثنين من أشراف مكة في طريقهم إلى السودان وقاموا بزيارة «صافي». يمر هؤلاء الحجاج هنا ليقيموا عند الزعماء السودانيين الذين يمنحونهم صدقات غنية.

أعطيت القاضي برنوسًا أسود جميلًا طلبه مني دون تردد؛ وكافأني في المقابل بتميمة بطول 7 أقدام، قام بكتابتها، وأنا مضطر لحملها في عمامتي.

11 ديسمبر. - زارني «عثمان»، الذي اشترى سيفًا جديدًا وطلب مني المال، اضطررت إلى الرفض، لأن هذه الطلبات قد تصبح دورية.

12 ديسمبر. - كتبت طوال اليوم. أنهيت تقريري للجمعية الجغرافية، حتى لحظة عودتي إلى «غات». سأؤجل لاحقًا سرد رحلتي إلى «مرخريري» [89]، لكي يتم نشر هذا على الأقل.

[85] 13 ديسمبر. - بعد ظهر هذا اليوم، بينما كنت أتحدث أمام منزل

«صافي» مع الكثيرمن الناس، ناداني شابان بـ«الكافر» أثناء مرورهما. تبعتهما حتى منزلهما ودعوتهما للذهاب معي إلى القاضي. وجه لهما القاضي توبيخًا شديدًا وأمر الدركي أن يأخذهما إلى السجن ويجلدهما بالعصي. بما أن هذين الشابين هما من أقارب «صافي» المقربين، لم يكن لهذا الأمر تأثير كبير عليهما، لكن «صافي» أكد الحكم، الأمر الذي أدهشهما حقًا. سيكون هذا درسًا جيدًا، وأعتقد أنه لن يصفني أحد بـ«الكافر» بعد الآن. أعلن القاضي في كل مكان أنني مسلم، وأن كل من يناديني بـ«الكافر» يرتكب خطيئة جسيمة ويقع تحت طائلة القانون. وقد أحدث هذا تأثيرًا جيدًا، على الأقل في العلن [90].

14 ديسمبر. - الشابان اللذان هما أخوان «صافي»، قضيا الليل في السجن واضطرا لدفع 5 ريالات غرامة لكل منهما. وبخهما القائم مقام علنًا بشدة؛ ويقال إنه حتى قام بتأديبهما على انفراد. أردت الذهاب لرؤية «صافي» هذا المساء، لأعرب له عن أسفي لعدم علمي بأنهما أخواه ولتجنب هذا المشهد المزعج، لكنني وجدت الباب مغلقًا. آمل ألا يحمل لي ضغينة.

15 ديسمبر. - اليوم، زارني «حسن-المهدي» [86] من «تونين». لقد كان عند «صامت»، حيث وجد خادمي «سطاوي» والشيخ «إيغ-بكر»، يتبادلان الشتائم، لأن الشيخ وصفني بـ«الكافر» ووصف خادمي بـ«الوثني» الأسوأ. كرر «إيغ-بكر» أيضًا أنه سيقتلني عندما أكون في طريقي إلى السودان. يجب أن تكون السلطة ضعيفة جدًا، لكي يتمكن هذا القاتل من تهديدي بالاغتيال في وضح النهار في المدينة.

رأيت «صافي» هذا المساء، وكان لطيفًا كالمعتاد. أخشى ألا يتم السلام قريبًا، لا أحد يتحدث عنه. غادر «إيخنوخن» إلى وادي «تانسكروفت»، بسبب قطعانه. وما زلت أتساءل عما إذا كان يجب أن أبقى أو أغادر.

«16 ديسمبر» – في هذا الصباح، قدّم السطاوي للوالي جُبّة حمراء جميلة، فاستقبلها الوالي بلطف. وأثناء خروجي من المدينة، التقيت الشريف محمد، الذي ناداني من بعيد وسألني إن كنت أنوي الذهاب إلى السودان. أجبته بأنني

ما زلت مترددًا، فنصحني بالانتظار حتى يتم الصلح ثم مرافقتهم إلى الهجار. أثار دهشتي أن هذا الرجل المتعالي تحدث معي بهذه الألفة.

في المساء، كنت وحدي مع صافي لبضع دقائق، فسألته عن الرحلة المرتقبة إلى الهقار. قال إن الشريف يكذب، وإن أحدًا لا يستطيع أخذي إلى تلك البلاد، وإنه لن يظهر الهجار في غات قبل مرور عام على الأقل بعد إبرام الصلح، حينها سيعودون ليُثبتوا صدقهم [87]. أدهشني حسمه بعد تردده الطويل، وبدأت أظن أنه كان يريد أن أتنازل عن الرحلة تمامًا.

«17 ديسمبر» – أخبرني صافي أن الكيل أوي سيغادرون قبل الحفلة، وعليّ أن أتهيأ بسرعة. بعد الحفلة، ستنطلق قوة من إهادانارين [91] بقيادة أوينسيج لجلب بضائع الغدامسيين إلى آير عبر طريق جديد يمر بديدير. وصافي سيتولى جمع المعلومات. أعطيته أموالي ليبدّلها، وهو معروف أقدّمه له، إذ الذهب مطلوب هنا بشدة.

«18 ديسمبر» – قال لي صافي أن أكون جاهزًا خلال أربعة أيام، فقد وجد رجالًا موثوقين يقودونني. يجب أن أجهز الشعير والدقيق وأتعجل، لأن مغادرة القافلة تعني فقدان الأمان في السفر، ولا يمكن الاعتماد إلا على مجموعات صغيرة من التوارق. فالوقت ضيق جدًا للاستعداد.

«19 ديسمبر» – جاء بعض من الكيل أوي يسألون إن كنت أريد استئجار جمالهم، لكني اضطررت أن أجيبهم كما لو أن عليّ شراء الطعام أولًا [88]. ولا أحد يبيع لي الحبوب، والسطاوي غير مكترث لأنه لا ينوي الذهاب إلى السودان. وموقفي حرج، وإن ضيّعت هذه الفرصة فسأبحث عن غيرها، لأني لا أريد البقاء هنا لأضيّع وقتي ومالي. اما صافي، الذي أعطيته خمس عشرة قطعة ذهبية، ما زال يؤخر الباقي، وآمل ألا يُخيب أملي.

«20 ديسمبر» – قضيت اليوم في تجهيز الصناديق الجلدية وحزمها.

«22 ديسمبر» – ذهبت إلى المسجد، ولم أُفاجأ حين نودي باسمي بعد الصلاة وتليت شهادة إيماني أمام الناس. كانت رسالة من القاضي إلى الحاج

عير، قرئت علنًا.

كانت القافلة تنوي المغادرة غدًا، لكن تبيّن أن أحد عشر جملًا فُقدوا وربما سُرقوا من تيترسين، فسيؤجل الكيل أوي رحيلهم أيامًا، ما يمنحني فرصة للحاق بهم إن أعاد صافي أموالي.

اليوم، بحضور صافي، أخبرني أوفينايت أنه لن يذهب معي إلى الهقار مهما كانت الظروف، لأنهم قوم لا يؤتمنون، ولا أحد يثق بأن الضيافة عندهم آمنة.

«24 ديسمبر» – صافي لم يُعد لي الأموال التي عهدت إليه بتبديلها، وهذا مخزٍ. وساميت عرض عليّ [89] بضائع، لكني ما زلت عاجزًا عن الحصول على الطعام. أخشى أن يحتفظ الكاماكام بكل مالي.

«25 ديسمبر» – سألني رجال الكيل أوي بإلحاح إن كنت قد تمكنت من شراء طعام، فهم يريدون تأمين حمولة أمتعتي الأربع على جمالهم الفارغة. سيذهبون إلى زيندر لكنهم عرضوا أخذي إلى أي وجهة أريد. نصحني صافي بالتوقف عند الحاج بيلخو الذي أوصاني به، لأنني لا أعرف أحدًا في أغاديس ولا دعم لي هناك. صافي لا يزال يتباطأ في إعادة مالي.

أخبرني أوفينايت أنه سيبقى صديقي سواء أعطيته شيئًا أم لا، وهو الوحيد الذي لم يطلب مني شيئًا [92]. يؤسفني [90] أني لا أستطيع تقديم هدية تليق به، لكنه سينال شيئًا على الأقل، وقد ينفع ذلك المسافرين بعدي.

الإمام طلب مني دواءً لعينيه، وألمح إلى أنه يستحق شيئًا أيضًا لأنه قرأ كتاب التوصية في المسجد. كيف أُلبي كل هذه الطلبات؟

«26 ديسمبر» – استدعيت أوفينايت وأهديته قفطانًا أحمر مطرز الأكمام بالذهب. صاح فرحًا: ما شاء الله! كان واضحًا أنه لم يتوقع هدية كهذه. شكرني مؤكدًا أنني مرحب بي في بلاده متى شئت. ارتدى الثوب وعاد إلى منزله، وقد سُررت برؤيته مسرورًا.

«27 ديسمبر» – صافي لم يُعد شيئًا بعد، وسأطلب من عبد السلام أن يذكّره. لم أذهب لصلاة العيد لأنني بلا ملابس احتفالية.

«28 ديسمبر» – جاء رجل من الكيل أوي أشار إليه صافي، ليرى أمتعتي وطلب بوقاحة 25 ريالًا عن كل حمولة إلى بيت الحاج بلخو. أراد أخذي إلى السودان ليكسب أكثر، لكني رفضت الأسعار المبالغ فيها، إذ لن يبقى لي مال للعيش.

«29 ديسمبر» – عمرو تشووش [93] أخبرني أنه [91] سمع صافي ينعتني بالكافر، ونصحني بألا أثق به.

زارني الإمام يستشيرني في أمر عينيه، فأهديته نظارات طبية، ففرح كثيرًا.

قررت أن أواصل الطريق إلى زيندر مباشرة، وأنتظر هناك إرسال المال إليّ، ثم أتجه إلى سوكوتو. وهديتي ستُستقبل بالترحيب من سلطان زيندر على الأرجح. وربما يوافق الكيل أوي على تأجيل الدفع، على أن يتقاضوا نفس المبلغ في المرحلة الثانية كما في الأولى.

«30 ديسمبر» - بعد ظهر هذا اليوم، قمت بزيارة لصافي؛ لم أتلق منه شيئًا، على الرغم من تأكيداته السابقة. عبرت عن خيبة أملي لعبد السلام سنام؛ وقد أكد لي أنني سأحصل على مالي. أخبرني أن سميت وهو أجريا مقابلة مع الشيخ بوبكر، وأن هذا الأخير انتهى به الأمر إلى تحديد مطالبه بـ (برنوس) و(2 ريال). وبما أن هذا المطلب معقول، فقد وافقت عليه وتخلصت بذلك من عدوي الأخير.

«31 ديسمبر» - علمت أن الشيخ (إيغ بكر) أصبح فجأة أفضل صديق لي، بل ويتحدث حتى عن إعادة هديتي لي، ليظهر نزاهته وعدم اهتمامه! يريد أن يوصي بي إلى التوارق في (أيير).

هذا الصباح، أحضر لي جندي المال الذي أقرضته لصافي؛ لكن ينقص (اثنين من الثالر)، والتي تم إعادتها لي بناءً على طلبي. وستغادر القافلة خلال [92] بضعة أيام. حسن التونيني يريد أيضًا أن يعطيني رسالة لأخيه الذي يعيش في (زندر). تنتهي هذه السنة بشكل جيد، وأتطلع إلى المستقبل بثقة.

«1 يناير 1877» – جاء بعض من الكيل أوي لتفقد أمتعتي. وهم لا يفهمون

العربية، لذا يجب أن أتعلم لغة الهوسا [94].

«2 يناير» - سميت لا يريد أن يعطيني بضائع قابلة للدفع في طرابلس إلا بزيادة قدرها 25 في المائة. لذلك لم آخذ منه شيئًا [95]، ودفعت كل ما كنت مدينًا له به. ذهبت إلى المهدي لأرى ما إذا كان يستطيع أن يقرضني بعض المال. لكنه لم يقدم لي شيئًا. اشتريت ثوبًا أسود وعمامة متناسقة. هذا الثوب يبهت لونه بشكل فظيع، ولكنه دافئ جدًا [96]. الناس يسخرون من رؤيتي مرتديًا زيًا كهذا. قمت بوزن أمتعتي؛ لقد تصرف الكيل وي بشكل لائق جدًا ولم يحاولوا خداعي. زعيمهم يدعى (بيدوماس) وهو ودود جدًا بالنسبة لي. سأغادر [93] غات ومجموع ما أملك هو 130 ثالر (ماريا تريزا).

«3 يناير» - جاء المهدي ليقول لي بضع كلمات عن تمبكتو وغادر على عجل؛ كان يبدو وكأنه يخاف من أن أطلب مالي. اما صافي كان لطيف كالعادة.

«5 يناير» – تم لحام صندوق عينات الصخور العائد لزوجتي وسُلّم إلىساميت [97]. سلّمني صافي أربع رسائل موجّهة إلى مشايخ وسلاطين الطريق، وطلب مني أن أُقرّ بأني لا أملك أي شكوى من إقامتي في غات. أصبحت كل الاستعدادات جاهزة، ونُقلت أمتعتي، لكن اتضح أن الكيل أوي أحضروا جملين فقط بدلًا من أربعة. عرضوا نقل نصف الحمولة أولًا ثم العودة للباقي، فغضب السطاوي بشدة ورفض السفر معهم. وبالرغم من إصراري، تظاهر بالمغادرة وترك أمتعته. اضطررت لاستئجار جملين إضافيين بسعر مرتفع قدره أربعة ريالات [98]. تبقى فقط إيجاد خادم جديد [94]، وكنت على وشك الذهاب إلى آسفي لهذا الغرض، لكن السطاوي عدل عن رأيه.

بعد هذه المتاعب، كنا مستعدين للرحيل في الخامسة مساءً. عبرنا حدائق بركات الممتدة لمسافة واسعة، ووصلنا نحو منتصف الليل إلى وادي عيسيين، حيث كانت القافلة الكبرى تخيم في سكون تام وسط سهل تغطيه كثبان صغيرة وأثل.

# الفصل الرابع في الطريق إلى الأيير

5 يناير 1877 - بعد نقاش طويل وغير سار، دفعتُ للرجل الذي وفّر الجِمال الإضافية، وعبّرتُ لبيدوما عن أملي في ألا تتكرر عمليات الابتزاز هذه مرة أخرى. نخيّم اليوم، وهذا مفيد لنا، لأننا جئنا من غات سيرًا على الأقدام. في النقطة التي نحن فيها، أصبح الوادي أضيق بالفعل بين التاسيلي والأكاكوس. في كل مكان نفس طبقات الحجر الرملي.

6 يناير - في هذا الصباح، بحثنا عبثًا عن الجِمال التي من المفترض أن تكون لركوبنا: لقد نسينا بيدوما بكل بساطة. يترك الجميع يصرخون، ويلتزم الصمت، لأنه يعلم جيدًا أنه مخطئ.

أخيرًا، انطلقنا في الساعة العاشرة [99]، صاعدين [96] الضفة اليمنى للوادي المليء بالرمال. لاحظتُ فيه عدة مرات مغرًا، بلون الزنجفر، شديد النقاء. ما زلنا نصعد. الضفتان خاليتان من النباتات. تمتد الحمادة على جانبي الوادي.

7 يناير - ننطلق في الساعة 11 صباحًا، والمنحدر الحاد للأكاكوس على يسارنا؛ في الساعة 1:30 بعد الظهر تجاوزنا هذه الجدران العالية. نتوقف في نهاية سهل اسمه أكاوف. نجد على المنحدر الجنوبي للأكاكوس العديد من الكثبان الرملية التي تستند إلى الجبل، إذا جاز التعبير.

يبدو التاسيلي الآن أكثر انخفاضًا. في كل مكان حجارة سوداء؛ قليل جدًا من النباتات. هنا وهناك بعض الكثبان، تتراكم دائمًا مقابل جدار صخري.

«8 يناير» - هذا الصباح، تجمدت المياه الطينية التي تركناها لتترسب في وعاء. ووعدتُ أحد رجال الكيل وي الذي يقود جمالنا بالطعام، وتغير موقفه على الفور. صعدنا قليلاً لنمر فوق التاسيلي المليء بالصخور. وعند الظهيرة، وصلنا سهل واسع وعلى اليمين غابة من أعمدة حجرية تغطي منحدرًا واسعًا وغالبًا ما تتخذ شكل الجسور. وتظهر الصخور الأردوازية المبرقشة، المشابهة

تمامًا لتلك الموجودة في تايتا [100]، على طول الجدران الكبيرة.

[97] نتوقف في الساعة 2 ظهرًا في سهل واسع. على اليسار، بعض الأكواخ والحدائق: هذا المكان يسمى أريكين. حتى الآن كان لدينا على اليسار قمم جبلية عالية وعلى اليمين، بالقرب جدًا، سطح التاسيلي المنخفض. الأفق يتسع أمامنا..

يأتي بعض التوارق من القرية؛ إنهم أناس فقراء غير مؤذيين. يخبرونني أن سكان جانت أصدقاء للهقار، الذين لم يأخذوا منهم شيئًا أبدًا.

«9 يناير» - نصعد واديًا صغيرًا ينحدر نحو أريكين، عبر صحراء من الحجارة العارية تمامًا، والأكثر جفافًا حتى من الحمادة الحمراء الكبرى؛ فقط الانطباع أقل ترويعًا، بسبب الأشكال المتغيرة للجبال. لقد أظهروا لي مسارًا، كما قيل لي، يؤدي من هنا إلى بلما. يصبح الريف أكثر انبساطًا؛ بعد صعود بين الصخور، نعبر حمادة جديدة [101]. في الأفق، مباشرة نحو الشمال، ما زلنا نرى شرفة علوية من الأكاكوس، تُرى على جانبها الجنوبي بعض الكثبان الرملية؛ أمامنا، خط مسنن من الجبال السوداء؛ على العكس من ذلك، اختفى خط التلال الذي كان على يسارنا. الصخرة السائدة لا تزال هي صخرة تايتا الأردوازية.

توقفنا في وادي أسيتي، في [98] وهو سهل مغطى بحطام الأردواز وحيث تُظهر (Fagonia arabica) فقط أغصانها المصفرة والجافة [102]. يؤكد لي دليلي أن وادي أسيتي يتبع الاتجاه الجنوبي الشرقي.

«10 يناير» - نسير أولاً غربًا، على حمادة مستوية تمامًا، ثم نتجه جنوبًا. ونذهب نحو هذا الخط المسنن من الجبال الذي رأيناه بالفعل بالأمس. وخلفنا ينتصب الأكاكوس بشكل عمودي. وتنفصل عن منحدراته الحادة سلسلة طويلة من المرتفعات وتمتد بعيدًا على يسارنا نحو الجنوب الشرقي؛ لكننا لا تُرى هضاب في أي مكان؛ ولا شيء سوى قمم معزولة، تفصلها أودية رملية.

عند الظهيرة، نصل إلى هذه المرتفعات ذات اللون الداكن، والتي بدت لنا من بعيد كأنها جبال، وهي ليست سوى تلال بارتفاع 30 إلى 40 قدمًا تتوج

حافة حمادة. إنها كتل من الحجر الرملي الداكن، على شكل مخروطي أو هرمي منتظم؛ الطبقات التي تتكون منها أفقية. وهناك رمال في كل مكان في الوادي، ولكن لا توجد كثبان رملية معزولة. الغطاء النباتي هو نبات الحمادة؛ لا توجد نباتات جديدة. الرياح قوية على هذه المرتفعات والبرد محسوس جدًا. في الساعة 2 ظهرًا، توقفنا بعد هذا الخط من المرتفعات، في وادي تونيكاناهام.

«11 يناير» - نبقى مخيمين اليوم، [99] لأن لدينا أربعة أيام في الأفق بدون ماء وعشب؛ لذلك يجب علينا تزويد أنفسنا بالمؤن، وجميع الجِمال تحمل حزمتها من العلف.

«12 يناير» - وجدنا ثلجًا في وعاء كبير ظل خارج الخيمة طوال الليل. كان علينا إذابته بالنار، فكانت القشرة صلبة جدًا. وضباب كثيف يغطي المنطقة، وقرب غروب الشمس، ترتفع الأبخرة الثقيلة ببطء؛ ويمكن للمرء أن يتخيل نفسه في ألمانيا. ثم عبرنا الهضبة ووصلنا إلى منطقة ثانية من التلال؛ إنها من الجرانيت. في الساعة 10 صباحًا، ونرى أمامنا، مباشرة إلى الغرب، المخروط المرتفع لجبل تيسغا. - لدى الكيل وي تسميات غير مؤكدة للغاية وهم بشكل عام مخبرون سيئون للغاية؛ ويقدم توارق الشمال معلومات أكثر موثوقية بكثير.

نسير في تعرجات بين المرتفعات؛ ألاحظ هنا عينات معزولة من (Rhus dioïca). المنحدرات مغطاة بالرمل الجرانيتي وبلورات الكوارتز البيضاء. هذا البلد بأكمله هو مجرد جرانيت. نعبر واديًا مغطى بالطلح، الذي يجرد أهل القافلة أغصانه الخضراء لإطعامها للجمال. نخيم بالقرب من جبل تيسغا في الوادي الذي يحمل نفس الاسم. أجد بالقرب من هنا الجرانيت محقونًا بالبازلت.

«13 يناير» - طقس شديد البرودة. كانت الرياح قوية لدرجة أنه لم يكن بالإمكان نصب الخيام. وتجمد الماء هذا الصباح؛ وهذه هي الليلة الثالثة التي يحدث فيها ذلك.

ثم نمر عند سفح جبل تيسغا، وهو بالتأكيد [100] كتلة من الجرانيت. وفي الساعة 2 ظهرًا، ننزل منحدرًا طويلاً من الجرانيت يسمى إيغفنيشين؛ وأمامنا سهل واسع، وعلى يسارنا التل المسنن لجبل مارياو. وفي هذا السهل المنخفض، تُرى العديد من مكاشف البازلت الرمادي الذي لم ألاحظ منه حتى الآن سوى نتوءات معزولة. والغطاء النباتي مفقود تمامًا.

نتوقف على هضبة من الرمل الجرانيتي، بدون مشاهدة نبتة واحدة، ولا كائن حي، باستثناء الغربان، التي تُوجد في أكثر الأماكن عزلة وجفافًا.

«14 يناير» - كان الماء متجمدًا مرة أخرى هذا الصباح. عبرنا الهضبة؛ وكتل من البازلت منتشرة على سطحها. وفي الساعة السابعة والنصف، نتوقف في وسط كثبان إيغيشين الرملية.

«15 يناير» - أمامنا، سهل واسع محاط بالكثبان الرملية. في الساعة الثالثة والنصف، نعبر تلاً رمليًا مرتفعًا، وينكشف وادي فليزليز تحت أقدامنا كشريط من الخضرة. ونتوقف عند البئر الذي يحمل نفس الاسم، ويقع في وسط الوادي.

«16 يناير» - يتكون الغطاء النباتي في الوادي بالكامل من (هاد) [103]، وهذه النبتة لا تنمو إلا على التلال المتناثرة في قاع الوادي. ونصل إلى سهل من الرمل والحصى. ثم ننزل في وادٍ، تظهر فيه صخرة ذات لون رمادي محمر، ذات مظهر [101] أردوازي، ربما تكون حجر غاث الرملي [104]، متحولًا عند ملامسة الجرانيت. في الساعة 4 ظهرًا ننتقل من حمادة حجر رملي عالية إلى سهل من (الرق) [105] في الأسفل، ونجد هنا هذا البازلت الرمادي الذي ذكرتُ عروقه في الجرانيت أعلاه.

«17 يناير» - الانطلاق في الساعة 8 صباحًا. من هضبة من الحجر الرملي، لا ينمو عليها سوى القليل من الهاد. ننزل إلى قاع وادي تيرين [106]، وهو عميق وأوسع من وادي فليزليز. وعند تسلق الضفة الأخرى، نجد الجرانيت، وبعده مباشرة، حمادة من الحجر الرملي ذي العناصر الخشنة. ولا يوجد ماء منذ

وادي فليزليز.

«18 يناير» - علمت أن عبد إبراهيم كان بالفعل في أداماوا عدة مرات وهو مفتون بهذا البلد لدرجة أنه يفضله حتى على كانو. وقوافله تذهب إلى هناك باستمرار؛ والأمان تام.

ثم نتجه غربًا، عابرين الأودية التي تأتي جميعها من الشمال. يمر البازلت عبر الحجر الرملي ويُحقن هو نفسه بعروق من صخرة جرانيتية الشكل. تكثر عروق الكوارتز في كل مكان يظهر فيه الجرانيت.

[102] «19 يناير» - نسير جنوبًا بين قمم جرانيتية عالية؛ في الساعة 11 صباحًا، ألاحظ صخورًا أردوازية ميكائية. ويظل البلد خاليًا تمامًا من النباتات. ثم نعبر وادي توفوك ونتوقف على الضفة الأخرى. ويقال لي إن أسيو [107] تقع على بعد 5 أيام سيرًا على الأقدام في الغرب. والجبال التي عبرناها بالأمس تسمى إريرين. ويمتد وادي توفوك إلى بلاد التبو والأوليميدن [108].

«20 يناير» - أصبحت الجبال أعلى ويشكل الوادي ممرًا ضيقًا، حيث تكثر الأشجار. وفي الساعة العاشرة والنصف نرى لأول مرة شجرة ذات أغصان قوية شائكة، يسميها التوارق (إيبورا) [109] ويسميها الهوسا (أدوا). هذه الوديان مليئة بالخضرة؛ وأشجار الطلح [110] وهي أيضًا أعلى وأجمل بكثير. ثم نتوقف في القاع الواسع لوادي أروكام.

«21 يناير» - نتبع مجرى الوادي. [103] ونتزود بالعشب هنا، لأنه لن يكون هناك علف للجمال لعدة أيام. حتى تلحق بنا قافلة من غات.

«22 يناير» - نقضي اليوم في وادي أروكام، لتترك الجِمال ترعى. وتم تأكيد الخبر بأن الهقار فاجأوا قافلة بالقرب من تادنت [111] وسلبوها بالكامل. إنها قافلة عبيد الإحدانارين بقيادة أوينسيج، التي كان من المفترض أن أسافر معها.

ذهبت هذا الصباح لصيد الغزلان، لكنني لم أر سوى العديد من الآثار في الرمل. والأودية المجاورة غنية بالطرفاء إيثل (tamarix éthel)، والأنا (ana)، والتولوت (112] (toullout]، وأم اللبن (oum-el-leben)، وتانيدفرت

(tanedfert)، والطلح (talha)، إلخ. ولا يوجد نبات جديد. وفي كل مكان نجد جرانيت، وغالبًا صخور أردوازية هورنبلندية (؟). وأحمل عينات من هذه الصخور البلورية ذات اللون الأسود. ونواجه المزيد من المشقة. وللأسف، نفد مخزوني من الحليب، وليس لدي المزيد من اللحم. وأنا مقتصر على (الموهانا) كطعام.

«23 يناير» - تجمد الماء مرة أخرى هذا الصباح. وسوف نغادر في الساعة 7:30 صباحًا؛ وجميع الجِمال تحمل حزمًا من العلف بالإضافة إلى حمولتها المعتادة. وأحدها لم يعد قادرًا على المشي، ويُقتل في مكانه؛ وهرع الجميع لأخذ قليل من اللحم. ثم نعبر قاع [104] وادي أروكام بشكل مائل، والذي يمتد نحو الجنوب. والكثير من العشب المسمى (أميو) [113]؛ ويشكل هذا النوع غالبًا وحده الغطاء النباتي لأودية المنطقة. ثم نتجاوز تلال الجرانيت؛ وهنك الكثير من آثار الظباء.

في الساعة 10:15 صباحًا نصل عبر تضاريس وعرة إلى مضيق عميق، يقودنا إلى وادي تادونت. ونحن هنا في أدنى نقطة كنا فيها على الإطلاق؛ ونرى في هذا المضيق عودة الصخور الأردوازية الهورنبلندية، في وسط الجرانيت.

ثم نخرج إلى وادٍ جميل، ونصعده إلى اليمين؛ إنه مزروع حرفيًا بشجيرات الأنا (ana) [114] التي تصل هنا إلى أبعاد شجرة، وأشجار الطلح (talha) الكبيرة التي تذكرنا بأشجار البلوط، وعندما تصبح ذات حجم محترم. هذه هي المرة الأولى التي أجد فيها شجيرات (أنا) بهذا العدد الكبير.

في الظهيرة نتوقف في مضيق جانبي. تخيم في الجوار قافلة صغيرة، قادمة أيضًا من غات. يندفعون بالجِمال نحو البئر، الذي هو بعيد عن المخيم لدرجة أنني لم أتمكن من الذهاب لرؤيته. وفي المساء يعود رجالنا بكمية قليلة جدًا من الماء، لدرجة أننا سنضطر غدًا للبحث عن بئر آخر.

«24 يناير» - لم نتمكن بالأمس من جمع سوى ست قرب ماء؛ وهذا يرجع إلى حقيقة أن الأمطار كانت قليلة جدًا في العام الماضي. [105] لذلك نغادر وادي

تادونت، وبعد ساعة نكون على الهضبة المغطاة بتلال الجرانيت التي تمتد على مد البصر. وألاحظ هنا على سبيل الاستثناء نباتات (cassia odorata) [115].

نحن الآن أمام قمة من الجرانيت يبرز تلها المسنن من كومة من الأنقاض الصخرية. هذا الترتيب شائع. ننزل المنحدر الآخر في اتجاه الجنوب. نتوقف في وادٍ. بئر يسمى (كتلات) موجود في الجوار.

لقد لاحظت جرانيتًا ببلورات كبيرة من الفلسبار، والأمفيبول، وصخور أردوازية أمفيبولية. والبلد عارٍ بشكل مخيف.

«25 يناير» - أخذنا راحة. وكان علينا الحفر للعثور على الماء. ورأيت هنا مرة أخرى النسر الصغير ذو الريش الأسود، (Neophron perenopterus)، الذي رأيته لأول مرة في وادي توفوك.

ذهبت للصيد بحثًا عن الغزلان دون جدوى؛ وفي كل مكان نفس المشهد الكئيب لجبال الجرانيت ونصفها المدفون في الرمال. إنها عادةً ما تكون تلال طويلة موجهة بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي، أو الشمال والجنوب، وتغطي جوانبها طبقة من الحطام. وتقتصر النباتات على عدد قليل من أشجار الصمغ الضعيفة؛ ولا تنمو هنا أي خصلة عشب.

[106] «26 يناير» - نغادر أخيرًا هذا الوادي الكئيب (كتلات)، بعد أن زودنا أنفسنا جيدًا بالماء، لأن الكيل وي يخبروننا أننا لن نرى قطرة ماء من هنا لمدة سبعة أيام. وننزل واديًا تظهر ضفافه المتآكلة بوضوح بنية الصخور. ويشكل الجرانيت هنا عروقًا في وسط صخر النايس (gneiss)، الذي يتفكك مثل الخشب المتعفن؛ أثناء النزول في الوادي، صادفت في هذا النايس عرقًا من البازلت الأسود سمكه 2 قدم. تُرى أيضًا صخور هورنبلندية مع حقن من الجرانيت.

ها نحن مرة أخرى في سهل مغطى بكتل من البازلت، مثل منطقة وادي فليزليز: يبدو أن حزامًا من البازلت يحيط بكتلة الجرانيت. تشكل صخور الفلسو-بورفير (felso-porphyres) ذات بلورات الفلسبار الحمراء مجموعة

من الكتل المستديرة، متفككة بشدة بفعل الغلاف الجوي. في كل مكان يحمل الجزء السفلي منها علامة الرمل، الذي تحمله الرياح. بعض هذه الكتل تتقشر، وتتساقط كرات كبيرة من تجاويفها الحجرية، التي تبدو للوهلة الأولى وكأنها حفريات من صنع الإنسان.

يوجد في القافلة عبدان أسودان، أحدهما في خدمة التاجر إبراهيم، والآخر لـ (بلخو)، وكلاهما يعرف أداماوا، حيث اعتادوا الذهاب لشراء العبيد. ويتم دفع ثمنهم بـ (الطوب)، بمعدل اثنين أو ثلاثة لكل رأس عبد. يبدو أن (نغاوندي) هو السوق الرئيسي. ويتحدثون إلي كثيرًا أيضًا عن (كونتشا).

[107] رأيت أم اللبن (116] (Oum-el-leben] مزهرة. وتجمد الماء مرة أخرى في الليلة الماضية.

«27 يناير» - نغادر في الساعة 8 صباحًا، مرتعشين من البرد. وأمامنا، ثلاث قمم تسمى (تينكيراديس). نمر في وسطها ونخيم في سهل رملي كئيب. منذ أن خرجنا من الجبال، يسيطر البازلت مرة أخرى.

في «28 يناير» - المغادرة في الساعة 8:15 صباحًا. ونشاهد عروق من البازلت الأسود تخترق الجرانيت [117]، بينما يُحقن البازلت الرمادي على العكس من ذلك بالجرانيت. ثم نتجاوز على يميننا قبة جرانيتية يعلوها هرم مرتفع من الحجارة: إنه (تيغنوتين).

تتبع عدة نسور قافلتنا، تترقب الجمل الذي سيسقط من التعب. لقد تخلينا بالفعل عن العديد منها.

«29 يناير» - يوم جليدي؛ حيث تهب رياح الشمال دون انقطاع. يتناوب الجرانيت والفلسو-بورفير، وتظهر الأخيرة على شكل شوائب من الصخور الرمادية.

«30 يناير» - أرى، لأول مرة، أشجار صمغ في وادٍ رملي. يُسمى وادي (إنكيرات)، وتوجد فيه ثلاث آبار جافة.

نقترب من هضبة مكونة من نفس الحجر الرملي مثل تاسيلي الشمالي؛ وأرى

أيضًا[108] هنا وهناك الصخور الأردوازية التي لوحظت في سهل تايتا.

«31 يناير» - المغادرة في الساعة 8 صباحًا. لم يعد حولنا سوى حمادة الحجر الرملي الداكن، التي ترتفع كلما تقدمنا نحو الجنوب. وصارت جِمالنا منهكة.

قرب المساء، نعبر وادي (إيميدير) الذي يتجه نحو الغرب وننزله لمدة نصف ساعة، للعثور على الأقل على بعض العلف لحيواناتنا الجائعة. هذا الوادي هو الأول الذي يُعد جزءًا من الأيير[118].

«1 فبراير» - ما زلنا نصعد. في الساعة 10 صباحًا، وصلنا إلى بئر (تادرا)، الذي تبدو مياهه المالحة لذيذة مع ذلك لعطشنا. نملأ قربنا لأول مرة بماء الأيير. يقال إن هذا البئر لا يجف أبدًا. يظهر الجرانيت مرة أخرى، وفي الساعة 8 صباحًا، نخيم في وادي (زيبل)، حيث تجد جِمالنا العشب بوفرة. حيث غطاء نباتي غني من أشجار الصمغ و (أدجار[119].

[109] «2 فبراير» - يوم راحة. ولدي رغبة قوية جدًا في اللحم، لدرجة أنني أطلق النار على طائرين صغيرين ذوي ريش أصفر ورمادي، يُسميان (كروكرو). ليصنع لي خادمي منهما حساءً جيدًا.

«3 فبراير» - نسير في الوادي. في الساعة 9:30 صباحًا، ونتوقف بالقرب من وادي تيوت [120]؛ نستقي الماء العذب لأول مرة. تسود نباتات (Maerua rigida) وأشجار الصمغ: الأولى مزهرة.

«4 فبراير» - المغادرة في الساعة 8 صباحًا، تصل أشجار الصمغ هنا إلى أبعاد غير عادية. ألاحظ نباتات أخرى: (الألواد) [121] المزهرة، التي تشكل كتلًا خضراء بارتفاع 2 إلى 3 أقدام، ومرغوبة جدًا من قبل الجِمال؛ و (السّبّوط) بكميات كبيرة [122].

نستمر في السير بين جبال الجرانيت؛ وتظهر قمم رائعة في الأفق؛ والطريق ما زال صاعدًا.

في الساعة 5 مساءً، نخيم في وادٍ أخضر جدًا، وتُرى فيه آثار أغنام. ويبدو أن هناك رجالًا في الجوار. اسم هذا الوادي هو (زرزو).

«5 فبراير» - نغادر وادي (زرزو) في الساعة 8 صباحًا، للسير نحو الجنوب. نتوقف بين تلتين [110] من الجرانيت تسميان (تشيكيدوين أوراغ) أو «جبال الذهب».

«6 فبراير» - نلتقي بقطيع من الماعز، لكن الفتيات اللاتي يقدنه لا يردن بيع أي شيء لنا. وأمامنا سلسلة جبلية حقيقية، واضطررنا بالفعل مرتين لتجنبها إلى القيام بتحويل في الغرب. ويوجد الكوارتزيت بالقرب من مخيمنا.

«7 فبراير» - نسير جنوبًا. في الساعة 4 مساءً، نخيم على المنحدر الغربي لسلسلة الجبال. غدًا سنكون في المنطقة المأهولة من الأيير!

## الفصل الخامس في بلاد الأيير

«8 فبراير» - وعند الصباح الباكر جدًا، ظهر اثنان من التوارق يرتديان الأسود عند مدخل خيمتي: إنهما من الإفادان، يطلبان رسومًا مقابل مياه بئر تيوت. أرسلتهما إلى قائد قافلتنا، الذي أجاب بأننا سندفع جميعًا. عندها انسحب التارقيان وهما يتذمران.

سرنا نتبع سلسلة من الأودية الضحلة، ونجد بوفرة أشجار الأدجار والطلح. وبعد عبور غابة حقيقية من (123] (Calotropis procera]، وهي أشجار عالية لدرجة أن جمالنا تسير تحت أغصانها المزهرة، وصلنا إلى أول قرية [124] [112] من الأكواخ، وتوقفنا بالقرب من البئر، تحت ظلال شجيرات (Salvadora persica).

يشبه السكان الزنوج أكثر من التوارق؛ يتحدث الجميع الهوسا؛ القليل منهم فقط يفهم اللغة التارقية. يرتدون أثوابًا سوداء؛ أكواخهم المخروطية المحاطة بسياج من (Calotropis) تبدو مريحة جدًا.

جاء الكثير من الناس لتحيتنا؛ ومن بينهم الشيخ عمر من غات و(الوكيل) أو ممثل سلطان أغاديس. إنه رجل ذو بشرة سوداء، ولكن بملامح أوروبية؛ يرتدي وشاحًا أبيض على وجهه. يحيي العديد من الأشخاص في القافلة، لكنه

يمر أمامي دون أن يتوقف.

يخبرني الشيخ عمر، وهو قريب من الحاج بلخو، ويعيش في كانو، أن أهل الأيير يتوقعون وصولي منذ فترة طويلة. وفي البداية، سمعوا أن مسيحيًا يريد زيارة البلاد، مما أثار معارضة. ثم علموا أن صافي سجن إخوته وسكانًا آخرين في غات، لأنهم وصفوني بالكافر، وهذا أحدث انطباعًا كبيرًا وهدأ النفوس.

«9 فبراير» - اليوم، يقوم وكيل سلطان أغاديس، الذي يُدعى هنا (توراوا) [125]، بتحصيل الرسوم المستحقة [113] على جميع التجار. ويجلس هذا الرجل الأسود على حصيرة مقابل خيمتي تمامًا، ولا أتوقع أي خير من ذلك. في الواقع، يطالبني أيضًا برسوم؛ لكن بيدوما يتولى التفاوض معه، والنتيجة هي أنني لا أدين بشيء، لأنه ليس لدي بضائع.

أحضر سكان القرية جبنًا خاليًا جدًا من الملح. واجهت صعوبة بالغة في العثور على القليل من الزبدة، مقابل ثالر واحد.

«10 فبراير» - علمت هذا الصباح أن (سركي-ن-توراوا) يتوقع مني مبلغًا كبيرًا. وبالفعل، لم يتأخر في المجيء إلى خيمتي ويطالبني بـ 100 ثالر وبرنسين! جميع أصدقائي في القافلة غاضبون. يأتي بيدوما لمساعدتي من خلال إعطاء كلمته بأنه ليس لدي سوى الكتب والأدوية. في النهاية، أُجبرت على إعطاء 10 ثالر لهذا اللص، على الرغم من أنه تلقى مني بالفعل قطعة من (مالتي) [126] بقيمة 2 ثالر.

للأسف، لم تنتهِ مشاكلي. في هذا المساء، حيث تتجه مجموعة من التوارق المسلحين بالسيوف والرماح مباشرة إلى خيمتي، مما يثير قلق جيراني، الذين ينبهون بيدوما. ويقترب التوارق مني جدًا، ويحيطون بي، ولكن بما أنهم يتحدثون الهوسا، لا يمكنني التحدث معهم. لذلك أظل جالسًا بهدوء بجوار ناري، وكأن الأمر لا يخصني. [114] سرعان ما أسمع كلمة (كافر)، وتصبح المناقشة بين التوارق وبيدوما أكثر حدة. يبدو أنهم يطالبون بأن أعلن إسلامي علنًا، لكن بيدوما يعارض أن يتعرض لي أحد بهذه الإهانة. أسرع رجاله، وعندما يكشف

التوارق أخيرًا عن نيتهم الحقيقية، وهي نهب أمتعتي، يعلن لهم بيدوما أنه سيتعين عليهم في هذه الحالة نهب القافلة بأكملها، وليس أنا وحدي!

كان وقت الصلاة قد حان في هذه الأثناء، وابتعدت لأداء صلواتي على تلة مجاورة.

عندما عدت، تغيرت الأمور، لأن بيدوما لفت انتباه التوارق إلى أفعالي وتحركاتي، ولم يعد أحد يشك في كوني مؤمنًا حقيقيًا.

«11 فبراير» - أثبتت لي تجربتي بالأمس الضرورة الملحة لعدم القيام بأي شيء قد يثير الشكوك. لذلك أتخلى عن تحديد مساري بالبوصلة، كالمعتاد، عندما لا أستطيع فعل ذلك دون أن أُرى. حين نتوقف في وادٍ صغير.

«12 فبراير» - رأيت اليوم لأول مرة عناكب الرتيلاء في الطريق، في أرض مستوية.

«13 فبراير» - نسير في وادٍ واسع؛ تلوح جبال عالية في الأفق على اليمين [127]، وعلى اليسار المرتفعات قريبة جدًا. رأيت [115] شجيرة جديدة، تسمى (ديلو) [128]، أوراقها تشبه أوراق الغار. ثم نتوقف في وادي (إيغولاف). حيث ينمو هنا نبات طفيلي، نوع من (Loranthus) ب couronne من الزهور الحمراء، على أشجار الصمغ. ونترك اليوم منطقة (أسودي) على يميننا [129].

«14 فبراير» - حوالي الساعة 10 صباحًا لدينا على يسارنا الكتلة الهامة من (بنداي) [130]. نمر ببئر في وادي (أونانكيران)، ونتوقف في وادي (إيلاساني)، على بعد حوالي 2 فرسخ من القدم الجنوبية لبنداي.

«15 فبراير» - نرى على يسار طريقنا جبلًا معزولًا تمامًا، يسمى (أورير) [131]. عند الظهيرة، نمر بممر صعب. رأيت، لأول مرة، في الأيير، طائر الهدهد. كنت قد رأيت طيور العقعق من قبل، في إيفروان. تجاوزنا صخرة (دوكو)، التي تتميز بطرفها على شكل مسلة، وخاصة بالرسومات المحفورة عليها لرجال وجمال وخيول. الرسومات ليست منحوتة في الحجر باستخدام إزميل، وهي ناتجة فقط عن الخدش. نخيم على تلة، مع إطلالة جنوبية غربية على كتلة (باغزن).

[116] «16 فبراير» - ننطلق في اتجاه كتلة (تشهيميا)، التي تضم خمس أو ست قمم مستديرة. نتوقف في وادي (أمفيساك)، على هضبة واسعة مائلة نحو كتلة باغزن. في الشرق تظهر تلال أفقية: إنها بداية هضاب بلاد التبو.

«17 فبراير» - بعد الكثير من المفاوضات، قررت مغادرة القافلة، والإقامة في (أجيرو) عند الشيخ بلخو، في انتظار وصول إعانات جديدة إلي. وأقول لأصدقائي إنني إذا دعاني السلطان حسين من زندر للعناية بعينيه المريضتين، فسألبي دعوته على الفور؛ ولكن بخلاف ذلك سأخجل من الوصول إلى السودان في مثل هذا الحرمان. وأخشى أيضًا موسم الأمطار.

يؤكد لي الجميع أنني سأكون بأمان عند الحاج بلخو، حتى لو لم أجد سوى عبد في منزله. وهو نفسه غادر حاليًا في غارة (رزيا). وقمت أوزع بعض الهدايا الصغيرة على أصدقائي، وأدفع لجمّاليّ وأشتري من التجار ما يكفي لتقديم هدايا لأهل أجيرو. ولم يكن وداع أهل القافلة خاليًا من المشاعر: لقد أظهر الجميع لي كل الاحترام.

نتخذ الاتجاه الغربي، بمحاذاة المنحدر الشمالي لكتلة باغزن؛ وهناك، في وادٍ، ألتقي لأول مرة بخنازير برية رمادية صغيرة ذات خطم عريض وذيل على شكل بوق [132].

[117] في الساعة 2:30 مساءً، نصل إلى قرية أجيرو الكبيرة، المبنية على نتوء من باغزن. وأرسل الشيخ تارقيا لاستقبالي؛ لكن هذا الأخير ظل حائرًا، لأنه لا يعرف كلمة عربية واحدة. ونُصبت خيمتي بالقرب من كوخ الشيخ.

«18 فبراير» - تجمع أهل القرية بأكملهم حول خيمتي. يطلبون مني هدية مقابل أصغر خدمة: من الواضح أنني أُعتبر رجلًا ثريًا جدًا. وعلمت لاحقًا أن العبيد المكلفين بنقل أمتعتي قدموا، بسوء نية أو بغير سوء نية، أوصافًا خيالية لكنوزي.

يُقال لي أن هناك أسودًا في باغزن؛ وتوجد هناك أيضًا قرية بها أشجار نخيل ومياه جارية.

«19 فبراير» - سمعت أن القافلة الأخيرة من غات أحضرت رسالتين إلى عالم (ريزر)؛ إحداهما من صافي، يوصي بي إليه، والأخرى من (إيخنوخن)، تطلب إعادتي إلى غات. لا أعرف بماذا أفكر؟. والشاب الأسود اسمه موسى، يعمل مترجمًا لي، وعلى الرغم من أنه لا يفهم سوى عربية القرآن، وأنا لا أفهم اللغة العامية، يخبرني أن العالم رفض رسالة إيخنوخن بحماس، وأكد أنني لن أغادر [118] البلاد قبل أن أرى الشيخ بلخو.

هل هذا لغرض النهب؟

«20 فبراير» - في الصباح الباكر، اقتحم (سركي-ن-توراوا) وموسى خيمتي، وأفهمني الأول أنه يجب علي أن أعطيه شيئًا. وعرضت عليه عقيقين ومقصًا، لكنه رفضهما. وعندما سألته عما يرغب فيه، قرر التحدث: إنه يعلم جيدًا أنه ليس لدي بضائع، ولكن يجب أن أعطيه 100 ثالر، ويمكنني الذهاب بأمان من أغاديس إلى سوكوتو!

احتججت بأنه لا أملك هذا المبلغ: جهود باطلة. لم يخجل اللص من أن يقول لي إن لدي كيسًا مليئًا بالثالرات، وقد رآه العرب في القافلة عندما اشتريت خروفًا! فأجبته: «ابحث بنفسك». وهنا أجبرني على فتح جميع صناديقي، وأخذ بيده كل ما بدا له أنه قد يحتوي على نقود: وهكذا أخرج بحسرة كيس خراطيشي من الصندوق الذي فيه كتبي. لم يجد شيئًا في الصندوق الأول، فذهب إلى الآخر، واكتشف العلبة الصغيرة الأنيقة التي بداخلها المسدس. طلب مني فتحها؛ لكن المفتاح لم يكن تحت يدي، ولم أكن أهتم بإظهار المحتوى له. عندئذٍ، اقتنع بأنه وجد الكنز، فكسر القفل!

على الرغم من أنني أخبرته أنها هدايا مخصصة لسلطان سوكوتو، إلا أنه واصل بحثه. أخذ سروالي الأحمر، وعقيقي [119] و22 ثالرًا، وطالبني بـ 40 أخرى! غطيت وجهي ولم أتفوه بكلمة. كان تارقي، الذي يبدو أنه ابن الشيخ بلخو، يشاهد المشهد بلا مبالاة. للحظة، راودتني فكرة إطلاق رصاصة على هذا اللص، لكنني فكرت في زوجتي وطفلي، وفي عجزي، انفجرت بالبكاء.

اعتقد اللص أنني أبكي على مالي، ومنذ تلك اللحظة لم يطلب مني شيئًا آخر. عند المغادرة، أراد أن يصافحني، لأن كل ما أخذه كان سيصبح ملكًا شرعيًا له. لكني رفضت ذلك، دون أن أنطق بكلمة. غادر وعاد مرة أخرى ليصافحني، دون جدوى.

لقد تسبب الأمر في ضجة كبيرة؛ وكان الجميع مذهولين لاكتشاف مدى فقري. ومنذ تلك اللحظة، لم أظهر وجهي لأحد، ولم أنطق بكلمة. لم يكن بإمكاني الاحتجاج بطريقة أخرى على هذا الانتهاك البغيض للضيافة.

«21 فبراير» - بقيت محبوسًا في خيمتي. جاء الكثير من الناس، وحاولوا عبثًا أن يجعلوني أتحدث.

«22 فبراير» - أتلقى زيارة من رجال الشيخ بلخو؛ أحدهم، أخوه على ما يبدو، قال إن ما حدث لي عار. طلب مني آخر علاجات، لكنني ظللت صامتًا، مما أثار استياء (ستاوي) الشديد.

بعد ظهر هذا اليوم قمت بنزهة في [120] الجبال جنوب (أجيرو)؛ وتحتوي الأودية العالية على عدد كبير من نباتات (Stapelia) التي تنضج ثمارها حاليًا. ولم أر هذا النبات أبدًا في أودية الصحراء [133]. لقد دهشت أيضًا لرؤية نبات (Zizyphus lotus) [134] مرة أخرى.

في طريق عودتي إلى القرية، صادفت قبورًا ذات أبعاد غير عادية. كان أحدها، الذي بدا غير قديم، محاطًا بدائرة كبيرة من الحجارة المنتصبة. في نفس المكان تقريبًا، توجد بقايا أكواخ مبنية بحصى مدحرج ورمل كملاط؛ وهي صغيرة جدًا، لدرجة أنني ظننتها قبورًا من بعيد.

«23 فبراير» - فاجأتني زيارة (سرموي بن ضرار) الغدامسي، الذي سافر معنا إلى الأيير. لقد سمع عن عمل (سركي-ن-توراوا)، وهو الوحيد من بين معارفي الذي فكر في زيارتي. إنه أسود تقريبًا، لأن والدته عبدة من تمبكتو، لكنه أفضل من العرب. يؤكد لي أنه سيتم استرداد كل شيء عند عودة الحاج بلخو. ويقول إن الجميع مندهش من أنهم تجرأوا على انتهاك قوانين الضيافة في منزله.

[121] «24 فبراير» - قمت بنزهة في اتجاه بركان (تيكيندوهير)، لأنه بعيد جدًا عن هنا لدرجة أنني لا أجرؤ على المغامرة حتى هناك بدون دليل. التقيت في الطريق بمنازل حجرية لا تزال مأهولة، ومغطاة بطلاء من الطين. وفوهة البركان على المنحدر الشمالي؛ لكن تدفق الحمم البركانية، الذي أوقفته المرتفعات، انحرف بشكل أساسي نحو الجنوب. كل شيء أسود وعارٍ[135].

«25 فبراير» - جاءوا بالأمس لأخذ رسائل التوصية الخاصة بي للحاج بلخو وحملوها إلى (ريزر)، حيث سيكون هناك بلا شك مداولات كبيرة بشأني.

بعد ظهر هذا اليوم حاولت تسلق البركان. وبعد ساعة ونصف من المشي عبر سهل مليء بأشجار الصمغ والأدجار، وصلت إلى حافة حقل الحمم البركانية، الذي يظهر من جانب الوادي كجدار يبلغ ارتفاعه من 20 إلى 25 قدمًا. وصلت بصعوبة إلى القمة، لكن كان من المستحيل علي عبور هذا السطح المليء بالشقوق التي لا تعد ولا تحصى والنتوءات الحادة. سأحاول في المرة القادمة الاقتراب من البركان عبر المنحدر الشمالي، الذي آمل أن يوفر لي الوصول إلى الفوهة. عند النظر إليه عن كثب، يبدو أن المخروط النهائي يتكون من رماد، على الرغم من أن منحدره يبلغ حوالي 45 درجة من الجانب الجنوبي. وعدد كبير من الممرات الصغيرة تخط سطحه.

وجدت خنزيرين بريين في طريقي، [122] ونظرا إلي بهدوء دون أن ينزعجا. والأنياب، الكبيرة جدًا، تبتعد بقوة عن الرأس.

«26 فبراير» - بعد ظهر هذا اليوم وصل خمسة إلى ستة فرسان على مهاري يرافقون رجلًا مسنًا يركب حمارًا. خمنت أنه الشيخ الذي طال انتظاره. هرعت إلى خيمتي وعبأت أسلحتي تحسبًا لأي طارئ، لأنه قد يكون أسوأ من الآخر، ولا أريد أن أُقتل مثل كلب. ذهب الشيخ إلى الكوخ الذي يستخدم كمسجد وبقي فيه حوالي خمسة عشر دقيقة، بدت لي طويلة جدًا. أخيرًا، ظهر حداد القرية، الذي دعاني للذهاب إلى كوخ الشيخ.

وجدت نفسي أمام اثنين من التوارق جالسين على حصيرة، ومحاطين ببعض

الآخرين. صافحتهم، ودون انتظار أن يطلبوا مني الجلوس، جلست مقابلهم. تعرفت على الشيخ على الفور. كان رجلًا عجوزًا داكن البشرة، يكشف عن قرابة من الدم الزنجي؛ كان يرتدي ثوبًا أزرق قديمًا، وتحت وشاحه الأسود، كان يمكن رؤية لحية بيضاء كالثلج.

حياني باللغة العربية، وبصوت يرتجف من الانفعال سألني مرارًا وتكرارًا عن حالي. بما أنني لم أكن أعرف من يوجه إليه غضبه، اكتفيت بالرد: «الحمد لله!» لكنه استمر في سؤالي باللغة العربية: «ماذا حدث لك في غيابي؟» أجبت إجابة غامضة قدر الإمكان؛ ثم نفد صبره من كل هذه المراوغات، وصرخ: «لقد تلقيت رسالتيك، وقرأتهما». وبينما كنت [123] صامتًا، تحدث بعنف لدرجة أنني لم يعد لدي أي شك، وأجبته بنفس النبرة: «ماذا كنت تريدني أن أفعل، ما دام ابنك يشاهد مشهد اللصوصية هذا بهدوء؛ ألم يكن علي أن أفترض أنكما متفقان؟»

وبعنف متزايد، رد الشيخ العجوز: «ألا تعلم أنني ليس لدي ابن؟ - جئت من بعيد، قلت له، ويجب علي أن أصدق ما يؤكده لي أهل بلدك!» ثم سألني عما أخذه (السركي) مني. عددت 22 ثالرًا، وعباءة من القماش الأحمر، وسروالًا من نفس اللون، وخمسة عقيق. قلت: «هذا ما رأيتهم يأخذونه؛ لا أعرف ما إذا كان قد أخذ شيئًا آخر.» - «كيف، صرخ الشيخ، ألم تعطِ كل هذا بيدك؟ - لا، لقد أخذ هو نفسه من الصناديق الأشياء التي تناسبه». على الفور، تم استدعاء كاتب المكان، وأملى عليه الشيخ الرسالة التالية:

«بمجرد أن تصلك هذه الرسالة، أعد كل ما أخذته من ضيفي، ودون تأخير. لم ينهب الأوليميدن والكيل غيريس منزلي بعد، وأنت تجرؤ! اعلم أنني سأقتل أي شخص ينتهك حرمة منزلي.»

كُتبت رسالة ثانية إلى شيخ، (بوبكر)، طُلب منه الإشراف على تنفيذ هذا الأمر [136]. [124] وكلف أحد التوارق الذين عادوا للتو من غارة بعيدة في (كيل فادي) [137]، اضطر مع ذلك إلى العودة إلى جمله للذهاب واستلام كل

ما سيتم إعادته في (ريزر). وفي الوقت نفسه، أخبرني الشيخ أن السركي وزع على أهل أجيرو جزءًا من مسروقاتي، وأعاد لي ثلاثة ثالرات والسروال الأحمر. بعد فترة وجيزة، ورأيت ثلاثة عقيق وثلاثة ثالرات تعاود الظهور، كان السركي قد أعطاها للنساء. وأعلن الشيخ العجوز أنه لن يقبل أي من هذه الأشياء المسروقة.

عدت سعيدًا إلى خيمتي، وأرسلت إليه في نفس المساء الهدية التي كنت قد خصصتها له؛ مسدس بست طلقات مع ثمانية عشر خرطوشة، وقفطان مطرز بالذهب وسروال من القماش الأحمر. لكنه أعاد لي الملابس قائلًا إن هذه الأشياء الجميلة جيدة لسلاطين السودان؛ إذا ارتدى هذه الثياب الرائعة، فسيطلب منه جميع الزعماء إقراضهم إياها، ولن يحظى بأي متعة منها؛ وفي المقابل، سيقبل [125] بسعادة، إما بندقية، أو بعض المال، أو عقيق لأطفاله. كان من المستحيل علي أن أعطيه بندقيتي؛ لذلك انتظرت حتى اليوم التالي للتفكير فيما يجب علي فعله.

في هذا المساء، أهداني الشيخ عجلًا صغيرًا.

«27 فبراير» - يجلس الكثير من التوارق أمام خيمتي ويعجبون بكل ما هو غريب عليهم. يطلب أحدهم المال، والآخر الأدوية؛ يبدو أن الجميع مقتنعون بأنني مليء بالذهب، لكنهم ليسوا وقحين عندما أرفضهم. سكان القرية الذين شاهدوا مشهد النهب بلامبالاة أو سخرية، أصبحوا الآن يدعمونني ويوافقون على تصرفات الشيخ. أرسلت إليه العشرين ثالرًا الأخيرة المتبقية لدي.

قيل لي إن الجدري منتشر في أغاديس ويتسبب في العديد من الضحايا؛ ينصحونني بعدم الذهاب إلى هناك.

الكيل وي في حالة حرب حاليًا مع الأوليميدن؛ هؤلاء ليس لديهم بنادق ويخافون من الرصاص؛ في المقابل، لديهم خيول، ويعتبر هذا الحيوان نادر جدًا هنا.

في هذا الصباح، قام الحداد بذبح العجل وتقطيعه، وحصل على الرأس

والجلد والأحشاء كأجر له. طلب مني الشيخ عدم توزيع اللحم على أحد، بل تجفيف اللحم في الشمس. عندما يُؤكل، سيرسل لي غيره.

«28 فبراير» - جاء الشيخ ليخبرني أنه، في [126] غضون شهر أو شهرين، سيكون هناك سلطان حقيقي في أغاديس، ويمكنه أن يأتمنني على حمايته. وهذا يتوافق مع رغباتي، لأنني مضطر لانتظار الإرساليات من غات، وأنا حريص على قضاء شهر في أغاديس، للتعرف على هذه المدينة. وأريد أيضًا زيارة [138] الينابيع الساخنة التي أُخبرعنها في الغرب.

«1 مارس» - أحضر الشيخ كوخًا بجوار خيمتي. بعد إزالة الأوتاد التي كانت تثبته بالأرض، رفعه حشد من الرجال والنساء قطعة واحدة وحملوه إلى هنا. تسمى هذه الأكواخ المستديرة (أوا). ذهبت لأول مرة لزيارة الزعيم العجوز في منزله، وأحضرت له نظارة بإطار من قرن. كان سعيدًا بها، وقال لي إنه لم يتمكن من الحصول على واحدة من أي شخص منذ عودته من مكة.

سألته عن أصل الكيل وي، لم يكن يعرف سوى شيء واحد: وهو أنهم جاءوا من بلاد (ألاكوس)، بين زندر وكوكا [139]. ويحتل التوارق الحافة الجنوبية بأكملها للصحراء الكبرى؛ وحسب قول الشيخ، فإن توارق الدوغاما والدامرغو هم أيضًا من الكيل وي.

يقول لي إنه في (باغزن)، توجد بساتين نخيل وحقول دخن؛ وهذه الكتلة أيضًا [127] الوحيدة التي فيها أوكار للأسود. وغالبًا ما تنزل هذه الأسود من الجبل لسرقة الحمير والجِمال. ويحاولون التخلص منها بالمصائد.

يسمي الشيخ بلاد الأوليميدن «بوغائيل»؛ ويقول إنها حمادة صخرية، بدون أودية خصبة ولا ماء [140].

جاء أولاد سليمان، منذ حوالي خمس سنوات، لنهب وتخريب الأيير؛ كان معهم أولاد علي وأولاد ورفلة. أسرع الشيخ بلخو من السودان وطاردهم حتى كانم؛ ويزعم أنه قتل منهم ما يصل إلى ألف رجل، وهو ما يبالغ فيه قليلًا بلا شك.

«2 مارس» - العمل جارٍ بنشاط على الكوخ الذي سأسكن فيه. أحاول التحدث مع النساء باللغة التارقية، وأنجح في ذلك أفضل من استخدام لغة الهوسا. لفتت انتباهي عبدة للشيخ بملامحها الدقيقة والمنتظمة. وجهل مني، سألتها عما إذا كانت ابنة الشيخ، مما وضعها في حرج كبير. انتهى بها الأمر إلى إخباري أنها لا تعرف والديها، لأنها جاءت إلى البلاد وهي صغيرة جدًا، وأنها من (الفولان). وعندما سألتها عما إذا كان هناك الكثير من الفولاني في أغاديس، أجابت نعم، وقالت ضاحكة لصديقتها: «يبدو أنه يريد شراء واحدة».

[128] توليت حيازة كوخي، وأجد نفسي فيه أفضل من خيمتي: إنه منعش وجيد التهوية.

«3 مارس» - ذبح الشيخ بقرة اليوم، وحصل كل واحد على نصيبه منها. وهذا تكريمًا لعيد المولد. لا أستطيع للأسف الحصول على الحليب. وقيل لي إن هناك القليل جدًا منه؛ ولكن بما أنني أرى الكثير من الجبن، أعتقد أنهم يحفظونه لهذا الاستخدام. بالكاد تحضر لي عبدة الشيخ بضع ملاعق منه. ولاحظت فعلا أن ضروع الماعز والضأن والأبقار هنا صغيرة للغاية.

ذهبت لزيارة (سوسو)، أحد أبناء الشيخ، بعد ظهر هذا اليوم، وهو يعاني من الروماتيزم: أمرته بحمامات ساخنة، لكنه لا يثق في فعاليتها، ويظل جالسًا شبه عارٍ في الهواء الطلق؛ وبطبيعة الحال، لن يتحسن.

«4 مارس» - ومنذ أربعة أو خمسة أيام، لم تعد السماء خالية من الغيوم. إنها مغطاة بالكامل بسحب رقيقة (Cirrus)، تأتي من الغرب والشمال الغربي. لا أرى أي شيء قادم من الجنوب. الحرارة معتدلة وتذكرني بالمناخ الإيطالي.

أعطيت آخر عقيق لي للفولانية، التي لم تتوقف عن التوسل إلي. وأراد الكثير من الناس شرائها مني [141]، وعرض علي آخرون (التركي) في المقابل، وللأسف لم يعد لدي المزيد.

[129] أخشى أن يمنعني نقص الطعام المناسب من البقاء هنا؛ وتتضاءل قوتي بشكل أسرع من ذي قبل. إذا كنت في أغاديس، يمكنني بلا شك بيع

جمالي وتوفير المؤن.

تقع قبيلة (الإحدانارين) حاليًا في الأيير؛ ولقد هاجرت بأعداد كبيرة خوفًا من الهقار، الذين أخذوا قطعانها؛ وهي موجودة حاليًا في شمال غرب أجيرو، في (تلاك) [142]، في وادي (أودراس).

«5 مارس» - رياح باردة وعنيفة طوال الليل. زارني الشيخ واستفدت من ذلك للحصول على بعض المعلومات. ويتحدث الكيل غيريس والكيل وي نفس اللغة حسب قوله. على العكس من ذلك، يتحدث الأوليميدن مثل الهقار.

زعيم (غوبر)، (دامبوسكوري)، هو صديق للشيخ بلخو؛ كان أسلافه أول سلاطين الهوسا، ولا تزال لغة الهوسا هي التي يتحدثون بها في غوبر. تبلغ القوات العسكرية في البلاد [130] ألفي فارس، ويزداد عددهم بجميع أنواع المغامرين المحاربين، الذين يتمثل عملهم الرئيسي في غارة العبيد [143].

العلاقات بين الأيير والهقار متوترة جدًا حاليًا، لأنه أثناء نهب قافلة الإحدانارين في بئر (تادنت) [144]، أخذ الهقار بضائع تعود للكيل وي وحوالي ألف ثالر من العملات الفضية. وذهب (توفيق) سفيرًا إلى الهقار، ويعلن الحاج بلخو أنه إذا لم تُعاد هذه الأشياء، فلن يتمكن أي من الهقار من وضع قدمه على أراضيه [145]: وعندها لن يكون لديهم بلد يمكنهم شراء حبوبهم والأشياء الأخرى التي يحتاجون إليها.

يبدو الحاج بلخو نفسه [131] رجلًا شجاعًا إلى حد ما، لكنه ليس مهابًا، وكل شيخ يفعل ما يريد [146].

ليس لدى الأوليميدن زعيم كبير حاليًا؛ قُتل آخرهم على يد الحاج بلخو، خلال إحدى غاراتهم على الأيير، ولا يزال ابنه صغيرًا جدًا بحيث لا يمتلك نفوذًا. يقول لي الحاج بلخو إنه في قبيلة الأوليميدن، لا يرث ابن الأخت السلطة كما هو الحال مع التوارق الآخرين [147].

في هذا المساء، وفي اللحظة التي لم أكن أتوقعها فيها على الإطلاق، ساءت أموري مرة أخرى. واستدعى الشيخ خادمي وطالب بخمسة عقيق إضافية،

مشيرًا إلى أنني لم أعطه بعد ما يستحقه! وهذا بعد أن حصل على ما يقرب من 50 ثالرًا من الفضة والبضائع! هذه اللغة لا تبشر بالخير، وأتوقع أن يتم تجريدي بالكامل. الأسوأ من ذلك هو أن الشيخ وضع عينيه على بندقيتي، وأفهم ستاوي ذلك! ماذا سيحدث لي في السودان بدون سلاح؟

[132] «6 مارس» - ليلة باردة وعاصفة؛ مع بزوغ الفجر، تصفت السماء. وحينها لم أر الشيخ مرة أخرى وأحاول مقاومته بقوة وصلابة.

«7 مارس» - لاحظت هذا الصباح ثلاثة من التوارق الغرباء بالقرب من بيت الضيافة. جاءوا هذا المساء مع المترجم، واتضح أن أحدهم هو الشيخ (بو بكر) من الكيل غيريس، الذي يحل محل السلطان في أغاديس حاليًا [148]. إنه رجل طويل ونحيف، ترك انطباعًا جيدًا جدًا لدي. ومن الغريب أن هؤلاء التوارق الثلاثة، الذين ينتمون إلى فصيل (الكيل فروان)، جاءوا لزيارتي دون أن يرافقهم الشيخ. وأستنتج من ذلك وجود خلافات بينهم. كانت كلمة بو بكر الأولى: «هل تريد أن ترافقني إلى أغاديس؟»

أجبت: «إذا وعدتني بحمايتك لي ولأمتعتي، فأنا مستعد». فأجاب بأنه ليس علي أن أخاف أحدًا غير الله. أخبرته أنني حاليًا بدون موارد، وأنه سيتعين عليه أن يأخذني إلى سوكوتو ليتلقى أجره هناك: لم يعترض على ذلك. كان قد أجرى في السابق محادثة طويلة مع الشيخ، وكان من الواضح أنه على علم بكل شيء. سألني عما إذا كان لدي حرير للبيع، وشرحت له أنني طبيب، ولست تاجرًا، وليس لدي سوى الأدوية: علق قائلًا: «هذا أفضل».

[133] بعد ذلك، غادر زواري، تاركين لي الأمل في الهروب أخيرًا من شبه أسري. كنت أتوقع بعض المقاومة من الحاج بلخو، لكنني اعتقدت أن سلطان أغاديس المؤقت أكثر نفوذًا منه. وبقي الأغراب لفترة طويلة في بيت الضيافة؛ من الواضح أن لديهم الكثير من الأمور للمناقشة. وعندما رأيت أخيرًا أنهم أحضروا لهم مطاياهم، قررت الذهاب إليهم للاستفسار بنفسي عن نتيجة كل هذه المناقشات؛ لكنهم لم يتركوني وحدي في حضورهم ولو للحظة؛ لم أتوقف

عن المراقبة، إما من قبل المترجم، أو من قبل والده، خوفًا من أن أتمكن من قول أي شيء عن سلوك الشيخ بلخو. سألت عما إذا كان بو بكر سيعود إلى دجيرو ليأخذني معه؛ أجابوني: «لا أعرف». أخيرًا علمت أن الشيخ العجوز عارض مغادرتي وأنه يريد أن يأخذني بنفسه إلى أغاديس. لكن الله وحده يعلم متى! من الواضح أنه يريد أولًا أن يأخذ مني كل ما يمكنني تقديمه.

أوضحت أنني بقيت هنا على مضض، لكنني زعمت أن السبب هو نقص الطعام المناسب: لا يوجد هنا حليب ولا زبدة ولا بصل، بينما في أغاديس يتوفر كل هذا بكثرة! لا يزال الجدري منتشرًا هناك، ولكن وفقًا لبو بكر فقد أصبح حميدًا جدًا، ومعدل الوفيات ضئيل. والرحلة إلى هناك ثلاث أيام سير قصيرة من هنا إلى أغاديس، وعشرة أيام من أغاديس إلى سوكوتو.

غادرت التوارق، وشعرت بخيبة أمل إلى حد ما، ولم [134] أطمئن بشكل خاص إلى تصرفات سجاني. لا بد أن كلامي قد نُقل إليهم على الفور، لأنني رأيت بعد فترة وجيزة وصول جبن طازج مخصص لتكملة طعامي العادي. إلى متى ستستمر إقامتي غير الطوعية؟

«8 مارس» - بدأت الهواجس مرة أخرى اليوم، قالت هذه الحية (الشيخ) لخادمي: «إذا لم يعطني سيدك 5 ثالرات ماريا تريزا إضافية، فلن أفعل شيئًا من أجله!» - وهذا بعد أن حصل على 50 ماريا تريزا! لم يتبق لي في المجموع سوى 3 ثالرات!

قطع الشيخ الآن المؤن عني؛ لم يعد أحد يحضر لي أي شيء؛ من الواضح أنه يريد إجباري على تقديم هدايا كبيرة له عن طريق الجوع. ولم أعد أعيش إلا على الدقيق والعدس! لكن قبل أن أموت جوعاً، سأرسل رصاصة إليه أولاً، ثم إلى نفسي! نظرًا لاحتمال اقتراب اللحظة، أكتب هذه الملاحظات بشكل واضح [149]، حتى يتمكن أهلي من قراءة آخر السطور التي كتبتها. وتلقى خادمي (ستاوي) أمرًا، إذا نجا من الموت، أن يحافظ على هذه اليوميات باهتمام، ويسلمها إلى القنصل الإيطالي في طرابلس.

«9 مارس» - أراد ستاوي الذهاب إلى القرية الواقعة أعلى (باغزن)، لمحاولة الحصول على مؤن؛ لكن الشيخ أخفى الجمل الذي هو ملكي، ولم [135] يوافق على إقراضه حمارًا لركوبه؛ وهذا يعادل جعل الرحلة التي خطط لها خادمي العجوز مستحيلة! ذهب بعد ظهر هذا اليوم لمقابلة الشيخ لمحاولة الحصول على زبدة مقابل بضائع؛ أمهله الشيخ إلى الغد، ومع ذلك أعلم أن لديه مؤنًا وافرة، لأن أكثر من ثلاثين حمارًا محملة بالمؤن وصلت اليوم، قادمة من جزء آخر من الأيير. ومن المتوقع وصول قافلة المؤن من السودان في غضون أيام قليلة، وعندئذٍ سيكون هناك وفرة [150].

«10 مارس» - فاجأني الشيخ هذا الصباح بهدية علبة مليئة بالزبدة؛ أرسل إلينا رسالة مفادها أنه يجب علينا شراء القمح والأرز بأنفسنا. ولكن بماذا أدفع ثمنهما، الآن بعد أن أعطيت كل شيء؟

عندما ذهب خادمي إلى البئر، قالت له العبيدات إنني كافر، وإنني آكل لحم الخنزير وأشرب مشروبات مخمرة. من الواضح أنهن يكررن الأحاديث التي تُقال عني في بيت الشيخ. وهذا لا يبشر بالخير.

تهب رياح الغرب غالبًا بعنف في أشد أوقات النهار حرارة؛ تجلب كتلًا من الغبار لدرجة أنه [136] لا يمكن رؤية الجبال المحيطة. وفي فترة ما بعد الظهر، يصفو الطقس.

«11 مارس» - قررت أن أسأل الشيخ عن المدة التي يعتزم أن يبقيني فيها. وجدته يقرأ القرآن، وكان علي الانتظار نصف ساعة حتى يرضى بإغلاق كتابه. أخبرته أنني استُقبلت جيدًا في غات، وأن صافي كان راضيًا جدًا عن هداياي المتواضعة، وأنه لم يطالب أبدًا بالمزيد؛ وأن رجلًا وصفني بالكافر أُلقي في السجن؛ لكن الشيخ، كما بدا لي، لم يصدق كلمة واحدة. عندما تحدثت معه عن مغادرتي، سألني لماذا أنا مستعجل جدًا؛ في رأيه، لا يهم البقاء هنا بضعة أشهر أكثر أو أقل! أجبت بأن الأمر ليس غير مهم على الإطلاق، لأنه ليس لدي ما آكله ولم يعد لدي مال. ولن يقرضني أحد هنا أي شيء، بينما في السودان،

سأجد أصدقاء يخرجونني من المأزق. ثم انتهى به الأمر إلى القول إنه سيعتني بي، لكن لا يمكنني المغادرة الآن، وأنه يجب علي انتظار مغادرة قافلة لمدة شهر أو شهرين: والسفر بطريقة أخرى سيكون خطيرًا جدًا. وبما أنني أعلم أنه لا توجد قافلة أخرى غير تلك التي ستأتي من غات، فإن أمامي احتمال قضاء ثلاثة أو أربعة أشهر في الأيير!

«12 مارس» - تعمل رياح الجنوب والغرب على تعتيم الجو لدرجة أنني لم أعد أرى الجبل، الذي يبعد بالكاد فرسخين. ومن الواضح أن كتل الغبار هذه تأتي من الصحراء.

[137] قمت برحلة جديدة إلى جبل (تيكيندوهير): مظهره مختلف تمامًا من جهة الشمال الغربي. الفوهة مفتوحة على مصراعيها هنا، وحطامها يغطي حقل الحمم البركانية؛ وقد يكون التسلق ممكنًا، لأن التدفقات تنحرف هنا نحو الجنوب وتشكل نتوءًا مائلًا بلطف، يمكن من خلاله ربما اختراق الداخل.

نظرًا لأنني ذهبت سيرًا على الأقدام، وبأحذيتي الممزقة كنت أتقدم ببطء فقط على هذه الصخور الحادة، حل الظلام قبل أن أعود. في أجيرو، كانوا قلقين من غيابي: أرسل لي الشيخ العجوز رسالة مفادها أنه في المستقبل، إذا ذهبت لصيد الغزلان، يجب أن أغادر في الصباح وليس قرب المساء.

«13 مارس» - غدًا، من المقرر أن يغادر بعض الأشخاص من هنا إلى أغاديس؛ سأحاول إلحاق ستاوي بهم حتى يتمكن من توفير المؤن لي.

جاء تارقي أنيق المظهر، اسمه (بينا)، ليسألني عن الهدايا التي قدمتها للشيخ، وكم سأعطيه، إذا أخذني إلى أغاديس وكانو. وعدته ببرنس وبعض الأشياء الصغيرة؛ لكنه أراد الحصول على نصف المبلغ مقدمًا، وعندما رفضت، ذهب لمقابلة الشيخ وأبلغه بكل محادثتنا: بل والأكثر من ذلك، حسب قوله، قلت إنني لم أرقط شيخًا غير مضياف مثل هذا. هذا لم يترك انطباعًا جيدًا، كما هو متوقع، وفي المساء سمعتهم يضحكون بوضوح على حساب الكافر.

«14 مارس» - غادر ستاوي، الذي أقرضه الشيخ حمارًا، ولدهشتي الكبيرة،

اليوم مع بعض السكان الأصليين إلى أغاديس. أعطيته كل ما تبقى لدي من أقمشة، ومرايا صغيرة، وإبر، وما إلى ذلك، ليشتري لي مؤنًا.

عند المغادرة، قال له الشيخ بصوت عالٍ بما يكفي لأتمكن من سماعه: «لولا أنت، لما كنت قد قدمت الضيافة لسيدك، وكنت سأرسله بعيدًا منذ فترة طويلة.» من الواضح أن هذه هي نتائج محادثة الأمس.

ظل الهواء مليئًا بالغبار والجبل غير مرئي طوال الصباح، والحرارة خانقة. وسجل مقياس الحرارة 28 درجة مئوية في قاع كوخي.

قرب المساء، قمت بزيارة للشيخ. استقبلني دون وقاحة، وقال لي إنه إذا رغبت صراحة، فسوف يأخذني إلى أغاديس، لكنه سيقوم أولًا باستطلاع رأي السلطان لمعرفة ما إذا كان يريد أن يأخذني تحت حمايته، وأنه من الأفضل معرفة ذلك مسبقًا بدلاً من أن يُرفض دخولي إلى المدينة.

قال إن صافي هو الرجل الوحيد الذي يتعاطف مع الأتراك، وأن جميع التوارق معادون لهم. وإذا طالب الأتراك منهم بأي رسوم، فسيرد التوارق بقطع جميع طرق القوافل. ويبدو الشيخ نفسه غير مسرور بوجود الأتراك كجيران.

السلطان الجديد لأغاديس هو تارقي من [139] قبيلة الكيل غيريس [151]؛ يعتقد الشيخ أن الأخيرين أكثر عددًا من الأوليميدن؛ من الواضح أنه يعرف فقط القبائل في هذا الاتحاد الأقرب إلى بلده؛ يخلط بين الآخرين والعرب.

الجدري المنتشر في أغاديس يتم استيراده دائمًا من السودان؛ ويظهر أيضًا من وقت لآخر في الأيير، لكن معدل الوفيات ليس كبيرًا. أما بالنسبة للحميات، فيتم الإصابة بها في السودان خلال موسم الأمطار؛ هناك بعضها حتى في الأيير في ذلك الوقت، لكنها أكثر حميدة بكثير. والوادي الذي يمر بالقرب من القرية يكون مليئًا بالماء حينها، ويتدفق نحو الجنوب.

«15 مارس» - يرد الشيخ زيارتي. تهب الرياح دائمًا بعنف تقريبًا في أشد أوقات النهار حرارة، وبعد غروب الشمس.

«16 مارس» - فوجئت اليوم بزيارة قاضي أغاديس؛ من الواضح أن كل هؤلاء

الناس سمعوا عن ثرواتي، وإلا لما أثرت هذا الاهتمام. ترك القاضي العجوز انطباعًا جيدًا لدي؛ إنه يعرف العديد من أصدقائي في غات ويتحدث العربية جيدًا إلى حد ما. أخبرني أن الشيخ [140] (بوبكر) من الكيل غيريس، الذي كان هنا، لا يحكم في أغاديس؛ إنه مجرد زعيم قبيلة مخيمة خارج المدينة. وهكذا لا يتوقفون عن الكذب عليّ، لإعطائي فكرة عالية عن الأشخاص الذين يزورونني. يكشف لي القاضي أن أعلى شخصية حاليًا هو «سلطان السوق»، الذي علاقته سيئة بالحاج بلخو. في غضون أربعة أشهر سيأتي الكيل غيريس لتنصيب السلطان الجديد [152]، الذي سيكون بلا شك ابن السلطان المتوفى، وهو، حسب قول القاضي، رجل طيب. لذا، يريد الحاج بلخو الاحتفاظ بي لأربعة أشهر أخرى! يا لها من توقعات!

«17 مارس» - طلب مني الشيخ هذا الصباح ليُظهر لتارقي غريب كيفية التعامل مع مسدسي؛ يدعوني الرجل العجوز الجشع في الوقت نفسه لشراء الحبوب ودفع ثمنها بالعقيق أو الدورو. أخبرته أنه يعلم جيدًا أنه لم يعد لدي منها، وإلا كنت سأعطيها له منذ فترة طويلة لتلبية مطالبه. أجابني بأنه لا يعرف ما في أمتعتي! انتهى بي الأمر إلى أن ألتمس منه المجيء إلى عندي وتفتيش جميع صناديقي، لأنه يصر على الاعتقاد بأنني مليء بالذهب.

عندئذٍ بدأ يتحدث باللغة التارقية، بابتسامة ازدراء، عن المسافرين الذين لا يملكون المال.

[141] «وكيف ستدفع لجمالك للذهاب إلى السودان؟» سألني مرة أخرى. أوضحت له أن الغدامسة في كانو سيقرضونني المال. من الواضح أنه لم يعد يؤمن بثروتي بقوة كما كان من قبل.

«18 مارس» - السماء خالية من الغيوم؛ كانت الليلة باردة وعاصفة.

منذ أن توقفت عن تقديم الهدايا، لم يعد أحد يحضر لي المؤن. آمل أن يعود ستاوي قريبًا.

«19 مارس» - الطقس يبرد بشكل ملحوظ؛ في كوخي، ولم يعد مقياس

الحرارة يرتفع فوق 22 درجة، وفي الخارج يكون الجو أبرد بسبب الرياح.

ذهبت إلى الملا الذي يسكن بجوار كوخي، وأريته قرآني ورسائل التوصية من قاضي غات والمرابط توفيق. تفاجأ جدًا، وأعرب عن رضاه، وذهب على الفور إلى الشيخ ليقرأ له الرسالة ويُريه القرآن. بدا الشيخ أقل رضى: هل لأنه لم يعد لديه ذريعة لنهبي؟ ومع ذلك، انتهى به الأمر إلى أن قال لي: «لديك نفس حقوق أي منا وليس عليك أن تخاف إلا من الكفار».

رياح عنيفة هذا المساء. يحاول كلب سرقة شيء ما من كوخي، لكني استقبلته بعصا. لا تتلقى هذه الحيوانات المسكينة أي طعام من التوارق، وتعيش على السرقة.

«20 مارس» - علمت من الشيخ أن وادي (فليزليز) [142] ليس رافدًا لـ (تفساسات)، ولكنه يذهب إلى (كوار) [153]؛ في ما بعد، مساره غير معروف. يجعله الشيخ رافدًا لتشاد، التي، حسب قوله، تتدفق هي نفسها إلى النيل.

عندما تذهب قافلة الكيل وي الكبيرة لجلب الملح إلى (بلما) [154]، فإنها تسير لمدة خمسة أيام دون ماء، حتى (أشاغور). يجب حمل العلف، والمشي ليلًا ونهارًا، لأنه لا يوجد في الطريق سوى الحمادة والجبال المنضدية. من (أشاغور) إلى (بلما)، ويستغرق الأمريومين من المشي؛ لا يوجد سكان في أي مكان؛ لذلك يبدو أننا نتعامل مع هضبة عارية تمامًا وفي نفس الوقت ذات ارتفاع كبير، لأنهم يخبرونني كثيرًا عن البرد الذي يعانون منه في الطريق. ولا يبدو أن درجة الحرارة باردة جدًا في الأيير.

كان من المقرر أن تغادر قافلة الملح هذا الشهر؛ لكن جميع الجمال لا تزال في السودان؛ سيغادرون [143] إلى بلما بمجرد عودتها. وهل سيسمح لي بلخو الجشع بالانضمام إلى القافلة؟

«21 مارس» - لا أحد يأتي إلي، ولا أذهب إلى أحد، لأنني أعلم أنني إذا لم أحضر شيئًا، فلن أكون موضع ترحيب. كم يختلف التوارق الشماليون في هذا الصدد، فهم أكثر ثرثرة، وأكثر اجتماعية، وأكثر بهجة.

لا يوجد ضوء زودياكي هذا المساء، لأن الهلال قريب جدًا من المثلث المضيء.

«22 مارس» - وحدتي تثقل كاهلي؛ أتوق إلى عودة خادمي. أعتقد أنه سيعود في غضون يوم أو يومين من الآن. عندئذٍ سيكون هناك رجل واحد على الأقل يمكنني التحدث معه بصراحة.

«23 مارس» - رياح عنيفة هذا الصباح. وكانت الليلة باردة. يمكن للمرء أن يتخيل أنه في مثل هذه الرياح، لا يكون الجو دافئًا على هضبة التبو. وترفع العاصفة الكثير من الغبار، لدرجة أن الجبال تبدو رمادية بالكامل.

«24 مارس» - اضطررت إلى التوسل إلى عبدة الشيخ لتعطيني القليل من الملح، وعرضت عليها مرآة في المقابل، فقبلتها بسرور كبير. اليوم أيضًا، الكثير من الرياح والغبار. عند الظهيرة، وارتفع مقياس الحرارة إلى 30 درجة مئوية في كوخي.

«25 مارس» - لا يزال الهواء مليئًا بالغبار. منذ الصباح، يرتفع مقياس الحرارة إلى 32 درجة في كوخي؛ بالطبع، هذا الرمل الحارق يزيد درجة الحرارة في الخارج.

«26 مارس» - لم يعد أحد يأتي لرؤيتي منذ [144] أننفذ ما لدي من الهدايا لأوزعها. هذه هي الضيافة الشهيرة للكيل وي! أسمع الشيخ، جالسًا أمام خيمته، يتحدث، ومما يبدو أنه سيفرض علي مطالب جديدة.

يسجل مقياس الحرارة 30 درجة في كوخي؛ الحرارة خانقة في الخارج؛ لا توجد نسمة هواء.

«27 مارس» - يُقرع طبل الحرب اليوم، كل شيء في حالة ثورة: يُعلن عن اقتراب (كيل فادي) [155]. يتسلح بعض الرجال على عجل ويذهبون لملاقاتهم. يريد الشيخ أن يتبعهم، لكن النساء والأطفال يستدعونه. لم يتبق هنا سوى أربعة أو خمسة رجال للدفاع عن القرية. تُخفى قطعان الماعز في الأودية؛ يلجأ الكثير من النساء بأشياء ثمينة إلى الجبل. يطلب مني الشيخ أن أُعبئ المسدس الذي أعطيته له.

ساد ضباب الغبار طوال اليوم. كانت القرية خالية تقريبًا، إذ فرّ الجميع إلى الجبل ما عدا عدد قليل من العبيد. عرفت حينها أن في أعلاه نبع ماء. مع اقتراب المساء، تبيّن أن الإنذار كان كاذبًا، فقد ظُنّت قافلة قادمة من السودان جيشًا معاديًا. عاد النساء والأطفال والقطعان إلى القرية وهم يحمدون الله على سلامة النتيجة. أما أنا، فشعرت بالارتياح من أجل خادمي الذي كان في طريقه؛ وإلا لكان كيل فادي موضع ترحيب أكبر.

[145] «28 مارس» - بدأت شجيرات الأكاسيا في الإزهار. (Maerua rigida) وهي مزهرة تكشف عن أسدتها الطويلة. ولا أرى سوى أزهار ثنائية الجنس. والطيور تسير الآن في أزواج: الغربان، العقعق، النسور، والأخيرة هي الأغلبية، مع طيور (تمولت) الصغيرة. وألاحظ أيضًا طائرًا يشبه (Lonius)؛ لديه بطن أبيض، وجوانب رمادية، وعينان وأجنحة محفوفة بالأسود.

بعد ظهر هذا اليوم، شعرت بفرحة لرؤية خادمي ستاوي يصل؛ عاد راضيًا جدًا عن سكان أغاديس، ويخبرني أن الجميع يدعونني للذهاب ورؤيتهم. يقول ستاوي إن المدينة نفسها في حالة تدهور شديد: العديد من المنازل مدمرة [156].

بما أن ستاوي اضطر إلى إعطاء الكثير من الأشياء، لم يتمكن من شراء كميات كبيرة من المؤن. لكنني سعيد جدًا لاستعادة رفيقي الوحيد. التقى ستاوي في الطريق، ليس بعيدًا عن هنا، بالعديد من الأشجار المسماة (فرعون)، وثمارها هي حلوى للأطفال.

«29 مارس» - التقى ستاوي بالشيخ: وأراد الحصول على إذن لمغادرتنا، لكنه عاد مقتنعًا بأن الشيخ محق [146] في انتظار وصول سلطان أغاديس الجديد. وقال له الشيخ إنه يمكنني المغادرة غدًا، إذا أصررت على ذلك، لكن في هذه الحالة سيتبرأ مني، لأنه متأكد مما ينتظرني في أغاديس [157]. قال إنه في كل مكان، كانوا يتحدثون بالفعل عن (الكافر) [158] وثرواته؛ وابنه حصل على دليل على ذلك في زندر. ومن الواضح أن هذه الإشاعات الخبيثة مصدرها

غات، وأشك بشكل خاص في شرفاء توات. لذلك، لنصبر شهرين آخرين!

«30 مارس» - غنينا طوال الليل، تكريمًا لعيد المولد. لكن هذا هو كل الاحتفال، لم يقام أي وليمة، ولم تُلبس ملابس العيد؛ فقط أنا وستاوي ارتدينا ملابسنا. هذا لم يمنع الأطفال من ملاحقتي بصيحات (كافر)، على الرغم من أنه لا يوجد واحد منهم قادر على أداء صلاته بشكل صحيح.

«31 مارس» - هبت الرياح هذا الصباح، وجلبت معها البرودة. وبدأ نقص المياه يزداد. وتستغرق العبدة المكلفة بملء إبريقنا ساعتين للقيام بهذه العملية. وجميع آبار السهل على وشك الجفاف؛ فقط آبار الجبل لا تزال تعطي الماء بوفرة، ولكن الذهاب لإحضارها إلى هناك أمر صعب للغاية.

[147] «1 أبريل» - أثناء نزهة في المنطقة المجاورة، وجدت نباتات (Stapelia) مغطاة بالزهور والثمار في وقت واحد. النورات الكروية بحجم قبضة اليد تقع في نهاية الأغصان.

الزهور على شكل نجمة مضغوطة على بعضها البعض، لدرجة أنها تخفي سيقانها تمامًا؛ وهي سوداء ومشعرة، محفوفة باللون الأحمر الأرجواني في نهاية البتلات. أخذت عينة منها؛ الاسم المحلي هو (أوكوا). رأيت أيضًا شجيرة غير معروفة مزهرة. الأوراق صغيرة، بيضاوية، مسننة، جالسة؛ والزهور منفردة، قليلة العدد، جالسة أيضًا؛ الكأس مكون من سبلات رمحية، أطول من التويج بخمس بتلات. البتلات بيضاء، مسننة قليلًا في النهاية؛ هناك خمس أسدية، والعديد من الأقلام التي لها نفس طول الأسدية؛ والندبات خضراء، درعية؛ وتصل الشجيرة إلى ارتفاع رجل.

«2 أبريل» - لأول مرة، يرسل لي الشيخ (الغوماش) المصنوع من الحليب. هذه اللفتة تدهشني كثيرًا. أشجار الأكاسيا-الصمغ مغطاة الآن بزهور صفراء صغيرة، ونباتات (أدولار) [159] مرقطة بالكامل بأسدية طويلة وبيضاء؛ من الواضح أن الربيع قد حل.

«3 أبريل» - قمت برحلة، عبر مسارات جبلية وعرة، على طول سفوح

(باغزن). يوجد هناك، من بين النباتات الجديدة الأخرى، شجيرة تشبه إلى حد ما (السدر)، ولكن بأوراق مزدوجة الأجنحة؛ والوريقات أكبر من وريقات الأكاسيا. والثمرة عبارة عن قرن رقيق مثل الورق، مع بذرتين أو ثلاث بذور. ورأيت أيضًا شجيرة أصغر بكثير مزهرة، لديها أوراق قلبية الشكل، مع أشواك منحنية: تنتمي إلى عائلة (Solanaceae).

«5 أبريل» - يوم حار جدًا؛ الحد الأقصى 30 درجة في كوخي. تهب الرياح بعنف في أشد أوقات الحرارة.

ذبح الشيخ خروفًا وأرسل لي قطعة منه، دون أن أعبر له عن رغبتي في ذلك. أرسلت له في المقابل إبزيمًا فضيًا. وسأله ستاوي عما إذا كان يجب أن أعود إلى غات، ووافق على هذا المشروع. قال إنه الآن بعد أن علم الجميع في السودان أنني ضيفه، فسيخجل من أن يسمح لي بالوصول إلى هناك بدون مال.

«6 أبريل» - السماء لا تزال خالية من الغيوم. والضوء الزودياكي رائع هذا المساء؛ لقد اختفى لعدة أيام، على الرغم من صفاء السماء.

«7 أبريل» - الشيخ، الذي أسعده الإبزيم الفضي بشكل كبير، أرسل لي اليوم القليل من الحبوب. ذهبت لأقول له إنني قررت الذهاب لإحضار أمتعتي من غات، بدلاً من الانتظار هنا في حالة من عدم اليقين. وافق بشدة ووعدني بإقراضي الجمال والعبيد الجيدين. ومن المفترض أن تصل القافلة الأولى [149] من السودان في أي لحظة: إنهم أناس من زندريجلبون قافلة من العبيد [160].

«8 أبريل» - تزداد الحرارة كل يوم. وسجل مقياس الحرارة لدي 38 درجة في الكوخ، ولا يمكن القيام بأبسط الأشياء، في النهار، دون الشعور بتعب كبير.

«9 أبريل» - بعد ظهر هذا اليوم، 39 درجة في الظل في كوخي، 37 درجة في الهواء الطلق، 55 درجة في الشمس. ذهبت قرب المساء لالتقاط منظر للبركان، وعند عبور قاع الوادي، رأيت حيوانًا كبيرًا غير معروف لي، فر هاربًا في بضع قفزات عندما رآني. تحدثت مع الشيخ عنه، معتقدًا أنه وحش، وخرج معي

لفحص الأثر. بعد التعرف عليه، تبين أنه قرد كبير، يسميه السكان المحليون (أوركد)؛ ويبدو أن هناك المئات منه في (باغزن)، بالقرب من الماء. الفراء أصفر؛ الجزء الخلفي من الساقين أبيض، والأنف أسود.

«10 أبريل» - صادفت بالقرب من الوادي سحلية [150] طولها حوالي قدم ونصف، كانت تركض على الصخور؛ كان رأسها ورقبتها بلون أبيض مصفر، والجسم رمادي حديدي، وعلى الذيل والجانب بعض النتوءات، التي لم أتمكن من رؤيتها بوضوح من مسافة بعيدة. وقتلت بومة عند عودتي إلى القرية هذا المساء.

«11 أبريل» - ذهبت لصيد الغزلان مع الشاب (بركة)، الذي يحدد لي الأشجاربأسمائها المحلية. تسمى (تمات) أكاسيا صغيرة ذات لحاء بني، يتقشر جلدها الأصفرفي قطع. إنها مزهرة حاليًا. يسمى (الطلح) [161] هنا (تيغارت) [162]؛ لديها لحاء فاتح، أملس، مقطع بتشققات طويلة؛ لم تزهربعد. رأيت شجرة كبيرة من النوع المسمى (دوكو)، قال لي بركة إنها تسمى (تادومت) [163] (بالهوسا؟).

القرية الواقعة على مرتفعات (باغزن) تسمى (أغويلالابن) ويسكنها العبيد فقط.

«12 أبريل» - (Senecio coronopifolius)، الذي يسميه دوفيرييه (تماساسوي)، يسمى هنا (توبريس). له رائحة عطرية قوية.

«13 أبريل» - رأيت أثناء الصيد حيوانًا يشبه المرموط، اختفى بسرعة بين الصخور.

«14 أبريل» - تسمى (Solanaceae) التي ذكرتها أعلاه، [151] ذات الأوراق المشعرة والمبيضة، والأشواك المنحنية، والزهور ذات اللون البنفسجي (تادغرا).

أحضرت لي عبدة الشيخ، لدهشتي الكبيرة، عشرين بيضة دجاج، لكنني أدركت لاحقًا أنها كانت مخصبة. قال الشيخ لنفسه بلا شك إن الكافرسيأكلها

على أي حال؛ بالطبع، أمرت برميها.

ذهبت للتجول مرة أخرى في الصخور وحالفني الحظ لقتل حيوان صغير يسمى (ترهلام)، بحجم الفأر، ولكن بأرجل وذيل قصيرين جدًا. لكل مخلب أربعة أصابع مغطاة بشعر خشن، مائل للبياض في النهاية؛ ظهر الحيوان رمادي فأري، والبطن رمادي فضي، والفرو حريري؛ الذيل، بطول بوصة ونصف، مشعر بالكامل؛ الأنف مستدير، وله شوارب قوية، والأذنان واسعتان ومفتوحتان، ومغطاتان بشعر خشن من الداخل؛ والأقدام مغطاة بشبكات سوداء صغيرة.

«15 أبريل» - طلب مني الشيخ قفلًا، فأعطيته إياه على الفور. لقد أدهبتني لياقته. تحدث معي عن ذبح خروف، لكني قلت له إن ذلك ليس ضروريًا، لأنني فقير الآن.

بعد ظهر هذا اليوم ظهرت غيوم رمادية كبيرة في الجنوب، وسقطت بضع قطرات من المطر. هذه هي الأولى هذا العام.

«16 أبريل» - 38 درجة في الظل. تهب الرياح بعنف حتى يحل الليل، لكنها لا تجلب غيومًا من الرمل. وتظل السماء ملبدة.

«17 أبريل» - تظل السماء مخبأة خلف حجاب من الضباب طوال اليوم. وتضرب عاصفة جنوبية عنيفة، لكن لا يوجد غبار. ويقوم سكان القرية بإصلاح أكواخهم استعدادًا لموسم الأمطار؛ إنهم يقومون بذلك بعناية فائقة. ونظرًا لبقاء الشمس محجوبة، كانت الحرارة محتملة.

«18 أبريل» - صباح اليوم، زارني شخص يُدعى (بو تاسا)، وهو الرفيق الوحيد اللائق لستاوي في السفر. وأريد أن أتسلق معه (باغزن).

يروي لي الشيخ أنه رأى بالأمس قاضي (إنغال): إنها واحة كبيرة، ذات سكان مختلطين [164]، مثل غات؛ وهي محاطة بحمادات، لكنها مقطوعة بأودية أكثر خصوبة.

يحصل الأوليميدن على الملح من (تيغيدا) [165]، حيث توجد (سبخات).

لا يذهب هؤلاء التوارق لا إلى السودان ولا إلى أي بلد منظم، وليس لديهم مدن؛ تربطهم علاقة صداقة مع (الآوتسار) (تُنطق اليوسار [166])، وهو زعيم أوليميدي قوي جدًا [153]، صديق لسوكوتو، وأيضًا لـ (الباكاي). وقطع الهقاروالأوليميدن العلاقات حاليًا، لأن (الأيثوغين) [167] أخذوا جمالًا من (الباكاي)، ويرفضون إعادتها، على الرغم من إلحاح هذا المرابط العظيم.

«19 أبريل» - استيقظت قبل الفجروقمت بتجهيزاتي لتسلق (باغزن)؛ لكن لا يوجد دليل. ذهب ستاوي للبحث عنه؛ وسأل عن أجره، وعندما أظهروا له سروالًا جديدًا، وجده قصيرًا جدًا وطالب بالثالرات أو الأقمشة القطنية. ففشلت نزهتي!

أخبرني الشيخ لاحقًا أنه سيرسل أحد رجاله لمرافقتي، عندما ينضج القمح هناك في الأعلى؛ وأن (بو تاسا) ليس شخصية عظيمة بما يكفي لضمان احترامي!

سألت الشيخ عن الطريق الذي يأتي به (التين الكوم) [168] إلى الأيير: يمرون شرق (تينكرادس) [169] وغرب بلاد التبو. قيل لي إن على هذا الطريق يوجد ماء بوفرة، وفقط عند الاقتراب من الأيير يمر المرء بمنطقة قاحلة تمامًا. هل يمكن أن يكون هذا هو الطريق القديم للجرامانت [170]؟ هؤلاء (التين الكوم)، [154] يقول لي الشيخ، يذهبون إلى كانو؛ لم يمروا بغات، بل جاءوا مباشرة من واحتهم في (تدرات).

لا توجد رياح. الجبال تختبئ وراء ضباب من الغبار؛ والحرارة خانقة بشكل فظيع.

«20 أبريل» - جاء تارقيان من (باغزن) للإعجاب ببندقيتي. ولم ير هؤلاء الناس في حياتهم بلدًا آخر غير الأيير؛ بالكاد سمعوا عن بلاد الأوليميدن والتبو.

«21 أبريل» - السماء مغطاة بالغيوم لدرجة أن الشمس لم تخترق الضباب. وسقطت بضع قطرات من الماء. قرب الظهيرة، وتصفو السماء، لتعود وتلتبد بالغيوم وعند المساء. تصير الحرارة خانقة.

أخبرني أحد أبناء الشيخ أن (كيل فادي) يسكنون بلدًا جبليًا اسمه (كيلفو). ليس لديهم سوى خيام من الجلد، وهم أصدقاء للهقار. زعيمهم الحالي يسمى (باكا). إنهم إخوة في العرق للكيل وي، لكنهم في حالة حرب مع الأيير.

«22 أبريل» - شجرة، كنت أخلط بينها وبين (Maerua rigida) حتى الآن، تتميز عنها بوضوح الآن بعد أن أزهرت. إنها لا تحتوي إلا على خمس أسدية وأربع بتلات بيضاء وضيقة ومغطاة بالزغب ومنحرفة، ملونة قليلًا باللون البنفسجي في [155] الأطراف؛ تُلحم بتلة في أنبوب على حامل المتاع.

«24 أبريل» - عاصفة رملية، تهب من الجنوب والجنوب الشرقي، ثم من الجنوب الغربي، بهبات عنيفة ومنتظمة. تستمر طوال اليوم.

«25 أبريل» - يريد ستاوي تسلق (باغزن)، لشراء المؤن. لذلك طلب الشيخ إحضار جملنا من المرعى. كان لا بد أن يكون قريبًا، لأنه وصل إلينا في غضون ساعات قليلة.

«26 أبريل» - غادر ستاوي في الصباح الباكر. كان الشيخ لطيفًا بما يكفي لإرسال مؤن لي للطريق، معتقدًا أنني سأرافق حاملي؛ لكن سيتعين علي الذهاب سيرًا على الأقدام، ولم تعد لدي الشجاعة لذلك.

«27 أبريل» - نمت في الهواء الطلق أمام كوخي، ولم أشعر بالبرد، على الرغم من ملابسي الخفيفة. جاء الشيخ لزيارتي وكان ودودًا جدًا [171]. سألته عما إذا كان يمكنني، عند عودتي من غات، الذهاب مباشرة عبر أغاديس إلى سوكوتو. قال إنه سيتأكد أولًا مما إذا كان سلطان أغاديس على استعداد لوعدي بالحماية اللازمة. هذا السلطان ليس وافدًا جديدًا، كما جعلوني أصدق؛ لقد ذهب ببساطة إلى سوكوتو للحصول على ميراث إحدى زوجاته. يقول لي الشيخ إنه سيعود في غضون أربعة إلى ستة أسابيع.

[156] «30 أبريل» - رأيت لأول مرة نسورًا كبيرة جاثمة على الصخور بالقرب من القرية. كان هناك خمسة أو ستة منها، ومعها صغارها. حجمها أكبر بكثير من النسور المصرية. الجسم والذيل والرأس بيضاء، والقدمان مائلتان للصفرة.

عـاد سـتاوي هـذا المسـاء دون إحضـار أي مؤن. لـم يرغبـوا في إعطائـه المؤن إلا مقابـل المال أو الأقمشـة القطنيـة. في المقابل، أحضـرت العبـدة التي كانـت ترافقـه الكثير من الحبـوب للشـيخ.

«1 مايو» - يروي سـتاوي أنه للذهاب إلى قرية (أغويلالابن)، اضطر إلى اتباع طريـق شـديد الانحدار لدرجـة أن جمله سـقط عـدة مرات. وجد هناك جدولًا من المياه الجارية [172] يأتي من نبع القرية ويُصرف في قنوات الري. أشـجار النخيل كثيرة؛ بالإضافـة إلى ذلـك، يزرعـون الشـعير والدخـن. جميـع السـكان عبيد وينتمون إلى الشـيخ. وفي المسـاء، تُغلق حضائر الماعز بعناية، خوفًا عليها من الأسـود [173]، التي تكثر على هذه المرتفعات.

[157] تحـدث الشـيخ باحتقـار عـن البضائـع التي حملهـا سـتاوي: قـال لـو أنـه علـم أنـه ليـس لديـه شيء أفضـل، لما سـمح لـه بالصعـود إلى القريـة!

«2 مايو» - الهواء مليء بالغبار. يقوم الشيخ بغسل ملابسه بواسطة خادمي.

«3 مايو» - هـواء هادئ ومليء بالغبار. الكثير من الأعاصير الرملية الصغيرة في المناطق المجاورة. نمت في الهواء الطلق بسبب الحرارة.

«5 مايـو» - ذهـب خادمـي إلى قريـة بعيـدة، ورأى هنـاك قنـوات ري بهـا ميـاه جاريـة. تسـمى هـذه القريـة (إميديـان) (؟).

«6 مايـو» - ليلـة بـاردة. وجـاء ثلاثـة من (كيـل فـادي) على المهـاري إلى القريـة وزاروني. كان لـدى اثنين منهـم ضفائـر طويلـة متدليـة، لـم أر مثلهـا أبـدًا لـدى التـوارق [174]؛ حتى أن أحدهـم كان لديـه على جانبي [158] رأسـه خصـلات صغيرة مضفرة، أعطته مظهرًا أنثويًا تقريبًا. كانوا رجالًا وسيمين وبشـرة بيضـاء. بلادهـم تحمل اسـم (كيلفـو) عـن حق.

«7 مايـو» – سـألت أحـد التـوارق عـن موقـع (الأدبني) [175]. أوضـح لي أن المدفونين هنـاك ليسـوا من التـوارق، بل تعود تلك القبـور إلى زمن أقـدم بكثير. كان على علـم بـأن الجثـث داخلهـا توضـع في وضـع القرفصـاء، وأحيانًـا يُدفـن شـخصان في القبر نفسـه. كمـا ذكـر أن القبـور تحتـوي دائمًـا في الشـق العلـوي

[159] على طبقة من قطع الكوارتز الأبيض، وقد تأكدت من ذلك بنفسي مرارًا. هذه قاعدة عامة في منطقة الأيير، حيث يوجد الكوارتز عادة بكثرة في محيطها.

«8 مايو» - قيل لي إن الكيل وي يمنحون جميع السلاطين لقب خليفة، ويصلون من أجلهم في المساجد القليلة الموجودة، لكنهم لا يريدون سماع أي شيء عن الضرائب.

«9 مايو» - جاء تارقيان لرؤية مؤني. أجروا لاحقًا في القرية نقاشًا عنيفًا، حول عبد كانوا قد أغاروا عليه مع ثلاثة جمال من بعض الفقراء.

«13 مايو» - جاء اثنان آخران من (كيل فادي) لرؤيتي. كان لديهما أيضًا الضفائر المميزة. شعرهم أسود حالك. يُدعى شيخ (كيل فادي) (نفزار). لقد اندهشوا لرؤية بشرتي بيضاء جدًا، وتحسسوا باطن قدمي، وأعربوا عن إعجابهم بنعومة الجلد: إنها علامة على النبل لديهم، لأنها تثبت أن المرء يقضي وقته في التدخين. قالوا لي إنه في قبيلتهم، تتميز نساء (إواروارن) ببشرتهن البيضاء؛ لا تبعد مخيماتهم أكثر من أربعة أيام عن هنا. ليس لدى (كيل فادي) سوى خيام من الجلد.

يصنع سكان أجيرو أساور للذراع من طين يأتي من مكان بعيد جدًا، يُدعى (ديفير)؛ لكن هذه الأساور تنكسر بسهولة وهي أقل تقديرًا بكثير من أساور السربنتين التي تأتي من عند الأوليميدن.

[160] ذبح الشيخ بقرة ووزع اللحم على جميع نساء القرية. كان هناك 55 حصة صغيرة. حصلنا نحن على أكثر من ذلك بكثير، ما يعادل 10 حصص، وكانت أفضل القطع.

«14 مايو» - رياح جنوبية وجنوبية غربية عنيفة. أعاصير غبار في المناطق المجاورة. يشعر الشيخ بألم في عينيه ويطلب مني (الكحل). يروي لي أنه جاء إلى وادي (تلاك) غارة من أقصى الغرب؛ إنهم عرب، (برابرا) [176]، يُطلق عليهم أيضًا (كيل إيديليت). كانوا متحالفين مع (إيفوغاس). هُزمت هذه العصابة بشدة من قبل الكيل وي المتحالفين مع الإحدانارين، لدرجة أن سبعة رجال

فقط نجوا. وهذا على الرغم من أن الغزاة كانوا مزودين بالبنادق.

من المتوقع وصول قافلة السودان كل يوم.

«15 مايو» - الجبال غير مرئية تمامًا، لدرجة أن الجو مليء بالغبار.

«17 مايو» - يأكل السكان المحليون جلود الماعز والأغنام: حيث يتخلصون [161] من شعرها ويقطعونها إلى شرائح، ثم يشوونها قليلًا على النار. ويأكلون أيضًا العظام، بعد سحقها إلى غبار.

«20 مايو» - الشجيرة التي وصفت أزهارها بخمس بتلات بيضاء (1 أبريل) تسمى (تراكات) [177]. تحمل توتًا أحمر صغيرًا بأربع غرف، يخلطه سكان القرية بخبزهم.

«21 مايو» - أشجار (تمات) الآن مليئة بالأوراق الخضراء. هذا النوع من أشجار الصمغ هو الذي يشكل الجزء الأكبر من الغطاء النباتي الشجري في المنطقة، لأن الوادي يبدو الآن أخضر بالكامل، بينما كان في السابق يحتوي على بقع قليلة من الخضرة من (الطلح) و(الأدجار). ظهرت الجراد كأفراد منعزلين؛ يتغذى عليها طائر أسود يسمى (تمولت).

أخبرني الشيخ أن رجاله يخططون لغارة على التبو في واحة (أبو) [178]، وهي على بعد 17 يومًا من هنا. وأمر رجاله بعدم قتل أي شخص وعدم اصطحاب الأطفال كعبيد، ولكن بأخذ جميع الجمال. ولم يخبرني بدوافع هذا الإجراء.

هناك عدد كبير من أشجار نخيل (أكوكا) [179] في وادي (أوديراس)؛ لا يبدو أنها تنمو أبعد من ذلك.

«23 مايو» - تتغطى أشجار (تمات) ببراعم زهور بيضاء؛ وبعض هذه الأشجار يوفر ظلًا كثيفًا. هذا النمو للنبات [162] مفاجئ، حيث لم تسقط سوى بضع قطرات من المطر حتى الآن.

«24 مايو» - قليل من المطر هذا الصباح. بدأت (الحاجيلج) [180] في الإزهار. ثمرة (أباغو)، هذه الشجرة التي تشبه (الأدجار) كثيرًا، عبارة عن كبسولة ذات صمامين تنفتح وتلتف، كاشفة عن البذرة ذات اللون الأحمر الزاهي.

يُدعى ممثل سلطان أغاديس، الذي سرقني، (واشيكا)؛ يُقال إنه يجمع للسلطان ما بين 2000 إلى 3000 ثالر ماريا تريزا سنويًا.

«26 مايو» - ننتظر بفارغ الصبر اقتراب القافلة؛ بدلاً من ذلك، تصلنا أنباء بأن مجموعة كبيرة من (كيل فادي)، و(كيل غيريس)، و(أوليميدن) نصبوا كمينًا لاعتراضها! لحسن الحظ، تم تحذير القافلة وتراجعت على عجل إلى (دامرغو). أرادت الغارة التعويض في الأيير وتقدمت حتى (أفازاس). في تلك الليلة نفسها، على ضوء القمر، لجأت قريتنا بأكملها مع القطعان إلى الجبل.

نصحنا الشيخ بالقيام بالمثل، قائلًا إن مثل هذه الغارة سريعة مثل النار. أحضرنا جملنا وحملنا أمتعتنا إلى وادٍ قريب. والشيخ نفسه، على المهري، انتظر بفارغ الصبر حتى انتهينا وغادر القرية، وقبلنا، بالذهاب مع التوارق المجاورين لملاقاة العدو.

[163]بتنا ليلتنا تحت النجوم الساطعة في العراء، وقد كان السلاح الناري (البندقية) في متناول اليد، بينما وُضِعَ المسدس تحت وسادتي تحسبًا. غير أن يقظتنا لم يُحرّكها سوى خطر بيئي كامن تمثّل في اكتشاف عقرب ضخم كان يتسلّق نحو وسادتي.

«27 مايو» - ما زلنا في الجبل. هذا الصباح، نزلت بحذر إلى القرية للبحث عن قربة نسيناها. حتى ستاوي خاطر بالذهاب لإحضار الماء من البئر. ويسود القرية صمت الموت. وجميع الأبواب بقيت مفتوحة، والانطباع كئيب.

لدينا القليل جدًا من المؤن: قليل من الحبوب تركها لنا الشيخ قبل المغادرة وقمنا بشويها، لعدم وجود وقت لطحنها.

«28 و 29 مايو» - أثناء تجولي على المنحدرات العليا لـ (باغزن)، لمحاولة اكتشاف مخبأ عبيد الشيخ وإعطائهم حصتنا من الدخن للطحن، وجدت شجيرة غير معروفة بارتفاع رجل، ذات أوراق متبادلة، تشبه إلى حد ما أوراق الغار. الزهرة والثمرة غير معروفتان لي. الاسم المحلي هو (تيفا)، و(إيتيفا) مع أداة التعريف [181]. بضع أوراق من هذه الشجرة، إذا رعتها الجمال، تكفي

لقتلها؛ والنبات أقل خطورة على البشر، لكنهم يتجنبون استخدامه.

[164] طلب منا رجلان من عائلة الحداد الماء أثناء مرورهما: كانا عائدين من حمل رسالة. يخبرنا هذان الرجلان أن العدو كان في (أفازاس) بالأمس؛ الكيل وي نصبوا كمينًا في بئر (إرحالغيوان).

بعد ظهر هذا اليوم تراكمت السحب الركامية في أفق الجنوب. ويسجل مقياس الحرارة 39 درجة في الظل، وكان معلقًا في تيار هوائي.

«30 مايو» - ضباب كثيف هذا الصباح. بمجرد أن تخترق الشمس، تصبح الحرارة مفرطة. يستمر حجاب الغبار حتى الليل. لا توجد رياح. ونعتقد أننا نسمع طلقات بنادق، لكنه مجرد رعد بعيد. استمر البرق والرعد لوقت طويل في الليل. بضع قطرات من المطر.

«31 مايو» - ذهبت إلى القرية وإلى البئر: كل شيء مهجور.

رأيت مرة أخرى بالقرب من مخيمنا في الجبل هذه السحلية ذات الرأس الأصفر والجسم الرمادي الحديدي؛ تمكنت هذه المرة من تمييز عرف يمتد على طول الظهر.

سقط المطر بعد ظهر هذا اليوم دون عاصفة واستمر حتى الليل. بما أننا بلا مأوى في الجبل، فقد فضلت العودة إلى القرية. وتسري شائعة مفادها أن الأوليميدن عادوا إلى بلادهم.

«1 يونيو» - نقضي الليلة تحت السلاح. وكان (ستاوي) قلق؛ لا يحب صمت الموت هذا. وبعد ظهر هذا اليوم، عاصفة في الشرق؛ مطر مستمر [165] وغزير، لذلك نحن سعداء جدًا بالعودة إلى منزلنا. لعدم وجود شيء آخر نأكله، صنعت عصيدة من تفل القهوة والدقيق. وأكلناها بسعادة.

في حوالي منتصف الليل، سمعت فجأة أصواتًا ونباح كلاب؛ كان الحداد وعائلته يعودون إلى القرية. حيونا بترحيب غير مألوف وطلبوا منا الماء والنار. وأنا سعيد لسماع أصوات بشرية مرة أخرى.

«2 يونيو» - يبدو أن الغارة عانت كثيرًا من العطش، لدرجة أن بعض الرجال

اضطروا لشرب دماء خيولهم. والكيل وي يطاردون العدو. واليوم، عاد عامة سكان القرية.

أحضرت لنا نساء الشيخ كبشًا. ولم يعد هناك حبوب، كما قلن؛ ولن نحصل على المزيد حتى وصول قافلة السودان. ولحسن الحظ، تبقى لدينا القليل من الأرز. وصار موقف الناس أكثر ودية.

«3 يونيو» - سمعنا هذه الليلة صوت شلال في الجبل، وفي هذا الصباح، نزل أول سيل متدفقًا في الوادي شرق القرية [182]. كل شيء مغطى بالضباب، كما هو الحال في الشتاء. ولم تظهر الشمس.

عاد الشيخ، برفقة تارقي [166] لديه طبول كبيرة معلقة على سرجه. وأرسل إلينا على الفور (الغصب) وعددًا كبيرًا من البصل الرائع، مما أدخل ستاوي في حالة من النشوة.

«4 يونيو» قمت بزيارة الشيخ الذي استقبلني بحفاوة بالغة وروى لي تفاصيل حملته. ولقد تراجع المُغيرون بمجرد علمهم باقتراب (الكيل وي)، وبذلك لم تقع معركة مباشرة. ولم يتمكن العدو من سرقة سوى بعض العبيد. ويعتقد الشيخ أن قوة العدو كانت تقدر بنحو 500 رجل، بينما كان عدد (الكيل وي) 1500 (؟).

البصل كبير الحجم ومصدره وادي أوديراس، حيث ينمو بوفرة؛ لكن لا أحد يشتريه هناك.

«6 يونيو» يتوجه الشيخ إلى قبيلة (الكيل تافيدت)، وهي القبيلة التي تعرضت للغارة. يتضح الآن أنهم فقدوا ما يقارب ثلاثين عبدًا، بالإضافة إلى الكثير من الحمير والماعز. يُعتقد أن العبيد كانوا متواطئين في الأمر.

زارني بعد ظهر اليوم عدة رجال من (الكيل فادي)، أحدهم يجيد قراءة حروف التفناغ (Tifinagh). يتميزون بشعر طويل ومجعد قليلاً، ويُصفف بطريقة لا يتدلى منها سوى خصلتان جانبيتان [183]. سألوني عما إذا كنت أرغب في الزواج؛ فأجبت بالإيجاب، ولكن بشرط أن تكون حرة، من نبيلات

التوارق، الأمر الذي أثار سخريتهم وضحكهم. قال لي أحدهم ضاحكاً إنه سيحضر لي واحدة [167] من (الإواروارن)، وأن بشرتهن بيضاء مثل بشرتي تمامًا.

«7 يونيو» قيل لي إن (الكيل غيريس) يعيشون على منتجات الألبان فقط؛ وهم يمتلكون الكثير من الخيول والأبقار والماعز والجمال. وبلادهم، (الأدر) [184]، تحتوي على الكثير من المياه الجارية، ولا تُرى فيها الجبال.

«8 يونيو» ذبح الشيخ بقرة وأرسل لنا ربعاً منها؛ ووُزّع الباقي على أهل القرية.

رأيت اليوم ثعبانًا، وهو الأول لي منذ وصولي إلى إفريقيا؛ إنها أفعى مقرّنة (Vipera cerastes) يبلغ طولها حوالي قدم، بذيْل قصير جدًا، ولونها ضارب للحمرة، مما يجعل تمييزها صعبًا عن لون التربة المحيطة. ويُقال إن هذه الأفعى شديدة الانفعال، ويُطلق عليها محليًا اسم (تاشيلت).

السماء ملبدة بالغيوم. تأتي السحب من الغرب، وسرعان ما انهمر مطر غزير مهيب، مما جعل الوادي يفيض بجميع جوانبه. وانحدرت شلالات عديدة على طول المنحدرات الجنوبية للجبل. وأخبرتني زوجة الشيخ أن هذه المياه تضيع في الحمادة جنوب الأيير، ولا تصل أبداً إلى السودان [185].

[168] قمت بزيارة للشيخ، الذي أظهر لي اللباقة والود. علمت في هذه المناسبة أنه وُلِد في (كاتسينا)؛ ومن هناك بدأ قبل عشر سنوات غارته الكبرى في (كانم). كان أولاد سليمان وأولاد علي قد تعززوا آنذاك بالكثير من تبو بورغو، ومكثوا ثلاثة عشر شهرًا في الأيير، ينهبون ويدمرون، بينما كان السكان يعيشون لاجئين في الجبال؛ وقد سقط الكثير من القتلى من الجانبين.

«9 يونيو» وادي (أجيرو) ممتلئ الآن بالضفادع، التي تُمتعنا بحفلاتها الموسيقية الليلية. يطلق (الكيل وي) على التماسيح اسم (كِفّي)، لكنهم لا يعرفونها إلا بعد أن رأوها في السودان.

في هذه الليلة، التهم كلب حذائي العربي، مما اضطرني للاكتفاء بالصنادل من الآن فصاعدًا.

انتهزت فرصة جريان الماء بوفرة للاستحمام، ولكني أحدثت ضجة هائلة، إذ هرعت جميع النساء والفتيات للاستمتاع برؤية بياض بشرتي؛ كما أبدين دهشتهن لرؤيتي أسبح؛ فلا أحد من التوارق يقوم بذلك. رأيت عدة ضفادع [169] عن كثب: حجمها بحجم الضفدع العادي، عيونها مسطحة على الرأس، والقزحية صفراء، والرقبة غليظة، والظهر بني رمادي، والبطن أبيض. كما ظهرت خنافس سوداء على سطح الماء.

«10 يونيو» لا يوجد مطر. والسماء خالية من الغيوم. ومجدداً. وصل (بو تاسا) من وادي أوديراس محمّلاً بحمير تحمل جوز (أكوكاي).

«11 يونيو» غسلت ملابسي في الوادي، حيث لا يزال هناك ماء كافٍ لتأتي إليه الحمير والكلاب والأبقار للشرب.

سكان وادي أوديراس ينتمون إلى قبيلة (كيل أترام) [186].

«15 يونيو» عند الالتفاف حول جبل (تيكيندوهير) من اليسار، لمحت حوالي اثني عشر قرداً جالسين على حافة تدفقات الحمم، وبعيداً عنهم ثعلباً (أو ابن آوى؟) بذيْل أسود. من الجانب الشمالي للجبل، ويصبح تيار الحمم أرق، وربما يكون من الممكن عبوره وتسلق المخروط. ولا يبدو أن البركان قد شهد سوى ثوران واحد، انسكب بالكامل نحو الشرق، بعد انهيار الجدار الشرقي للفوهة.

«17 يونيو» قمت باصطياد ثلاث خنافس (من فصيلة Cetoniidae)؛ هناك حشد منها يُصدر أزيزاً حول شجرة الصمغ بالقرب من منزلي. كما جمعت خنفساءين حمراوين (من فصيلة الجِعْران) بالقرب من الوادي.

[170] «22 يونيو» وصل أفراد من أغاديس حاملين القصب والأرز من السودان، ويرغبون في مبادلته بالملح. وأرسل لي الشيخ كمية صغيرة من القصب؛ وأعتقد أنه لا يمتلك الكثير منه هو الآخر. ويخبرني أنه لا توجد مؤن في الوقت الحالي. والجميع ينتظر قافلة السودان؛ فبدونها، لا يمكن للأيير أن تصمد [187]!

قبل غروب الشمس، وصلتنا عاصفة رملية قوية من الشرق. أصبحت

السماء صفراء كالكبريت، واحتجبت الشمس؛ واستمر ذلك لعدة ساعات. وجلبت لنا الرياح بعض الجراد وبضع قطرات من المطر.

«25 يونيو» لاحظت نبات يُسمى (أزا) [188] وهو نوعاً من الأكاسيا الصغيرة التي تتميز بوريقاتها المنحنية كالهلال، وأزهارها البيضاء العطرة جدًا؛ تأكل الإبل أوراقها بشهية.

أخبرني فقيه إحدى القرى المجاورة بوجود العديد من النقوش الصخرية على (باغزن)، بالإضافة إلى بيوت حجرية مهجورة.

«26 يونيو» ونبتة (تراكات) [189] الآن في [171] أوج ازدهارها؛ أزهارها الكبيرة البيضاء المنفردة فاتنة. أوراقها بسيطة، متبادلة، مسننة، طولها لا يزيد عن بوصة ونصف؛ الكؤوس خضراء من الخارج وبيضاء من الداخل؛ البتلات أضيق وأقصر من الكؤوس، والقلم أطول من الأسدية. والثمرة، ذات الأربع حجرات والنواة، تتحول إلى اللون البني المحمر عند النضج.

«27 يونيو» أسراب كثيرة من الجراد تمر غالباً على ارتفاعات عالية. يبدو أن هناك نوعين: أحدهما أصفر والآخر أحمر.

«28 يونيو» نعت أحد الطلاب الصغار للفقيه خادمي بالكافر ورماه بالحجارة أثناء الصلاة. اشتكى ستاوي للشيخ، الذي قام بتأديب الغلام بنفسه.

«29 يونيو» يوجد الآن قدر متزايد من الغبار في الهواء دائماً، وعندما ينظر المرء إلى الجبال، تبدو وكأنها مغطاة بحجاب.

اليوم، وأخيراً، جاءتنا زيارة من توارق هم جزء من قافلة قادمة من زندر. يعدنا الشيخ بتوفير الجمال لنا للحاق بها في (رحزر) [190]. القافلة ستعود قريباً إلى غات. وأخبرني الشيخ أنه تلقى رسائل من سلاطين زندر وسوكوتو. يرجوه الأخير بالسلام مع (الكيل غيريس). هل هذا مجرد تفاخر؟ يزعم الشيخ أنه إذا تصالح (الكيل وي) مع (الكيل غيريس)، فسيكون هناك وقف [172] للأعمال العدائية بين سوكوتو و(تساوا). أصبح الشيخ ودودًا وحميميًا بشكل مستمر منذ فترة.

«30 يونيو» أرسل لنا الشيخ بعض القمح من (مرادي)، حبّاته صغيرة ولونها أبيض متسخ، لكنه أفضل بمئة مرة من القصب. وحالف الحظ خادمي فاستبدل سكينًا ببعض الزبدة، وبذلك يمكننا أخيراً أن نأكل ما يكفينا.

سلطان أغاديس، الذي من المقرر أن يعود قريباً من سوكوتو، يُدعى «أحمد رفعي»؛ وهو مسن إلى حد ما وليست لديه علاقات ودية مع (الكيل وي)، على الأقل مع الحاج بلخو[191].

(الأوليميدن) في حالة حرب مع الجميع، حتى مع الهقار. لا تمر بهم أي قافلة، بل يمر بهم فقط بعض تجار أغاديس، الذين يبيعون لهم السيوف والخناجر، ويأخذون منهم في المقابل الإبل والحمير. (إنغال) و(دجيبولي) هما المركزين الرئيسيين (للكيل غيريس).

«6 يوليو» تتناوب عائلتان على شرف توفير سلطان لأغاديس.

التمر رديء في الأيير؛ لذلك يتم استيراده من فزان.

«9 يوليو» استيقظنا فجراً للاستعداد للمغادرة. وأحضرت الجمال [173] خلال الليل. وجاءني الشيخ، وهو شاحب الوجه من الانفعال — من الواضح أن كبرياءه يتألم، — اعترف لي أنه ليس لديه مؤن ليقدمها لنا، لأن قافلته لم تعد بعد من السودان؛ ولكنه سلمني رسالة إلى الحاج ياتا في (تنتارودي)، الذي سيزودنا بكل شيء. أما المذكرة التي كتبتها عن المؤن التي زودنا بها، فقد أعادها إليّ قائلاً إنه لم يكتب في حياته شيئًا كهذا؛ وأنه إذا كنت رجلاً مُهذباً، فأنا أعرف ما يجب عليّ فعله؛ وإلا فهو لا يريد مني شيئًا [192].

انطلقنا بعد ساعة من شروق الشمس. ودّعنا جميع أقارب الشيخ؛ ورافقنا هو وفقيه القرية. وأخيراً، أدرنا ظهورنا لهذا المكان المشؤوم، وتقدمنا بفرح. اتخذنا اتجاه الشمال الغربي، عبر أرض وعرة بشكل متزايد، وعبرنا مرة أخرى وادي (تيكيندجير) [193]، الذي لا يزال قاعه الواسع ذو الضفاف المرتفعة يحتوي على بعض البرك. قيل لي إن الوادي يمر بـ (رحزر) ويُطلق عليه عندئذٍ وادي (ترهزر).

بعد ثلاث ساعات من السير، كنا [174] نسيرفي وادٍ عميق تنتهي فيه تدفقات الحمم التي تشكل جداراً بارتفاع 15 قدمًا. سمح لي فحص أدق باكتشاف مخروط أسود بارتفاع حوالي عشرين قدمًا، على ارتفاع كبيرعلى جانب تل من الجرانيت، ومنه انحدرت الحمم إلى الوادي. لونه الأسود يتناقض مع اللون المحمرللجرانيت. يُسمى هذا المخروط (ترهل).

نحن هنا في ممر جانبي للوادي الكبير (تيكيندجير)؛ أرى فيه لأول مرة مجموعات من نخيل (فرعون) [194].

واصلنا تتبع الوادي الذي يلتف في اتجاه الشمال، ووصلنا أخيراً بعد الظهر إلى مجموعة من الأكواخ المصنوعة من القش؛ إنها قرية الشيخ (كنديركا). الوادي مشجربكثافة؛ وألاحظ عدداً من الأشجارغيرالمعروفة لي؛ من بينها واحدة، خلطت بينها وبين السدرفي البداية، لكنها تتميزبأشواك مستقيمة، وأوراق مسننة وصغيرة جدًا. بشكل عام، الغطاء النباتي لهذه الأودية أغنى بكثيرمن غطاء (أجيرو).

خيّمنا في ظل شجيرات (أبِسغي) التي تحمل حالياً ثماراً سوداء ذات نكهة فلفلية قوية.

«10 يوليو» كان انطلاقنا عند شروق الشمس. نتبع وادياً جانبياً، واسعاً تقريباً مثل سابقه. من الواضح أن سيلًا واسعًا يتدفق هنا خلال [175] موسم الأمطار. الأشجارالتي تصطف على جانبيه تصل في كثيرمن الأحيان إلى ارتفاع أشجارالبلوط لدينا.

لدينا على اليمين جدارمن تدفقات البازلت، القادمة من جبال (دجيملين) و(دجيميا). شقت مياه المنحدرات العليا طريقها فوق وتحت الحمم. نتسلق عبرممرضيق جداً بين جدارين من الحمم. وأخبرني دليلنا أن هذا الممريؤدي إلى (كيل دجيميا)؛ لم تمربه أي غارة من قبل: يكفي عدد قليل من الرجال للدفاع عنه. إنه ضيق جدًا لدرجة أن صناديق جملنا تلامس الجدران.

«»ما إن بلغنا القمة، حتى تجلّى لنا الوادي وقد اتسع نطاقه مجدداً، حيث

لاحتْ لنا تيجان النخيل (Dattiers). وعند منتصف النهار تقريباً، أبصرنا قرية تستقر في قاع مُدَرَّج جبلي (Cirque)؛ فاستقبلنا شيخ مسنّ، يُدعى حاجا، بحفاوة قلبية. ورغم تقدمنا، لم أتمكن بعد من تحديد النقطة النهائية لتيار الحمم البركانية المتدفق. وفي عمق ذلك الممر الضيق (Défilé)، كانت آثار عديدة لقرود مرّت به واضحة للعيان، دلالةً على مجيئها إلى هذا الموقع المائي لترتوي.»»

«11 يوليو» الكثير من البعوض والحشرات الأخرى في هذه الليلة. رأيت هذا الصباح صرصورًا كبيرًا فاتح اللون. على بعد خطوات قليلة من القرية توجد حديقة نخيل جيدة الري؛ يُزرع فيها الذرة، والتبغ، والقصب، والفلفل، وزيت الخروع الذي يُستخدم كدواء للجمال.

وادي (إنغي)، الذي تقع واحة على مجراه، يصب في الغرب في وادي (ترهزر)، والذي يُسمى لاحقًا وادي (تيكيندجير).

«12 يوليو.» علمنا أن المرابط «توفيق» وصل للتو إلى (رحزر) ونصح القافلة [176] بعدم الذهاب إلى غات في الوقت الحالي، لأن غارات من (أيثوغين) (تايطوق) من التبو ومن (أولاد سليمان) في الطريق. والتقى (الأيثوغين) بأولاد سليمان وقتلوا ثلاثين منهم. لذلك، سننتظر قافلة الحاج بلخو، للسفر معًا.

بالأمس، سألني تارقي عما إذا كنت يهوديًا [195]: فناديته باليهودي، ولما احتج بعنف، سألته لماذا ناداني بذلك. توقفت عن الكلام معه ولم أقبل أي شيء قدمه لي. في المساء، عاد بصحبة رجل من غات، شرح لي بالنيابة عنه أنه لم يقصد الإساءة إليّ وأنه يريد تجديد صداقته معي. كدليل على ذلك، جمع بعض الرمل وتركه يسقط مرة أخرى. بدا نادمًا حقًا، وقال لي الغاتي إنه مسلم صالح، وإنه شعر بالأسى لظنه أنني يهودي، وإنه لو لم يخشَ الله، لما كان ليأتي ليعتذر لي. فاجأني هذا الموقف من مسلم متشدد تجاه أوروبي إلى حد كبير، وأسعدني لدرجة أنني قدمت له سبحة ذات قيمة كبيرة. أوكل بعض التجار أمتعتهم لحراسة أهل القرية. يتمتع (الكيل دجيميا)، بشكل عام، بسمعة

ممتـازة.

«13 يوليو.» بما أنه يجب التخلي عن المغادرة [177] الفورية، فقد اسـتولينا على كوخ، وجـاء أهـل (دجيميا) لزيارتنـا وأحضـروا لنـا وجبـة الغـداء. سـأذهب غـدًا إلى (تنتـارودي) بالرسـالة من الحـاج بلخـولطلب المؤن من المرابط الحـاج ياتا. وأعطيت ابن مضيفنا صندوقًا من الصفيح ليحفظ فيه كتبه [196]، ورد على هذا اللطف بإرسال زوج من الصنادل من السـودان؛ هذه هي المرة الأولى التي يقدم لي فيها تارقي هدية.

«14 يوليو» انطلقنا نحو «تنتارودي». سرنا باتجاه الشمال الشرقي، عـابرين تباعـاً وادي «إيزليل» وقريـة «تغير» التي تحتـوي على حديقـة نخيـل، ثم قريـة «إيزليل» نفسـها، في سـهل مُشجَّر حيث تُرى أشجار «أهاتيس» [197] بكثرة، وأخيراً قريـة «سـرار»، التي خيَّمنا بالقرب منها في وادي «وانكراني».

«15 يوليـو» تقـع على يميننـا سلسـلة جبـال «سيرا»، وعلى يسـارنا، في الأفـق البعيد، تظهر القمتان لجبل «أسودي». متجاوزين جبل «أفوديت»، وصلنا إلى قريـة «أجراجر»، الواقعـة عند سـفح الجبـل الـذي يحمل الاسم نفسـه، والـذي يُدعى أيضاً «أفيز».

«16 يوليو» يمتد سـهل واسع بين جبلي «أفيز» و «أفوديت». تركنا الأخير على اليسـار، ووصلنـا مسـاءً إلى «تنتـارودي»، التي تتميز بشـكل إيجابي عـن القـرى الأخـرى بفضـل منازلها [178] الحجرية المنتشـرة بشـكل «جـذاب» على تـلال الجرانيت، عنـد سـفح سلسـلة جبـال «تيمغي» شـديدة الانحـدار.

نزلنا أمام منزل الحاج ياتا؛ وقام العبيد بتفريغ أمتعتنا ودعونا للراحة تحت الشـرفة. كان الحـاج غائبـاً؛ وصل متأخـراً في الليل، وقبل أن يرانـا، بـدأ بضـرب أحـد العبيـد بعصـا، لأن هـذا الأخير لـم يبلغـه بوصولنـا. «الحـاج ياتـا» شـيخ لطيـف، يتمتـع بـآداب مهذبـة للغايـة؛ اسـتقبلنا بأقصى درجـات التقديـر.

«17 يوليـو» «ملاحظـة شـخصية:» أُعامـل هنـا كأحـد أبنـاء البيـت. الطعـام ممتـاز، بـل ويُقـدّم لي الشـاي والقهـوة.

تلقيت زيارة من حاج قادم من مكة، رآني في «ونسريج»، وهو عائد إلى «العرب كنتة»، بالقرب من تمبكتو. يروي لي أن «الهقار» في حالة حرب مع «الأوليميدن» [198]، وأن الشيخ «الباكاي» لا يتمتع بنفوذ لدى الهقار، الذين [179] لا يزالون يُعتبرون وثنيين، لا يلتزمون بتعاليم الدين، ولا يتورعون عن سلب بل وقتل أقدس المرابطين.

أعلن الحاج ياتا استعداده لتزويدي بالمؤن التي سيُدفع ثمنها في غات.

«18 يوليو» ذهبت أنا والحاج ياتا لزيارة المرابط «توفيق»، الذي يسكن عند سفح الجبل على تل بعيد. إنه شيخ ذولحية بيضاء، ويبدو ودوداً للغاية، وكذلك ابناه. لم يأتِ مباشرة من غات، بل من «الهقار»، حيث زار جميع الزعماء وسعى عبثاً لإعادة السلام بينهم وبين «الأزدجر». يعزو فشله إلى «الأتراك»، الذين لا يرغبون في وحدة التوارق. ولقد سمع «أهيتاغل» [199] بأمري. قال إنه إذا جئت إلى الأهقار بصحبة توفيق، فسيستقبلني جيداً. سيوصيني الحاج ياتا على سلطان أغاديس، لكي أصل إلى سوكوتو دون عوائق. يقول لي إن سلطان أغاديس يخشى أهل سوكوتو [200].

[180] «19 يوليو» أُعلن أن «سيدي الركب» [201]، زعيم «الأيثوغين»، انطلق في غارة.

يصف لي الحاج الشاب من عرب كنتة بشكل إيجابي «الأوليميدن موتي-بودال»، الذين يقول إن بلادهم ليست بعيدة عن أغاديس. إنهم أغنياء جداً بقطعان الجمال والخيول. وتعيش عدة قبائل عربية [202] بين «الأدغاغ» و «الهقار».

أعتقد أن توفيق لا يفكر بجدية في اصطحابي إلى الهقار؛ فقد خسر هو نفسه أموالاً خلال نهب إحدى القوافل الأخيرة، ولم يسترد منها سوى عُشر ما أخذوه!

يطلق الحاج ياتا اسم «إمغاد» على الأشخاص الذين قدموا من بلدان أخرى واستقروا في إقليم قبيلة توارقية وخضعوا لها [203]. كان جميعهم [181] في

الأصل من الرجال الأحرار. لم يعد هذا التمييز موجودًا في الأيير، ربما نتيجة للتحالفات المتكررة مع العنصر الهوساوي. وبالمثل، فإن ابن رجل من (الكيل وي) وأَمَة هو حر كأبيه ويتمتع بنفس الحقوق.

يقيم «الكيل رحزر» في «الأغلَل»؛ وهي منطقة جبلية تقع في غرب الأيير، ويمكن رؤيتها من هنا [204].

طُلب مني أدوية لرجل من «الإيفادن» أصيب برصاصة في الركبة خلال الغارة الأخيرة «للمشاغرة». هؤلاء «المشاغرة» هم عرب عاشوا سابقاً بجوار «الكنتة»، قرب تمبكتو؛ لكن الحرب الدائرة بين الكنتة والإغدالن طردتهم من أراضيهم، واستقروا في «الأدغاغ» عند «الأوليميدن». ومن هناك، شنوا غارة على أراضي الإيفادن [205].

«21 يوليو» قيل لي إنه لا توجد جبال غرب «الأغلَل».

دعاني الحاج ياتا للذهاب لإحضار أمتعتي والاستقرار مؤقتًا عنده. وزودني برسائل مكتوبة بهذا المعنى إلى الحاج بلخو وإلى «كنديركا».

[182] «22 يوليو» استأنفنا طريقنا في الاتجاه المعاكس. سرنا نحو جبل «أسودي» تاركين «أجراجر» على اليسار. وأخبرني دليلي أن «أجراجر» كانت في الماضي مدينة كبيرة، أكبر من أغاديس، قبل أن يدمرها «الكيل غيريس».

«23 يوليو» توقفنا في وادي «وانكراني». فاجأنا مطر عاصف، وهو الأول منذ فترة طويلة.

«24 يوليو» عدنا إلى «دجيميا». وحضرت هذه الليلة حفل زفاف. تتكون الاحتفالية من موسيقى الدفوف، ورقصات يؤديها شبان مسلحون ويرتدون أزياء ثقيلة. هذه الرقصات بطيئة جداً وتتسم بنوع من الوقار؛ تشاهد النساء والرجال العرض، جالسين في مجموعتين منفصلتين. في لحظة معينة، يتوقفون ويأكلون بشراهة. الفتيات لا يرقصن في الأيير، بينما يُسمح لهن بالرقص لدى توارق غات.

«25 يوليو.» «أجيرو». لم يتلق خادمي مؤناً أثناء غيابي ولم يعش إلا على

القصب. أريد أن أغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن. لكنهم لا يبدون راضين عن مغادرتي؛ كانوا يأملون بلا شك في جني بعض الفوائد الأخرى من إقامتي. وواجهتني صعوبات في استئجار الجمال، وطالبوا بضعف السعر المعتاد. عند سماع ضجيج النزاع، وصل الشيخ بلخو ووعدني بتوفير الجمال ليوم غد.

[183] «27 يوليو» كنا بالفعل في طريقنا عندما لحق بنا «أدال»، التارقي الذي ظنني يهودياً. أهداني أساوره الجميلة. خيمنا على مرأى من كتلة «بنداي» الجبلية، في وادي «تغيدماون» الواسع [206].

«30 يوليو» وصلنا إلى «تنتارودي»، حيث استقبلنا الشيخ «الحاج ياتا» وأكرم ضيافتنا قدر استطاعته. نزلنا في كوخ، وسط فناء محاط بسياج من «تونتفيا» [207]. تلقيت سيلًا من الزيارات من مرضى مزعومين.

«1 أغسطس» يولي الحاج ياتا أهمية كبيرة لرسالة قاضي غات، وينصحني بعرضها على الجميع.

يروي لي أن أسود الأيير لها لبدة كثيفة؛ هو نفسه تعرض لهجوم من أحد هذه الأسود بالقرب من القرية، ولا يزال ذراعه يحمل آثار العضات. كما توجد زرافات على بعد ثلاثة أيام سيراً في غرب الأيير؛ واسمها المحلي هو (أمدير).

«5 أغسطس» مساء أمس، سمعنا ضجيج كبير في القرية، بسبب نبأ إرسال «كيل إيفادين» ثمانية عشر رجلاً مسلحاً لأخذ التمر بالقوة من «زلّوفييت». وانطلق جميع الرجال القادرين على القتال مسرعين لمعارضتهم. لكن الأمر حُلّ دون إراقة دماء.

[184] يروي لي صهر الحاج ياتا أن «إمغاد» الأوليميدن كانوا يُباعون سابقاً بأسعار زهيدة في سوق أغاديس؛ لكن هؤلاء العبيد البيض أصبحوا الآن باهظي الثمن. لا يتم أسر نساء وأطفال «الإيموشارغ» [208] أبداً.

«7 أغسطس» سقط المطر هذه الليلة وبدأ خيط ماء يجري مجدداً في الوادي. استمر الضباب حتى حوالي منتصف النهار. والحرارة لا تُطاق.

تمتد أراضي «الكيل وي» من «أشاغور» شرقاً، إلى بئر «إنجيشان» غرباً؛ تقع

هذه البئر على حمادة غير مأهولة.

يخبرني الحاج ياتا أن «التبو»، للدفاع عن أنفسهم ضد «الكيل وي»، طلبوا من سلطان إسطنبول احتلال أراضيهم [209]. واحة «بلما» بأكملها تخص الشيخ الكيلوي «حسين» من «أزاناغس»؛ وعندما يأتي أحد من «الكيل وي» إلى بلما، فإنه يأمركسيّد، ويعامل الواحة كبلد مفتوح.

لاحظت لدى «الكيل وي» العديد من الأمراض [185] التي لا توجد لدى توارق البشرة البيضاء والعرق النقي. في «تنتارودي» وحدها، سجلت حالات صرع، وضمور لدى الأطفال، وأمراض كبد ناتجة عن حميات السودان؛ كما أن الزهري يأتي من السودان: رأيت ثآليل واسعة، وطفحاً جلدياً؛ الجدري منتشر عالمياً وغالباً ما يؤدي إلى ثقب القرنية. كما أن أمراض الجهاز الهضمي شائعة جداً، نتيجة لسوء التغذية، وكذلك المراق (Hypochondria)، والجنون. والسمنة هي القاعدة لدى نساء «الكيل وي» وتصل، على ما يبدو، إلى نسب هائلة لدى نساء «دامرغو» [210]. في المقابل، لم أرقط نساء بدينات إلى هذا الحد لدى توارق الشمال. الدورة الشهرية غالباً ما تكون غير منتظمة لدى نساء «الكيل وي». ولاحظت حالتين من الإسقربوط (Scorbut).

الحاج ياتا، الذي استفسرت منه عن مساروادي «فليزليز»، يؤكد لي أنه «يموت بالريح»، على طريق «أسيو»، أي أنه يضيع في الصحراء [211]. وتتجه جميع الأودية الواقعة بين «تنتارودي» و«أجيرو» نحو الغرب.

«9 أغسطس» قبل أربعة أيام، غادرت قافلة متجهة إلى غات: أخفى الحاج ياتا ذلك عني، خوفاً من أن أرغب في الذهاب معها. إنها [186] صغيرة جداً لتوفر أدنى درجات الأمان. ويخبرني الحاج ياتا أن هناك الكثير من الذهب المتراكم في غدامس، فكل تاجر لديه عادة ادخار بعضه للأيام الصعبة.

«11 أغسطس» هذا الصباح، كل شيء مغطى بالضباب. يسمي «الكيل وي» هذا الضباب «تارا» أو «دارا». وأرسل لي توفيق الشاي والسكر.

تلقيت زيارة مريض قادم من «الأغلَل». هذه المنطقة، غربي هنا، ولا يسكنها

سوى المرابطون. ومن هناك، لا يستغرق الوصول إلى وادي «تلاك» سوى يوم واحد من المسير؛ ويستغرق عشرة أيام للوصول إلى بلاد «الأوليميدن موسّي-بودال». «الكيل تدلي»، شمال «الأغلَل»، وهم أتباع «الكيل فروان»، الذين يقيم بعضهم في وادي «إيفرون»، والبعض الآخر في أغاديس.

«13 أغسطس» قمنا برحلة إلى «زلّوفييت». في الطريق وجدنا آثار عديدة للقنافذ، والنيص، وحيوان يُدعى «غربرا إيداوي». وتبعنا وادي «تنتارودي»، في اتجاه الشمال. وفي الأفق البعيد، جبل شاهق مسنن، يُدعى «إخزان»؛ وهو غير مأهول.

«زلّوفييت» قرية «بهيجة» بمنازلها الحجرية وأكواخها، محاطة بسياج من «تونتفيا»، ومبنية على تلال أو على مصاطب نهرية قديمة [212] قطعها الوادي؛ وفي مجرى [187] النهر توجد حدائق النخيل التي تضفي سحراً على هذا المكان.

وجدت بعض الرجال من قبيلة «إيفوغاس» مستقرين هنا، تحدثوا لي عن وطنهم «تادمكت» [213]. لديهم ضفيرة طويلة على كل جانب من الرأس؛ وتُخفى ضفيرة ثالثة بقطعة القماش الملفوفة حول الجمجمة (الكِفّي). يدفع «إيفوغاس تادمكت»، التي هي «إس-سوق» القديمة، حاليًا الـ«غراما» [214] (الجزية) لأهيتارغل، لتجنب نهب «الهقار». ويتحدثون نفس لغة «الإهجارن» (النبلاء) ويشبهونهم في البشرة وطريقة اللباس.

«15 أغسطس» العودة إلى «تنتارودي». يؤكد لي الحاج ياتا أن «الأيير» كان يسكنه في الماضي «سود الهوسا».

رأيت عند العودة تلاً كبيراً جداً (Tumulus): قمته مسطحة جداً، ومغطاة بطبقة من الحجارة الصغيرة؛ وعند القاعدة، توجد دائرة من الصخور المنخفضة؛ يبلغ قطره حوالي عشرة أمتار. ولا تزال نساء الأيير حتى اليوم يذهبن للنوم على هذه «الأدبني» (القبور القديمة) للحصول على أخبار أزواجهن الغائبين؛ ويتزينّ لهذه المناسبة بأبهى الحلل. خلال نومهن، يأتي «صديق القبر»

[188] («جن-الأدبني»)، الذي يمنحهن معلومات مؤكدة عن مصير الزوج الذي ذهب في غارة.

«16 أغسطس» ذهبنا لحضور حفل زفاف في قرية مجاورة. والعريس هو ابن شيخ «زلّوفييت». توافدت حشود من المدعوين في أبهى حلة، ممتطين المهاري المُسرَّجة ببراعة. وكان عامل الجذب الرئيسي هو الموسيقى، التي عزفها العبيد والحدادون، بينما كان المحاربون، بملابس العيد ويمتطون المهاري، يدورون حولها ببطء. وعندما تستريح المهاري، يبدأ العبيد في الرقص. كان الطعام وفيراً للغاية. وسِيْقَ ثور بواسطة الفرسان إلى ساحة الاحتفال، حيث تلقى الرمح الأول؛ وعلى الفور، اندفع العبيد وقطعوا أوتار مفاصله بضربات السيف؛ ثم سُلّم الحيوان، الذي أُسقِطَ بهذه الطريقة، إلى الجزارين. ورؤيتي برفقة الحاج ياتا جعل العديد من النبلاء يأتي لتحيتي، وعاملوني بالكثير من الاحترام [215]. ومن بين هؤلاء، كان من دواعي سروري أن [189] أتعرف على «وينسيغ»، شيخ «الإحدانارين» اللاجئين في وادي «تلاك». إنه أحد أكثر التوارق تعليماً ممن رأيتهم. حتى أن بعض أفراد «الكيل فادي» حضروا حفل الزفاف، وقد لاحظت بوضوح أن استقبالهم لم يكن ودّيًا؛ فهم معروفون بتجسسهم الدائم في المنطقة، ثم نقلهم الأخبار إلى «الأوليميدن» عن المواقع المناسبة للغارات.

«18 أغسطس» عدت إلى «تنتارودي». مقابل الأدوية التي وزعتها، وأُعطيت تمورًا ممتازة قادمة من قرية «إمبركاني» الصغيرة، الواقعة في الجبل.

يزودني شاب «تواتي» يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، كان في أغاديس مع والده لشراء ريش النعام، بتفاصيل عن «الهقار». يقول إنه يمر بهم ذهابًا وإيابًا، ولم يُسلب قط، ولا حتى من قبل «الأيثوغين» [216]. [190] ويخبرني الحاج ياتا أنه في الماضي كان تاجر واحد يرسل بسهولة ثمانين جلد نعام سنوياً إلى سوق غات؛ لكن هذه الحيوانات أصبحت نادرة لدرجة أنه من الصعب جمع عشرة منها اليوم كل عام. تُباع جلودها في طرابلس بسعر 150 ثالرًا، في المتوسط؛ هذا هو السعر الذي يدفعه الحاج ياتا مقابل تلك التي يرسلها إلى

هناك على الأقل.

«19 أغسطس» قيل لي إن «عرب المشاغرة» يلبسون كـ«التوارق»، ويركبون الخيل والجمال، ويدفعون الـ«غراما» لـ«أهيتارغل» مثل «الإيفوغاس». يؤكد لي «وينسيغ» أن أياً من «الهقار» لا يذهب إلى تمبكتو، لأن «الأوليميدن» سيقتلونهم في الطريق.

يروي لي الشاب «التواتي» أن هناك حاليًا يهود في «توات». أحدهما اعتنق الإسلام؛ والآخر، «يوسف»، بقي وفياً لدينه. لا أحد يلحق بهما الأذى؛ فقد مُنحا «الأمان» مرة واحدة وإلى الأبد؛ لكن لا يُسمح لليهود الآخرين بالقدوم والاستقرار في توات.

حسب قول «وينسيغ»، تكثر الحمّيات في وادي «تلاك» خلال موسم الأمطار.

«20 أغسطس» أحضر لي الحاج ياتا ثالرين مقابل معالجتي لأهل بيته، لكني لم أقبلهما وأهديته كأساً تقديراً لحسن نيته.

[191] «21 أغسطس» نصبت خيمتي وطلبت من الحاج ياتا قبولها كهدية. لقد أظهر لي من العناية ما يفوق جميع توارق الأيير الآخرين مجتمعين، وأنا أمنحه بكل سرور خيمتي وسريري المتنقل، التي لها عيب جذب الانتباه المفرط. بدا الحاج ياتا مرتبكاً من قيمة الهدية.

علم «وينسيغ» هذا المساء أن أهل «إيخنوخن» يذهبون مع عرب وادي «الشاطئ» إلى «الأهقار». يعتقد أن «الهقار» سيتجنبون المواجهة، لكنهم سيقطعون بعد ذلك طرق القوافل. لهذا السبب لا يرغب «الغدامسة» في الحرب، بل ويتغاضون عن بعض أعمال النهب. ولكن عندما ذهب «تايطوق» لأخذ الجمال حتى «تغريفا»، بالقرب من مرزوق، رأى عرب فزان أن هذا مبالغ فيه للغاية [217].

«سركي-ن-توراوا»، متسلق، يتودد لسلطان سوكوتو، على أمل أن يقدم له هذا الأخير الدعم ليصبح يوماً ما سلطان أغاديس. وهذه المعلومة زودني بها الحاج ياتا.[192]

«23 أغسطس» «الحاج محمد»، صهر الحاج ياتا، يريد الذهاب إلى غات ويعرض عليّ استئجار الجمال للرحلة.

زرت «وينسيغ»، شيخ «الإحدانارين»، وعلمت منه أنه يوجد بالفعل مكان يُدعى «أناي»، على بعد ستة أيام شرق غات؛ لقد زاره بنفسه ويقول إنه بئر على حمادة غير مأهولة. ويعلم أيضاً أن طريقاً قديماً يؤدي مباشرة من «جرما» عبر «أناي» إلى «الأيير»، وأن أثره لا يزال واضحاً جداً؛ لكنه لم يسمع بآثار عجلات، ولا بنقوش أو منحوتات صخرية [218].

بناءً على بعض المقاطع التي قرأتها من كتاب «دوفيرييه»، أدرك «وينسيغ» أن مخبريه كانوا [193] من قبيلة «أوراجن»؛ ويقول أيضاً إن «الإحدانارين» لم يعودوا يستحقون السمعة السيئة التي أُلصقت بهم في هذا الكتاب، لأنهم تحسنوا كثيراً منذ ذلك الحين.

«24 أغسطس» يتحدثون إليّ كثيراً عن حيوان كبير الحجم يُسمى «تيرهس» أو «أغولس» في الأيير، ويُدعى «أكولي» لدى توارق الشمال، وهو منتشر في جميع أنحاء البلاد من دامرغو حتى الأهقار. ويُقال إنه لا يوجد في السودان [219]. والجميع متفقون على وصفه لي كـ «حيوان مفترس بالغ الخطورة» [219]؛ وهو الوحيد أيضاً الذي يتمكن من قتل النعام. ويلاحقها حتى اللحظة التي لا تستطيع فيها الركل، وتصبح فريسة سهلة لعدوها. وتُباع أحياناً صغار «الأغولس» في أغاديس، حيث يتم ترويضها، على ما يبدو، كالكلاب. لكن لم أتمكن من الحصول على أي عينة منها.

«26 أغسطس» جاءنا أفراد من «أزاناغس» ليخبرونا بأن القافلة الكبرى تتجمع هناك. يُقال إن «دمبوسكوري» [220] قام بغارة منتصرة حتى أبواب «كاتسينا»، واقتاد حشداً من الناس كعبيد، مما جعل «الكيل وي» يتوقعون انخفاضاً في سعر هذه السلعة.

«1 سبتمبر» أتتني أَمَة أصلها من «مرادي» [194] تستشيرني بشأن آلامها من الروماتيزم؛ إنها جميلة تقريباً وذات سلوك حسن، لكن أهل هذا المكان

ينظرون إليها كمتوحشة، لأنها تأتي من أرض وثنيين.

«2 سبتمبر» وصلتنا أنباء من أغاديس تفيد بأن الحاج بلخويريد التصالح مع «الكيل غيريس». وهو غاضب جداً من الشيخ «بوبكر» من «الكيل فروان»، الذي لا يكف عن تحذير «الكيل فادي» و «الأوليميدن» بلحظة غياب رجال الحاج بلخو عن الأيير. ويرغب بلخو في أن يمارس سلطان أغاديس نوعاً من الرقابة على هؤلاء القوم.

يزودني الحداد بتفاصيل عن «الأغولس»، حيث يقول إنها تتسلل في الصيف حتى الجبال لمهاجمة القطعان؛ وهي عادة ما تكون في مجموعات من أربعة أو خمسة، وفروها مخطط بالأسود والأبيض، لكن الأسود هو الغالب: الرأس طويل وضيق؛ الأنياب كبيرة جداً؛ الذيل طويل وداكن. إنها تصرع حتى الثيران. خلال فترات الحر، وعندما ينقص المطر، تقترب من الجبال لتشرب. ويصفها الحداد بأنها خطيرة كـ «الأسود». وهي آكلة للحوم حصراً، وتبحث بشكل خاص عن الجثث [221].

«4 سبتمبر» عرض عليّ الحاج ياتا تلقائياً أن [195] يقرضني المال للرحلة؛ قبلت بامتنان. ووصلت الجمال أخيراً؛ سنغادر هذه الليلة إلى «زلّوفييت».

«5 سبتمبر» غادرنا «زلّوفييت»، ولم يفُت المرابط توفيق أن يرسل لي المزيد من السكر والتمر. وصلنا إلى وادي «تاشوين»، حيث التقت مجموعتنا بالقوافل الأخرى التي كانت تنتظرنا.

هنا تنتهي، في حقيقة الأمر، يوميات رحلة الرحالة. وإذ شرع في تكرار مسار ذهابه ولكن في الاتجاه المعاكس، واقتصر بعد ذلك على إلقاء بضعة إشارات موجزة جداً على الورق، لم يكن لها من أهمية تُذكر سوى في سياق وضع الخريطة الطبوغرافية. وعندما وصل إلى غات في 3 أكتوبر، خطَّ في المساء رسالة قصيرة من بضعة سطور؛ وفي اليوم التالي، كان قد فارق الحياة.».

*******

# الملحق الأول ملاحظة جيولوجية

«غات، 25 ديسمبر 1876.»

من الحافة الجنوبية «للحمادة الكبرى (الحمادة الحمراء)» حتى كتلة «تافيلامين» في «تاسيلي»، وما وراءها، تبقى التضاريس متطابقة. إنها دائماً نفس «الحجر الرملي أحمر-بني» [222]، الذي تُشكِّل طبقاته الأفقية الجبال وتُنشئ نفس الأشكال التضاريسية. فسلاسل «أُمْسَاك»، و«أكاكوس»، و«إيكُهاوَن»، و«تافيلامين»، كلها كتلٌ ذات شكل منضدي (Tabulaire) منقوشة من نفس التكوين الصخري.

تارةً تتخذ هذه الكتل هيئة «هضاب مستطيلة»؛ وتارةً أخرى، عندما يكون تآكل الطبقات العلوية أكثر تقدماً، يظهر [198] «سَنَام مُسَنَّن». وتأخذ بعض الجبال المعزولة شكل «المخروط»، عندما لا يتبقى من الطبقة العلوية سوى القمة الحالية [223]؛ وهذا هو حال جبل «ناساريت»، و«الإِرُّوين»، والعديد من الجبال الأصغر. تُرى القمم المسنَّنة على قمة «إيدينين»، و«أوادرسين»، وجبال «أونات». وعلى النقيض، فإن الهضاب المستوية هي ما يُتَوِّج «أُمْسَاك»، و«أكاكوس»، و«تافيلامين».

تُلاحظ في قاعدة هذا الحجر الرملي سلسلة من «الأردواز» (Schistes) تتكون من شرائط دقيقة جداً ذات ألوان بيضاء أو حمراء أو رمادية؛ ويُستعاض عن هذا الأردواز أحياناً بحجر «جيري صلب». وفي وادي «إينسَّان»، يقع الحد الأدنى للحجر الرملي على بعد حوالي ثلاثة عشر متراً تحت مستوى الحمادة. ولم أجد فيه «أحافير» يمكن التعرف عليها؛ ولكن، في المقابل، فإن سيقان «زنابق البحر (Crinoïde)» وفيرة في الحجر الجيري، لا سيما في «أكاكوس» و«تادرارت». وبين الحصى المدحرجة في وادي «ميهرو»، التقطت قطعة من «اللافا المسامية»،

قيل لي إنها قادمة من «الأهقار».

«فرضية البحر الصحراوي والنقاش الجيولوجي:»

فيما يتعلق بفرضية «البحر الصحراوي»، يجب أن أقول إنني لم أجد لها أدنى أثر. بل على العكس تماماً، بناءً على ما رأيته من طرابلس إلى غات، يجب أن يكون سطح شمال إفريقيا قد ظهر فوق الماء منذ زمن بعيد، حيث لا توجد فيه حتى رواسب بحرية من «العصر الثالث» ما لم يكن [199] «التفتت الجوي» و«التعرية» قد أزالا آخر بقاياها.

لا توفر الكثبان الرملية أي حجة لصالح هذه الفرضية، فهي تتكون بوضوح من «حُتَات» (دِثار) جميع الصخور الظاهرة على السطح، وهو حُتَات جرفه «الريح» وراكمه. أما عن حركتها، فصحيح أن العاصفة قد لا تزيح الكثبان دفعة واحدة، لكن هناك كثباناً «تَسير»: ولدينا دليل على ذلك في طرابلس نفسها. إنها تغزو الجانب الغربي من الواحة هناك، وقد دُفِنَتْ العديد من أشجار النخيل الحية حتى منتصف ارتفاعها. بطبيعة الحال، يتطلب ذلك عدداً معيناً من السنوات. إن وجود الأماكن المأهولة والطرق وسط «العرق» لا يثبت ثبات الكثبان، تماماً كما أن وجود الموانئ لا يثبت ثبات الشواطئ. يقدم تقرير رحلتي إلى وادي «ميهرو» عدة أمثلة على كثبان تراكمت بفعل الرياح خلف جدران عالية، في منطقة تخلو منها الكثبان عادة: سيكون تحديد موقعها غير مبرر دون فعل الرياح. هذا لا يعني أن جميع الكثبان تغير موقعها؛ بل من المرجح أن الكثبان الواقعة في منخفضات محاطة بتضاريس أعلى مقدر لها أن تحافظ على حجمها وموقعها، طالما استمرت الظروف الجوية الحالية. [201]

## الملحق الثاني حول الطابع الصحراوي للأيير

«(رسالة من الدكتور دي باري إلى البروفيسور أشيرسون [224].)»

«أجيرو، 11 أبريل 1877.»

بعد أن وجدتُ نفسي مُجبراً على الخمول في غات، حيث لم يكن المرء آمناً من الهقار حتى عند أبواب المدينة، قررتُ التوجه إلى «الأيير» مع قافلة «الكيل وي»، لإجراء مقارنة بين نباتات هذا الإقليم ونباتات توارق الشمال. وعلى الرغم من أن الاستقبال هنا كان أبعد ما يكون عن الود، ومعاملتي تقترب من معاملة سجين، فإنني لا أندم على المتاعب والمخاطر، طالما أنني تمكنت من الوصول إلى بعض النتائج المؤكدة.[202]

إن وصف «بارث» الذي أطلق على الأيير اسم ««ألب الصحراء»»، ربما أعطى عنه فكرة أكثر عظمة مما يجب.

يمكن الإبقاء على هذا التعريف، لكن الكلمة الأهم التي يجب تذكرها هي «الصحراء». لا شك أنه عندما يعبر المرء تلك القفار الموحشة التي تمتد بين وادي «أروكام» والحد الشمالي للأيير، والتي هي أكثر خُلُوّاً من النباتات حتى من «الحمادة الحمراء»، فإنه يتأمل بانبهار تلك السلسلة من القمم الزرقاء التي ترافق المسافر جنوباً لأيام، ويُعجَب في الوديان بالظلال الطويلة لأشجار «الصمغ» و»الأدجار»، التي تحتها، ويسير الراكب على المهاري. وهكذا، يخاطر مستكشف الصحراء بإعطاء تعابير مفرطة في البلاغة لدهشته، وينسى أن وجهة نظره تختلف عن وجهة نظر القارئ الأوروبي.

إن إخراج «الأيير» من المنطقة الصحراوية، بسبب أمطارها الصيفية المدارية، هو رؤية جانب ضيق من المسألة. فلو افترضنا أن الكتلة المركزية «للأهقار» تتلقى أمطارًا شتوية منتظمة، فهل سيكون هذا سبباً لجعلها بلداً منفصلاً في قلب الصحراء، في حين أن نباتاتها وحيواناتها وجيولوجيتها تعارض ذلك؟

كما أن وجود الضواري الكبيرة بدا غير متوافق مع تعريف دقيق للصحراء (رولفس). لكن «النمر (الفهد)» [225] لا يزال موجوداً [203] حتى اليوم في شمال «فزان»، وإن كان نادراً، وفي «الأهقار» يُشار إلى «التاهوري»، الذي هو، على ما يبدو، ضارٍ قريب جداً من النمر. ولماذا نستبعد الضواري الكبيرة من الحياة الحيوانية للصحراء، بينما نحن مضطرون لإدراج التماسيح؟ لا شك أنه ستُضاف إليها أنواع أخرى لم يكن يُشتبه في وجودها؛ مثل حيوان رباعي الأرجل يشبه «المرموط» (Marmotte)، الذي قيل لي إنه شائع جداً في جميع أراضي التوارق [226].

لقد أعطى مواطني الشهير «رولفس» تعريفاً للصحراء يبدو متناقضاً ظاهرياً، بقوله إنها تبدأ حيث تختفي «البرغوثة». لا يسعني إلا تأكيد هذه الحقيقة، مهما بدت غير مفسرة، بخصوص طفيلي تبع الإنسان في كل مكان ذهب إليه في الأجزاء الأخرى من العالم [227]. تتميز «الأيير» أيضاً بهذه الميزة السلبية، إذ لا يُعثر على البرغوث لا في شمال ولا في جنوب جبالها، ومع ذلك، لكانت القوافل قد استوردته منذ زمن طويل لو سمح المناخ بذلك. أعتقد أنني أستطيع إثبات أن الأيير هو جزء حقيقي من المنطقة الصحراوية، على الرغم من انتشار «الأسد» في [204] في جميع أنحاء البلاد، وعلى الرغم من أن حيوانات تشبه المرموط تسكن جبالها، وعلى الرغم من أن قطعان القرود تُشاهد في كل مكان توجد فيه أشجار التمر ونخيل «فرعون».

لنلاحظ أولاً أن جبال الأيير خالية تماماً من أي غطاء نباتي وتُظهر جدرانها الجرانيتية البنية عارية في كل مكان. لا يُرى فيها عشب، ولا طحلب، ولا أشنة، وهذا هو حال الجبال الجرانيتية على المنحدر الجنوبي الشرقي للأهقار، على طريق القوافل بين وادي «توفوك» ووادي «أروكام».

في الوديان، تتكشف «النباتات الصحراوية» بثراء مدهش. «الطَّلْحَة» (Talha)، التي لم نرَمنها حتى الآن سوى عينات متقزمة، تكتسب هنا حجْم أشجارنا العالية في الغابات، وبشكلها ذكرتني حتى بأشجار البلوط؛ لكنها لا

تملك أوراقها الخضراء، لأن وريقاتها صغيرة جداً بحيث تختفي نوعاً ما وسط الأغصان وكتل الأشواك. ولهذا تبدو أجمل شجرة صمغ، عند النظر إليها من بعيد، وكأنها جافة، ما لم يضف عليها نبات طفيلي، مثل «اللورانثوس»، في نضارته وخضرته.

«الأدجار» (Adjar)، الذي هو عبارة عن شجيرة صغيرة منعزلة في بلاد توارق «الأزدجر»، كما يلاحظ «دوفيرييه» وبحق، ينتشر هنا ويصل ارتفاعه إلى 12 متراً. وتشكل أغصانه الصلبة، التي تتفرع بزوايا قائمة، غابة حقيقية حول الجذع الرئيسي الذي [205] تخفيه تقريباً بالكامل وهي متدلية حتى الأرض تقريباً. و«الأدجار» أيضاً، أوراقه صغيرة جداً، وموضوعة بشكل منفرد على الأغصان العُقَدية، ولا يشكل، في الحقيقة، مظلة من الأوراق.

«الإبوراك» (Éborak، مؤنثه: تبوراك)، الذي يُوجد بالفعل لدى توارق الشمال، أعطى اسمه للوادي الذي يُعبر في الطريق إلى الأيير. كل من رأى أشواكه الهائلة يتجنب الاقتراب منه. «الإبوراك» (Balanites aegyptiaca Del.) هو أيضاً فقير جداً بالأوراق لدرجة أن أغصانه تبدو عارية تقريباً.

هذه هي الأنواع الثلاثة من الأشجار التي، عندما تتجمع مع بعضها البعض، تُشكل غالباً كتلة هذه «الغابات الخفيفة» التي تُسعد رؤيتها المسافر القادم من الشمال.

يُوجد متناثر هنا وهناك «السدر» (Sedra) الموجود في طرابلس، حيث نادراً ما يصبح عالياً كما هو هنا؛ ثم هناك «التادوميت» (Tadomet)، وهو نبات من فصيلة «القبارية»[229]، ترتاح العين لنضارة أوراقه التي تشبه ورق الغار. وهذا كل ما أعرفه عن الأشجار التي تنمو في «الأيير» في حالتها البرية.

يُزرع «النخيل» و«نخيل فرعون» في كل مكان تتوفر فيه مياه الآبار بكثرة. لأنه لا يوجد حديث عن «مياه جارية» في الأيير[206]، باستثناء في موسم الأمطار. ولم أرَشجرة «نخيل فرعون» [230] بنفسي بعد، ولكن تُباع بذورها الخشبية في كل مكان. ويبدو أنها تنتشر بشكل خاص في جنوب الأيير.

من بين الشجيرات، يستحق «الأَبِسغي» (Abesgui - Salvadora persica L.) المركز الأول. إن خضرته الغنية والنضارة تعوّض عن العُري المؤسف للأشجار. في وادي «إيفرون» ويشكل «الأَبِسغي» [207] «أجمة كثيفة»، وينمو بينها «البرومباخ» (Brombach - Calotropis procera R. Br.) بقوة، لدرجة أن توارق القافلة اضطروا لشق طريقهم بضربات السيف.

يتخذ «الطَلْحَ» و«السدر» أيضاً الشكل الشجيري، وينتشران في جميع الوديان، حتى الأكثر جفافاً، بينما يُرى «سلفادورا بيرسيكا» بشكل خاص بالقرب من القرى أو عند سفح الجبال، حيث تُوجد المياه على عمق ضحل.

يُمكن التعرف على الأودية، التي يمتلئ مجراها دائماً بالرمل الجرانيتي، من بعيد، بفضل القش الأصفر لـ «الأفيزو» [231] الذي يغطيها لمسافات طويلة، ويخلق شريطًا فاتح اللون في الوسط، ترتفع فيه من حين لآخر تيجان أغصان شجر الصمغ الجافة.

البلاد فقيرة جداً بالأعشاب المغذية، لدرجة أن الماعز يعيش بشكل أساسي على وريقات «الطلحة» و«الأدجار». تمتلك الإماء، اللاتي يتولين رعاية القطعان في الأيير، عَصا طولها حوالي 7 أمتار، مزودة في طرفها بخُطّاف طوله حوالي 15 سنتيمتراً. تُستخدم هذه الأداة للإمساك بالأغصان وإسقاط الأوراق والأغصان المخصصة للماعز المتجمعة عند سفح الشجرة.

يمكن أن يعطي هذا فكرة عن الطابع الصحراوي للغطاء النباتي في هذه الوديان[208]

الغالبية العظمى من النباتات إما «شائكة» أو «مغطاة بالشعر»؛ أما النباتات ذات العصارة اللبنية (Calotropis procera، إلخ) فتمثل استثناءً.

الأنواع الأخرى، مثل «الأَبِسغي» و «التادوميت»، محمية ضد الجفاف بأوراقها «الجلودية» التي تشبه الرق. ولم أجد في أي مكان ممثلين للأشكال المدارية، وغيابها له دلالة، على هذه المسافة القصيرة من السودان.

تحتوي ممرات «باغزن»، التي تتحول إلى سيول عند هطول الأمطار،

على أنواع نادرة قد لا نجدها في الوديان. وهكذا، ينمو نبات «الستابيليا» (Stapelia) بأزهاره حمراء داكنة [232] وبشكل متكرر بين الكتل الجرانيتية العالية، ويفاجئ المسافر بشكله «الشبيه بالصبار» (Cactus)، الذي يتناقض بشدة مع نباتات الأيير الأخرى. كما يغيب عن السهل شجيرتان، إحداهما، بناءً على شكل الثمار، تنتمي إلى فصيلة «السنط» (Acacias)، والأخرى إلى فصيلة «السلاسترينية» (Celastraceae).

أعتقد أن هذه الأسباب ستكون كافية لكم لتتفقوا معي على إسناد نباتات الأيير هذه إلى «المنطقة الصحراوية». فعند تتبع المنحدر الجنوبي الشرقي للأهقار، وجدت الوديان مزودة بنفس النباتات، وأنا على يقين من أن نباتات الأهقار ستظهر تشابهاً كاملاً مع نباتات الأيير، تماماً كحيواناتها.

لكن لا يُعرف شيء تقريباً عن نباتات «الهقار» هذه، لأنه من النادر جداً مصادفة شخص [209] رأى بعينه الكتلة المركزية «للأتاكور». حتى أولئك الذين ذهبوا إلى الهقار اتبعوا طرق القوافل، التي تتجنب هذه الجبال، وبالتالي فهم لا يعرفون سوى محيطها.

لذا، من المرغوب فيه جداً أن يتقدم مسافر أوروبي إلى قلب «الأتاكور»؛ وسيتطلب ذلك الاستقرار في «إيدلس»، ومن هناك القيام بسلسلة من الرحلات الاستكشافية في الجبل.

## الملحق الثالث سجل الأرصاد الجوية

يُقدم هذا السجل بيانات رصد درجات الحرارة المئوية وظواهر الطقس المسجلة من قبل الرحالة، لتوفير توثيق مناخي دقيق للمناطق التي عبرها (من غات إلى الأيير).

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
|---|---|---|---|---|
| «أكتوبر 1876» | | | ............ | |
| 15 | 10 صباحاً | غات (Ghât) | 26° | «عاصفة» من الجنوب. السماء ملبدة بالغيوم، بَرَد (إضاءة). بعض قطرات المطر. |
| 16 | » | — | » | رياح شديدة، مطر. |
| 17 | 11 صباحاً | — | 27° | طقس جميل. |
| 18 | ظهراً | — | 30° | بعض الغيوم. |
| 19 | » | — | » | مطر. |
| 20 | 2:15 بعد الظهر | — | 34° | سماء مغشاة (بضباب خفيف). |
| 21 | 11 مساءً | — | 24° | «مطر غزير» (Forte pluie). |
| 23 | » | تيتارسين (Titersine) | » | مطر غزير خلال الليل. |
| 24 | » | تيهوبار (Tihobar) | » | مطر طوال الليل. |

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
|---|---|---|---|---|
| 25 | 5 مساءً | تنتورها (Tintorha) | « | مطر غزير. |
| 27 | 2:15 بعد الظهر | وادي تيفرغاسين (O. Tifergasine) | « | مطر. |
| «نوفمبر» | | | | |
| 3 | 4 مساءً | وادي إيريرين (O. Erinerine) | « | «عاصفة رعدية» (Orage). مطر غزير ليلاً. |
| «يناير 1877» | | | | |
| 8 | « | أكاوف (Akaouf) | « | «تجمد الماء» ليلاً (Eau gelée). |
| 12 | « | وادي توهيكهام (O. Touhikaham) | « | تجمد الماء ليلاً. «ضباب كثيف عند الفجر». |
| 13 | « | وادي تيسغا (O. Tisga) | « | تجمد الماء ليلاً. «رياح قوية وشديدة البرودة». |
| 14 | « | حمادة (Hamada) | « | تجمد الماء ليلاً. |
| 23 | « | وادي أروكام (O. Arokam) | « | — |

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
|---|---|---|---|---|
| 31-26 | « | وادي كاتيليت / وادي إيميدر (O. Katelet / O. Immider) | « | — |
| «فبراير» | | | | |
| 4-1 | « | وادي إيميدر / وادي زرزو (O. Immider / O. Zerzou) | « | — |
| [212] «مارس» | | | | |
| 4 | « | أجيرا (Adjiro - الأيير) | « | سحب «سُمْكية» (Cirrus) قادمة من الغرب. حرارة معتدلة. |
| 5 | « | — | « | رياح باردة ليلاً. |
| 10 | « | — | 28° | درجة الحرارة مأخوذة داخل كوخي. الصباح يشهد غالباً «عواصف عنيفة من الغرب». |
| 11 | « | — | « | في المساء، غيوم في الجنوب والغرب. |
| 12 | 2 بعد الظهر | — | 28° | درجة الحرارة في الشمس: $circ\^$52. رياح جنوبية وغربية، تجلب ضباب الغبار. |

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
|---|---|---|---|---|
| 14 | | — | 28° | حرارة خانقة صباحاً. رياح عنيفة متكررة بعد الظهروالمساء. |
| 16 | « | — | « | غيوم قادمة من الجنوب الغربي (S.W.). |
| 18 | بعد الظهر | — | 22° | سماء صافية. ليلة باردة ورياح. |
| 19 | « | — | 22° | «أقصى درجة حرارة» (داخل كوخي). رياح عنيفة. |
| 20 | « | — | 23°/ 22° | سماء صافية. رياح قوية صباحاً. |
| 21 | ظهراً | — | 25° | — |
| 23 | بعد الظهر | — | 27° | — غبار. |
| 24 | ظهراً | — | 30° | رياح وغباركثيف. |
| 25 | نحو الظهر | — | 32° | «أقصى درجة حرارة» (Temp. max.). |
| 26 | « | — | 30° | أقصى درجة حرارة. حرارة خانقة في الخارج. |
| 27 | ظهراً | — | 32° | أقصى درجة حرارة. في الخارج $circ\^$52. |
| 28 | « | — | 35° | أقصى درجة حرارة. |
| «أبريل» | | | | |
| 1 | « | — | 26° | أقصى درجة حرارة. رياح قوية ومنعشة. |
| 2 | « | — | 26° | أقصى درجة حرارة. |

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
|---|---|---|---|---|
| 4 | » | — | 27° | أقصى درجة حرارة. |
| 5 | » | — | 30° | أقصى درجة حرارة. |
| 6 | » | — | 33° | أقصى درجة حرارة. «سماء صافية دائماً». |
| 7 | » | — | 35° | أقصى درجة حرارة. |
| 8 | » | — | 38° | أقصى درجة حرارة. |
| 9 | » | — | 39° | أقصى درجة حرارة. في الخارج: 37°في الظل ومحمية من الريح، و 55° في الشمس. |
| 10 | قبل الفجر | — | 21° | داخل كوخي وخارجه. |
| 12 | » | — | 36° | أقصى درجة حرارة. سماء صافية. |
| [213] 13 | بعد الظهر | — | 37° | أقصى درجة حرارة. ضباب خفيف من الشرق (E). قبل الفجر: 25° |
| 15 | » | — | » | سحب «رُكامية» (Cumulus) في الجنوب. «أول قطرات مطر». |
| 16 | » | — | 38° | أقصى درجة حرارة. رياح قوية وغبار بعد الظهر والمساء. |
| 17 | » | — | 33° | أقصى درجة حرارة. سماء مغشاة، رياح جنوبية. درجة الحرارة قبل الفجر:19.5° |

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
|---|---|---|---|---|
| 18 | ظهراً | — | 35° | درجة الحرارة قبل الفجر: 18.5° |
| 19 | « | — | 35° | أقصى درجة حرارة. ضباب غبار دون رياح. درجة الحرارة عند الفجر: 19° |
| 21 | « | — | 34° | أقصى درجة حرارة. سحب رُكامية قادمة من الجنوب الشرقي (S.E.). |
| 22 | « | — | 33° | أقصى درجة حرارة. رياح قوية جداً. سماء مغطاة بالسحب الرُكامية. بَرَد (إضاءة) في الغرب (W) والشمال (N). |
| 23 | « | — | 35° | في المساء، غيوم في الجنوب الشرقي. |
| 24 | « | — | 31° | أقصى درجة حرارة. ضباب غبار. «عواصف مفاجئة» من الجنوب الغربي (S.W.). |
| 25 | « | — | 33° | أقصى درجة حرارة. غيوم من الجنوب الغربي. |
| 26 | مساءً | — | 31° | سماء غائمة. رياح جنوبية غربية. |
| 27 | « | — | 33.5° | سماء صافية. |
| 28 | « | — | 37° | أقصى درجة حرارة. هدوء (Calme). |

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
|---|---|---|---|---|
| 30 | « | — | 35° | أقصى درجة حرارة. عواصف مفاجئة من الجنوب. غبار. درجة الحرارة قبل الفجر: $circ\^$24. |
| «مايو» | | | | |
| 2 | مساءً | — | 36° | بعض الغيوم. رياح جنوبية غربية. |
| 3 | « | — | 38.5° | أقصى درجة حرارة. هدوء. «أعاصير ترابية» (Trombes de poussière). |
| 4 | « | — | 39° | أقصى درجة حرارة. رياح جنوبية شرقية، ثم جنوبية. |
| 5 | « | — | 39° | أقصى درجة حرارة. |
| 6 | « | — | 37° | سحب رُكامية من الجنوب الغربي. «حرارة خانقة». |
| 7 | « | — | 36° | رياح قوية من الجنوب والجنوب الشرقي. |
| 8 | « | — | 37° | — |
| 9 | صباحاً | — | 38° | — |
| 11 | ظهراً | — | 37° | درجة الحرارة عند الفجر: $circ\^$23، وفي الخارج: $circ\^$20. |
| 12 | « | — | 38° | ضباب غبار. |
| 13 | « | — | 36.5° | — |

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
|---|---|---|---|---|
| 14 | « | — | 36.5° | رياح قوية جنوبية وجنوبية شرقية. أعاصير ترابية. |
| 15 | « | — | 37° | ضباب غبار. |
| 16 | « | — | 37° | «رياح حارقة» من الجنوب الشرقي. |
| [214] 17 | « | — | 38° | رياح شمالية شرقية مساءً. سحب رُكامية من الشمال الشمالي الغربي (N.N.W.). |
| 18 | « | — | « | سماء صافية. رياح جنوبية. |
| 20 | « | — | 39° | «عواصف عنيفة» من الجنوب الغربي والجنوب. |
| 21 | « | — | 36.5° | |
| 22 | « | — | 37° | درجة حرارة الرمل: «أكثر من 71°، حد تدريج مقياس الحرارة». |
| 23 | « | — | 35° | سماء مغشاة. رعد في الجنوب. |
| 24 | « | — | 37° | رياح وسحب رُكامية من الجنوب. بعض قطرات المطر. |
| 25 | « | — | 37° | رياح قوية من الجنوب الشرقي. |

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
| --- | --- | --- | --- | --- |
| 28 | « | باغزن (Baghzen) | 39° | درجة الحرارة في الظل، في الهواء الطلق، في تيارهواء. |
| 29 | | | | |
| 30 | « | — | 40° | مثله. ليلاً، عاصفة رعدية قادمة من الشرق (E)، قليل من المطر. |
| 31 | « | — | 39° | مطربعد الظهروالليل. |
| «يونيو» | | | | |
| 1 | « | أجيرا | 27° | درجة الحرارة أثناء المطر. عاصفة رعدية من الشرق. |
| 2 | ظهراً | — | 32° | سماء غائمة. مطربعد الظهرمن الجنوب الغربي (S.W). |
| 3 | عند الفجر | — | 22° | «ضباب كثيف». سماء مغطاة بالغيوم. |
| 4 | ظهراً | — | 32° | عند الفجر: 22°في الهواء الطلق. عاصفة رعدية ومطر بعد الظهر. |
| 5 | « | — | 34° | «حرارة خانقة». |
| 6 | « | — | 38° | |
| 7 | « | — | 36° | في المساء، عاصفة رعدية في الغرب (W). |
| 8 | « | — | 32° | سماء مغشاة، بعد الظهر، «دش مطرعنيف» من الغرب. |

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
|---|---|---|---|---|
| 9 | « | — | 32° | |
| 10 | « | — | 34° | سماء صافية. في المساء، غيمة من الغرب. |
| 11 | صباحاً | — | 35° | 34° في الهواء الطلق (رياح). |
| 12 | « | — | « | «دش مطر قصير وعنيف». تمطر في الجبل جنوباً. |
| 16 | « | — | 34° | حرارة خانقة، مطر خفيف مساءً. |
| 17 | ظهراً | — | 25° | طقس منعش بفضل «مطر غزير». |
| 18 | — | — | « | عاصفة رعدية في الشمال. |
| 19 | « | — | 36° | حرارة خانقة. |
| 20 | « | — | 37° | سماء صافية. عواصف مفاجئة من الجنوب. |
| 21 | « | — | 36° | عند غروب الشمس، «عاصفة رملية قوية» من الشرق (E). |
| [215] 22 | بعد الظهر | — | 34° | أقصى درجة حرارة. عند الظهر، قليل من المطر. |
| 23 | « | — | 35° | سماء صافية. |
| 24 | « | — | 36.5° | ضباب غبار. |

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
|---|---|---|---|---|
| 25 | « | — | \^$37.5 $circ | — |
| 26 | عند العشاء | — | 38° | عند الظهر، عاصفة رعدية من الشرق. مطر. |
| 27 | « | — | 40° | أقصى درجة حرارة. بعد الظهر، مطر من الشمال الشرقي (N.E) والجنوب (S). |
| 28 | « | — | 37° | رياح جنوبية. غبار. |
| 29 | « | — | 38° | — |
| 30 | ظهراً | — | 39° | عاصفة رملية قوية ليلاً. |
| «يوليو» | | | | |
| 1 | « | — | 36° | |
| 2 | « | — | 37° | |
| 3 | « | — | 37° | هبوب رياح قوية من الجنوب والشرق. |
| 4 | « | — | 36° | هبوب رياح قوية. سماء صافية. |
| 5 | « | — | 37° | — |
| 6 | « | — | 36° | رياح. سحب سمكية (Cirrus). |
| 7 | « | — | 36° | غيوم من الغرب (W). |
| 8 | « | — | 37° | |

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
|---|---|---|---|---|
| 23 | » | وادي وانكران | » | عاصفة رعدية ومطر. |
| 31 | » | تنتارودي (Tintarhodé) | » | عاصفة رعدية ومطر في الجنوب. |
| «أغسطس» | | | | |
| 1 | » | — | » | عاصفة رعدية ومطر. |
| 2 | » | — | » | عاصفة رعدية بعد الظهر، مطر غزير مساءً. |
| 4 | » | — | » | حرارة خانقة عند الظهر، عاصفة رعدية ومطر غزير بعد ذلك. |
| 6 | » | — | » | عاصفة رعدية عنيفة بعد الظهر. |
| 7 | » | — | » | مطر ليلاً. ضباب حتى الظهر. حرارة خانقة. |
| 11 | » | — | » | ضباب كثيف صباحاً. |
| 12 | » | — | » | عاصفة رملية من الجنوب الشرقي، قطرات مطر. |
| 21 | » | — | » | عاصفة رملية من الجنوب الشرقي. |
| 22 | » | — | » | مطر بعد الظهر. |
| 23 | » | — | » | — |

| التاريخ | التوقيت | الموقع | درجة الحرارة (مئوية) | الملاحظات الوصفية/ الجوية |
|---|---|---|---|---|
| 27 | » | — | » | حرارة خانقة، ثم عاصفة ومطر. |
| 28 | » | — | » | حرارة خانقة. درجة حرارة من الجنوب الشرقي. |
| 29 | » | — | » | رياح قوية من الشرق (E). |
| «سبتمبر» | | | | |
| 2 | » | — | » | قليل من المطربعد الظهر. |
| 3 | » | — | » | حرارة خانقة. عاصفة رعدية ومطر، بعد عاصفة رملية من الجنوب الشرقي. |
| 4 | » | — | » | مطر مساءً. |

# فهرس المصطلحات النباتية والحيوانية

| المصطلح (فرنسي) | الاسم الشائع/العلمي (إذا توفر) | رقم الصفحة/ الاصل الفرنسي |
|---|---|---|
| abesgui | الأَبِسغي (Salvadora persica) | 174, 206 |
| Acacia albida | الأكاسيا البيضاء | 177 |
| adjar | الأدجار (شجرة صحراوية) | 108, 111, 204 |
| adoua | | 102 |
| adoular | | 147 |
| afetazzen | | 42 |
| agolès | الأغولس (حيوان مفترس كبير) | 193, 194 |
| akoka | | 161 |
| alouad | | 109 |
| amateltel | | 63 |
| amderh | الأمدَرغ (اسم الزرافة المحلي) | 183 |
| ameo | | 104 |
| ana | | 54, 104 |
| Anastatica Hier. | نبات كف مريم | 43 |
| Arenkad | | 55 |
| Arthratherum pungens | عشب (منجلية) | 41, 109 |
| Atriplex halimus | الرغل الملحي | 42 |
| Aza | | 170 |
| Balanites aegyptiaca | الهجليج / الإبوراك | 102 |

| المصطلح (فرنسي) | الاسم الشائع/العلمي (إذا توفر) | رقم الصفحة/ الاصل الفرنسي |
|---|---|---|
| brambach | البرومباخ (Calotropis procera) | 206 ,25 |
| Calotropis procera | البرومباخ / العُشَر | 206 ,111 ,25 |
| Cassia obovata | كاسيا بيضوية | 105 |
| cheggaa | | 98 |
| chobrom ou chebrek | | 42 |
| Corbicula fluminalis | صدفية المياه العذبة | 25 |
| Cornulaca monacantha | | 100 |
| damousa | | 193 |
| djemda | | 98 |
| doum | الدوم (النخيل) | 205 |
| drine | | 109 |
| el-hichen | | 35 |
| ellel | | 51 |
| éthel | الأثل (Tamarix) | 103 |
| Euphorbia calyptrata | الـ إيفوربيا مغطاة | 107 |
| Fagonia arabica | الـ فاجونيا العربية | 78 |
| faraoun | نخيل فرعون | 205 ,174 ,145 |
| foul-el-djemel | فول الجمل | 109 |
| ganga | | 43 |
| had | | 100 |
| hadjilidj | الهجليج | 162 ,102 |
| keroukerou | | 109 |

| المصطلح (فرنسي) | الاسم الشائع/العلمي (إذا توفر) | رقم الصفحة/ الاصل الفرنسي |
|---|---|---|
| Leptadenia pyrotechnica | اللبتادينيا | 104 ,54 |
| Limnea | حلزونيات مائية | 25 |
| Loranthus | اللورانثوس (نبات طفيلي) | 204 |
| Maerua rigida | الميروا الصلبة | 145 ,109 ,108 |
| Melania tuberculata | حلزونيات مائية | 25 |
| Moricandia suffruticosa | | 109 |
| okoua | | 147 |
| oum-el-leben | أم اللبن | 107 ,103 |
| ourked | | 149 |
| Physa | حلزونيات مائية | 25 |
| Planorbis | حلزونيات مائية | 25 |
| Pulicaria undulata | البوليكاريا المتموجة | 104 |
| Rhus dioïca | | 99 ,46 |
| Salvadora persica | الأَبِسغي | 206 ,112 |
| sbot | | 109 |
| Senecio coronopifolius | نبتة الشِّيْخ | 150 |
| Solanum [218] sodomaeum | الـسولانوم (تفاح سدوم) | 163 |
| Stapelia | الستابيليا (نبات شبيه بالصبار) | 208 ,147 ,120 |
| Succinea | حلزونيات مائية | 25 |
| tabaket | | 120 |

| المصطلح (فرنسي) | الاسم الشائع/العلمي (إذا توفر) | رقم الصفحة/ الاصل الفرنسي |
|---|---|---|
| tachelt | | 167 |
| tadegra | | 150 |
| tadjdjart ou tegart | | 150 |
| tadomt | التادوميت (نبات قبارية) | 150, 205 |
| talha | الطلحة (شجر الصمغ/السنط) | 99, 102, 104, 109, 150, 204 |
| Tamarix | الأثل | 40, 64, 94 |
| tamat | | 150, 161 |
| tanedfert | | 41 |
| tarakat ou terakat | | 161, 170 |
| tarhalam | | 150 |
| teborak | التبوراك (أنثى الإبوراك) | 102, 204 |
| tefah | | 163 |
| tehak | | 51 |
| tehonak | | 46 |
| telokat | | 54, 63 |
| temoulet | | 145, 161 |
| tirhès | التيرهس (حيوان مفترس كبير) | 193 |
| toreha | | 25 |
| toullout | | 103 |
| tountafia | التونتفيا (شجيرة سياج) | 183, 186 |
| Zilla macroptera | الـزيلا ماكروبترا | 42 |
| Zizyphus Lotus | السدر | 120, 205 |

| المصطلح (فرنسي) | الاسم الشائع/العلمي (إذا توفر) | رقم الصفحة/ الاصل الفرنسي |
|---|---|---|
| Aouélimiden | قبيلة توارق (كبيرة) | 26, 30, 38, 71, 81, 125, 129, 131, 152, 159, 162, 172, 178 |
| Aoulad-Sliman | قبيلة عربية | 127, 168 |
| Aourer (mont) | جبل | 115 |
| Arikine | | 97 |
| Ascherson | شخص (بروفيسور) | 54 |
| Attanoux | | 38 |
| Baghzen (mont) | جبل/مضيق | 116, 126, 147, 163 |
| Barth | شخص (رحالة) | 26, 81, 92, 105, 109, 112 |
| Bendaï (mont) | جبل | 115 |
| Berabich, Berabra | قبيلة | 160 |
| Bernard (Ct) | شخص (القائد) | 72 |
| Bilkhou (Hadj) | شيخ/زعيم | 127, 188, إلخ. |
| Bilma | واحة | 142, 184 |
| Bou-Bekr | انظر Eg-Bekr | |
| Dider | موقع | 21 |
| Djémia | موقع/قرية | 175 |
| Djerma | موقع | 192 |
| Dournaux-Dupéré | شخص | 22 |
| Duveyrier | شخص (رحالة) | 25, 28, 30, 33, 51, 54 |

| المصطلح (فرنسي) | الاسم الشائع/العلمي (إذا توفر) | رقم الصفحة/ الاصل الفرنسي |
|---|---|---|
| Eg-Bekr (le cheikh) | شيخ/زعيم | 23, 26, 27, 28, 30, 35, 69, 78, 79, 86, 91 |
| Eguéchine (dunes) | كثبان رملية | 100 |
| Errouïne (mont) | جبل | 53, 198 |
| Etakhès (mont) | جبل | 39 |
| Fezzan | منطقة | 75 |
| Foureau | شخص (رحالة) | 17, 24, 25, 27, 55, 60, 89 |
| Garamantes | الغرامنتيون (قدماء) | 153 |
| Ghadamès | مدينة/واحة | 18, 75 |
| Gober | | 129 |
| Hadj el-Amin | شخص (الحاج الأمين) | 15 |
| Hadj Iata | شيخ/مضيف | 178, 190 |
| Hoggar | قبيلة توارق (الهقار) | 23, 26, 38, 48, 58, 88, 130, 178, 189 |
| Ibakammazen [220] | قبيلة | 28 |
| Ifaden | قبيلة | 111 |
| Ifoghas | قبيلة | 22, 160, 187 |
| Ihadjenen | قبيلة | 28 |
| Ihadanaren | قبيلة | 70, 129 |
| Ikanaren | | 40 |
| Ikhenoukhen | موقع/قبيلة | 18, 20, 23, 33, 34, 73 |

| رقم الصفحة/ الاصل الفرنسي | الاسم الشائع/العلمي (إذا توفر) | المصطلح (فرنسي) |
|---|---|---|
| 197 ,49 | جبل | (Ikohaouen (mont |
| 21 | قبيلة | Imanan |
| 32 ,23 ,20 | قبيلة | Imanghasaten |
| 29 | قبيلة | Imekamesan |
| 41 | قبيلة | Imetrilalen |
| 184 ,40 ,38 | طبقة (النبلاء) | Imocharh |
| ,66 ,40 ,38 184 ,180 | طبقة (التبَع/العبيد البيض) | Imrhad |
| 172 ,152 | مدينة | Ingal |
| 74 | واحة | In-Salah |
| 159 | قبيلة | Iwarwaren |
| 142 ,32 | منطقة | Kaouar |
| 182 ,176 | قبيلة | Kel-Djemia |
| 160 | قبيلة | Kel-Eidilet |
| ,159 ,124 ,45 189 ,166 ,162 | قبيلة | Kel-Fadé |
| 186 | قبيلة | Kel-Ferouan |
| 172 ,167 ,138 | قبيلة | Kel-Guérès |
| 28 | قبيلة | Kel-Rhapsa |
| 189 ,171 | قبيلة | Kel-Rhezer |
| 29 ,28 | قبيلة | Kel-Telak |
| 23 | | Khetama |
| 34 | جبل | (Kokoumen (mont |
| 172 | منطقة/مدينة | Maradé |
| 100 | جبل | (Mariaou (mont |

| المصطلح (فرنسي) | الاسم الشائع/العلمي (إذا توفر) | رقم الصفحة/ الاصل الفرنسي |
|---|---|---|
| Méchagra | قبيلة عربية | 190 ,181 |
| Mégarha | قبيلة | 72 |
| Mouley-Taïeb | شخص (مولاي الطيب) | 77 ,74 |
| Nachtigal | شخص (رحالة) | 30 |
| Oraghen | قبيلة | 21 |
| (Ouaderous (mont | جبل | 50 |
| (Oudân (mont | جبل | 30 ,27 |
| Oued Adamouline | وادي | 52 |
| Ahanaret —— | وادي | 40 |
| Arokam —— | وادي | 102 |
| Edjef-n-amouni —— | وادي | 64 |
| Ezeti —— | وادي | 98 |
| Ezelil —— | وادي | 177 |
| Falezlez —— | وادي | 185 ,141 ,100 |
| Igharghar-Mellen —— | وادي | 62 ,52 |
| Immider —— | وادي | 108 |
| Inessan —— | وادي | 198 ,45 |
| Ireren —— | وادي | 51 |
| Isseyen —— | وادي | 94 |
| Katelet —— | وادي | 105 |
| Mihero —— | وادي | 198 ,82 ,54 |
| Nasaret —— | وادي | 62 ,54 |
| Ouadersine —— | وادي | 52 |
| Ounankerane —— | وادي | 177 |
| Rhallé —— | وادي | 39 |

| المصطلح (فرنسي) | الاسم الشائع/العلمي (إذا توفر) | رقم الصفحة/ الاصل الفرنسي |
|---|---|---|
| Tadonet — | وادي | 105 |
| Tafelamine — | وادي | 53, 54 |
| Taffassasset — | وادي | 168 |
| Taherhaït — | وادي | 42 |
| Tanesso — | وادي | 39 |
| Tehennet — | وادي | 64 |
| Telak ou Talak — | وادي | 129, 190 |
| Terhezer — | وادي | 175 |
| Tesorar — | وادي | 62 |
| Tifergasine — | وادي | 46 |
| Tiout — | وادي | 109 |
| Touffok — | وادي | 102, 105 |
| Tounikanaham — | وادي | 98 |
| Zibel — | وادي | 108 |
| Oufenaït | موقع/بئر | 32, 66, 89 |
| Overweg | شخص (رحالة) | 27 |
| Rapsa | قبيلة | 28 |
| Rhezer | | 171 |
| Richardson | شخص (رحالة) | 17, 20, 130 |
| Safi | شخص (الحاج صافي) | 15, 31, 32, 70, إلخ. |
| Senousiya | الحركة السنوسية | 74, 77 |
| Sokoto | مدينة/سلطنة | 179 |
| Tadera | موقع | 108 |
| Tadrart | سلسلة جبال | 42, 198 |

| المصطلح (فرنسي) | الاسم الشائع/العلمي (إذا توفر) | رقم الصفحة/ الاصل الفرنسي |
|---|---|---|
| Taïtoq | قبيلة | 69, 130, 191 |
| Takedda [221] | مدينة تاريخية | 152 |
| Tarhel | | 174 |
| Tasili | منطقة جبلية | 39, 50, 65, 96 |
| Tebous, Tibbous | قبيلة (التبو) | 32 |
| Tekindouhir, Tekindjir | موقع | 121, 137, 169 |
| (Telout (mont | جبل | 40 |
| Tiguedda | مدينة تاريخية | 152 |
| (Timgué (mont | جبل | 178 |
| Tin-el-Koum | موقع | 153 |
| Tintarhodé | قرية | 177, 189 |
| (Tignoutine (mont | جبل | 107 |
| (Tinkeradet (mont | جبل | 107, 153 |
| (Tinné (Mlle | شخص (الآنسة) | 23, 30 |
| Tintorha | موقع | 44, 66 |
| (Tisga (mont | جبل | 99 |
| Titersine | موقع | 40, 41 |
| Touât | واحة/منطقة | 24 |
| Toufik | مرابط | 72 |
| Tounine | موقع | 15, 24 |
| Zinder | مدينة | 149 |

........................................................................

## ملاحظات

[1] نُشر عام 1880 في نفس المجموعة، المجلد الخامس عشر.

[2] انظر ألف. دي باري، ملاحظة جينية وتاريخية عن عائلة دي باري، in-8، كولمار، 1877.

[3] أدين برسالة من السيد آرثر دي باري، القنصل العام لألمانيا في تونس، بالتفاصيل السابقة حول مسيرة أخيه المهنية قبل استكشافه. أرجو منه قبول خالص امتناني لكرمه في إبلاغي بهذه المعلومات.

[4] تونين هي قرية للتوارق، حديثة التأسيس (دوفيرييه)، تقع بالقرب من غات. لمعرفة المزيد عن سكانها، انظر لاحقًا ص 24.

[5] كان الابن الأصغر لتاجر ثري من توات وشقيق آخر سلطان بربري لغات. لقد أجبر شقيقه الأكبر، الوريث الشرعي، على التنازل له عن قيادة المدينة، وكان يعمل في عام 1861 على تسليمها للأتراك لتوطيد اغتصابه. كان بطبيعة الحال زعيم الحزب المناهض لفرنسا. (دوفيرييه، توارق الشمال، ص 273).

[6] بعد شهرين، كان دي باري قد تراجع عن انطباعه الأولي. انظر لاحقًا ما قاله عن ضعف السلطة التركية.

[7] ترك لنا ريتشاردسون (رحلات في الصحراء الكبرى، لندن، 1848، مجلد الأول) صورة حية للغاية لحياة غات في تلك الحقبة.

[8] كان هذا الإجراء مصدر خلافات لا تنتهي بين التوارق والأتراك، وانتهى الأمر بانتصار التوارق. في عام 1894، قال التوارق للسيد فورو: «لقد حاربنا لأن الأتراك كانوا يدّعون منعنا من دخول المدينة بأسلحة، وكنا المنتصرين. وسنكون كذلك مرة أخرى، إذا لزم الأمر». (فورو، مهمتي إلى الصحراء، 1893-1894، ص 214).

[9] يتعلق الأمر بـ «ثالر ماريا تيريزا»، الذي كان في السابق العملة الوحيدة المتداولة في السودان. منذ احتلال تمبكتو، يفسح المجال لقطعتنا ذات

الخمسة فرنكات.

[10] كان القائد ميرشير قد نشر بالفعل نفس المعلومات (مهمة غدامس ص 52).

[11] قبائل كل-وي تملك القدرة على قطع أي تجارة بين غدامس وغات وسوكوتو، من خلال حظر المرور عبر واحة آيير الخاصة بهم. ومن هنا جاء هذا الامتياز الذي يتمتعون به في غات.

[12] لم يتحقق هذا التوقع. حتى اليوم، لا يدفع التوارق أي ضريبة.

[13] هنا، أخذ دي باري حرفياً ما كان بلا شك مجرد استعراض للقوة من جانب الأزجر. لم يقم أهيتاغل بجمعهم تحت قيادته لاحقاً أبداً.

[14] إنه اسم عائلة من الزعماء السياسيين والدينيين، الذين حكموا كملوك إقطاعيين على توارق الأزجر وتوارق الهقار قبل قرنين. بعد أن أطاحت بهم قبيلة الأوراغن (قبيلة إخنوخن)، لم يعد الإيمانان يشكلون اليوم سوى أصغر قبيلة نبيلة من الأزجر. حتى في زمن دوفيرييه، لم يكن لهذه العائلة سوى خمسة ممثلين ذكور. (دوفيرييه، توارق الشمال، ص 346).

[15] هذا ليس دقيقًا تمامًا. كان دورنو-دوبيريه وجوبرت قد تجاوزا حمادة تينغرت بالفعل؛ قُتلا جنوب وادي أوهانت، على الطريق الذي اتبعه دوفيرييه سابقًا، لحظة دخولهما منطقة كثبان إيديين. انظر على وجه الخصوص النسخة الأكثر دقة، التي قدمها الأب ريتشارد، رحلة في ديار توارق الأزجر (البعثات الكاثوليكية، يناير، يوليو 1881، مجلد الثالث عشر، ص 161).

[16] وفقًا للأب ريتشارد، كان المهاجمون من الشّعّانبة المنشقين. على أي حال، يظل تواطؤ مرشدي الإيفوغاس مؤكدًا بوضوح: «مرشدو الإيفوغاس الثلاثة، يقول الأب ريتشارد، استداروا بجميع الجمال وابتعدوا، تاركين المسيحيين وحدهما مع غارة بوعيسى. تم القبض على دورنو-دوبيريه وجوبرت على الفور... ثم اقترب الإيفوغاس والشّعّانبة، وتم تقسيم الغنائم على الفور».

[17] يشير المؤلف إلى الوضع السياسي الذي كشف عنه دورنو-دوبيريه

(رسالة إلى هـ دوفيرييه، نشرة جمعية جغرافية باريس، 1874، الثاني، ص 161). تحالف معظم الإيفوغاس مع قبيلة الإيمانغاساتن التي كانت آنذاك في حالة حرب مع إخنوخن. كان ختاما زعيم الإيمانغاساتن، وعدو إخنوخن، الذي حاول عبثًا أن يفرض نفسه على دورنو-دوبيريه كحامٍ وأن يحرفه عن مساره، فتركه مطلقًا التهديدات. باختصار، تؤكد رواية التوارق استنتاجات دوفيرييه عام 1894: مات دورنو-دوبيريه ضحية لغيرة أعداء إخنوخن، الذي كان من المفترض أن يستفيد من مرور القافلة الفرنسية.

[18] انظر لاحقًا حول هذه الشخصية، ص 26، 28 و30.

[19] في عام 1890، قدر السيد فورو قوة الهقار بـ 1200 رجل (مهمة في تادميت، ص 92).

[20] لا يزال هذا التأثير لشرفاء توات محسوسًا لدى الأزجر. «هؤلاء المرابطون، كتب السيد فورو في عام 1894، مثقفون إلى حد ما، وغالبًا ما يكونون أذكياء جدًا؛ إنهم سكرتيرو ومستشارو الزعماء؛ لا يفوتون أي فرصة لإحياء التعصب الخامد لدى التوارق، من خلال الوعظ لهم بكراهية الكافر بشكل عام والمسيحي بشكل خاص. هم في الغالب عملاء سريون لحكومة المغرب، التي كانت منذ بعض الوقت على اتصال مستمر ومباشر بزعماء الأهقار، وحتى مع زعماء الفصائل الأخرى». (مهمة في ديار التوارق، من أكتوبر 1894 إلى مايو 1895، ص 162).

[22] وفقًا لأشرسون، يشير هذا الاسم إلى نبات «الحرجل (Calotropis Procera R. Br.)»، والذي يُسمى أيضًا «طورحا» من قبل التوارق، وهو نبات سلقي (Asclepiadaceae) يميز السودان الشمالي، ويوجد في الصحراء حتى مزاب وطرابلس (نباتات شمال إفريقيا الوسطى، في رولفس، كفرة، ص 483).

[23] لا شك أن هناك خطأ في النسخ؛ فقد كُتب دفتر اليومية في الأصل بالاختزال (الطباعة السريعة). من الواضح أن إروين دي باري يشير إلى نوع معروف. وفقًا للسيد لوكار، الذي عرضنا عليه الحالة، لا يمكن أن يكون

سوى «ميلانيا تيوبركولاتا (Melania tuberculata Müller)»، المنتشر في جميع أنحاء جنوب آسيا وشمال إفريقيا المتوسطية من مصر حتى المغرب. في الصحراء، كان قد أُشير إليه حتى الآن من قبل دوفيرييه في واحة «مرير» قرب «توقرت»، ومن قبل الدكتور ماري في «نغوسا» (بورغينيا، علم الرخويات في الجزائر، الثاني، ص 253). ويبدو تصحيح السيد لوكار مبررًا أكثر، خاصة بعد أن وجد السيد فورو مؤخرًا في «إرغ إيساوان»، شمال غرب غات، الكثبان الرملية والودائع الرباعية الحديثة مليئة بأصداف شبه أحفورية من ميلانيا تيوبركولاتا مصحوبة بـ «بلانوربيس (Planorbis)»، و«ليمنيا (Limnea)»، و«فيسا (Physa)»، و«كوربيكولا فلومينااليس (Corbicula fluminalis)»، و«سوكسينيا (Succinea)» (تقرير عن مهمتي إلى الصحراء، 1893-1894، ص 159، 156، 153، 67، إلخ). هذه الملاحظات، بالإضافة إلى تلك المماثلة التي قام بها السيد فورو في منطقة تيماسنين وإرغ قسنطينة والسيد فلامان في إرغ وهران، هي دليل إضافي ضد فرضية البحر الصحراوي الرباعي وتُعطي لملاحظة إروين دي باري معناها الحقيقي. إنها تشير إلى بقاء ممثلين لحياة مائية عذبة رباعية في الصحراء الوسطى، والتي امتدت، بفضل النظام المائي المميز لجزء من تلك الفترة، من الأطلس حتى الطاسيلي، وربما حتى جنوب الصحراء.

[24] لا يتفق هذا الرقم تمامًا مع رقم الستة وسبعين عامًا الذي نسبه دوفيرييه للأمير في عام 1861. من المفهوم أنه من الصعب تحديد العمر الدقيق لهؤلاء البدو.

[25] انظر لاحقًا، ص 28.

[26] تتفق هذه المعلومة مع معلومات بارت.

[27] كان بيريش قد أشار إليها بالفعل بين الأحافير التي جمعها أوفرفيغ، بين مرزوق وغات (Zeitsch. deutsch. Geol. Gesellsch., IV, 1852). في الشمال، وجد السيد فورو سيقان «الكريونويدات (crinoids)» بأعداد كبيرة في منطقة كثبان إيساوان وهضبة إيغويلي، بين خطي عرض 27 و28 درجة شمالًا (تقرير

عن مهمتي إلى الصحراء، 1893-1894، ص 233 وما يليها).

[28] جبل الأهقار، يقع شمال تيفيدست، على إيغرغار العلوي (خريطة دوفيرييه).

[29] هذه هي حالة جميع الواحات المروية جيدًا تقريبًا. لخصنا في مكان آخر ما هو معروف عن الظروف الصحية للصحراء (الصحراء، باريس، 1893، الفصل الثالث عشر).

[30] انظر لاحقًا، عن هوية هذه الشخصية، ص 30.

[31] التاجر الطرابلسي الذي أحضر دي باري إلى غات.

[32] يقدم دوفيرييه نسخة مختلفة قليلاً. وفقًا لمخبره، يُقال إن غات تأسست، قبل أربعة أو خمسة قرون، من قبل «إيهادجينان»، بمساعدة «كل-رابساء»، و«كل-تارات»، و«كل-تيلاك»، و«إيباكامازين» (توارق الشمال، ص 267).

[33] ربط دوفيرييه اسم «كل-رابساء (أهل رابسا)» بحصن «رابسا» الذي ذكره بليني، من بين المدن الصحراوية التي انتصر عليها الجنرال كورنيليوس بالبوس. يمكننا أن نشير لدعم هذه الفرضية إلى مصادفة غريبة. نقرأ في قاموس إتيان البيزنطي: «إيستوس، جزيرة في ليبيا، يسميها الإغريق أودينوي، والفينيقيون كيلا-رافساط». لم يتم العثور على جزيرة إيستوس هذه على سواحل إفريقيا، ولم يتمكن أي معلق من شرح اسم «كيلا-رافساط»، الذي لا علاقة له بلغة الفينيقيين. من المؤكد أننا أمام معلومة من مصدر بعيد، نُقلت بشكل غير دقيق: اسم «كيلا-رافساط» هو الاسم العرقي لقبيلة بربرية، وتشير كلمة نيسوس (νῆσος) لا إلى جزيرة، بل إلى واحة في الصحراء.

[34] يتعلق الأمر بقافلة السيد لارجو.

[35] إشارة إلى التحقيق الذي أجراه نايتغال في مرزوق بعد مقتل الآنسة تيني، والذي نسب اسم «الحاج-الشيخ» إلى قائد مرافقة التوارق. انظر أيضًا دوفيرييه، إفريقيا التأبينية (نشرة الجمعية الجغرافية بباريس، الثامن،

1874). في الواقع، كان اسم هذه الشخصية، وهو قريب لإخنوخن، هو «الشيخ بوبكر» أو «إج-بكر» (إج تعني ابن في التارقية، مثل بو في العربية)؛ ولكن كان يُطلق عليه غالبًا في غات «الشيخ» اختصارًا. إروين دي باري، الذي تعامل معه، استخدم أيًا من هذين المصطلحين.

[36] انظر أعلاه، ص 20.

[37] بين المسلمين المشككين في تافيلالت، لم ينج رولفس من زيارة مماثلة، ولم يَدِن بحياته إلا لآثار عملية جراحية خضع لها سابقًا.

[38] عالم لاهوت شهير من القرن التاسع الميلادي، مجموعته من الأحكام معروفة جدًا في العالم الإسلامي.

[39] يتعلق الأمر بـ «التبو» المتهجّنين مع الزنوج، مثل أولئك الذين في واحة كاوار.

[40] زعيم آخر لقبيلة الإيمانغاساتن. خلال رحلات السيد فورو الأخيرة، كان أحد الزعماء المعادين الذين لم يرغبوا في أي اتصال بالمستكشف الفرنسي. وفي رسالة مكتوبة في أجيغو (آيير)، رسم إروين دي باري له الصورة التالية، والتي من المثير للاهتمام إعادة إنتاجها: «إنه نموذج للنبيل التارقي. بشرته بيضاء جدًا، يتمتع بقوة استثنائية، وصوت مدوٍّ، لدرجة أن صوته الجهوري، حتى في المحادثة، أدهشني. عند أدنى انفعال، تضيء عيناه السوداوان، ويمكن للمرء أن يخمن أنفه المعقوف تحت «اللثام». إنه عنيف وحساس، لذا فليس من السهل التعامل معه. قال لي عثمان أيضًا: «أوفينايت» له مظهر أسد، ولكن قلب طفل. - وهذا يعني: راعِ كبرياءه وطموحه، وستكسبه بسهولة. رأيت لاحقًا أن عثمان كان محقًا».

[41] حق المرور.

[42] كان ذلك عام 1876. إنه مثال غير عادي بالتأكيد، لهذا الزعيم البدوي العجوز، الذي كان من أعماق صحرائه، مطلعًا على وضع أوروبا، و«تحدث كثيرًا» عن الفرنسيين، هو الذي لم يرَ منهم أحدًا منذ خمسة عشر عامًا! من

المؤكد أن دوفيرييه، بأسلوبه الكريم والفروسي، ترك انطباعًا عميقًا لدى الأمير، ومهما كانت أدلة الازدواجية التي قدمها لنا التوارق، فليس لدينا سبب للاعتقاد بأن إخنوخن لم يظل مخلصًا لنا حتى النهاية. فمصلحته كانت تضمن لنا صدق مشاعره، حيث كان من المفترض أن تعود الضرائب التي تدفعها القوافل الفرنسية، وفقًا لمعاهدة غدامس، بالنفع عليه وحده. هكذا يمكن أيضًا تفسير موقفه شبه العدائي تجاه إروين دي باري، الذي كان، على الرغم من تقديمه نفسه كطبيب مسلم، محميًا للإيمانغاساتن. لسوء الحظ، لم تعد سلطة إخنوخن مقبولة بلا منازع، وكانت قبيلتا الإيمانغاساتن والإيفوغاس في حالة تمرد مفتوح، ومات دورنو-دوبيريه ضحية لهذه المنافسات بين قبائل الأزجر.

[43] نبات غير محدد.

[44] لاحظ ذلك أكثر من مسافر أوروبي. لقد كان الإمغاد هم الذين هددوا، على سبيل المثال، بعثة أتانوكس في عام 1894 ووضعوها في موقف حرج.

[45] هناك سبب آخر: كما يلاحظ السيد فورو، يأخذ النبلاء من الإمغاد ما يرونه مناسبًا لهم، وهؤلاء يعوضون أنفسهم على حساب المارة (تقرير عن مهمتي إلى الصحراء، 1893-1894، ص 261).

[46] انظر دوفيرييه، توارق الشمال، ص 165.

[47] باللغة العربية «شبرك» أو «شبروم»، وبالتارقية «أفاتازان» (فورو، محاولة فهرسة للأسماء العربية أو البربرية، إلخ، ص 13). هذه هي أقصى نقطة جنوبية لُوحظ فيها هذا النبات الصليبي حتى الآن.

[48] الأتريبلكس هاليماس («Atriplex halimus»). هذا النبات الملحي مرغوب جدًا من قبل الجمال.

[49] إنها مصنوعة عمومًا من جلد الظباء، ومعظمها يأتي من آيير.

[50] لا يغطّي جميع التوارق رؤوسهم بالطريقة نفسها. يشير دي باري لاحقًا إلى عادة قديمة استمرت لدى «كل-فادي» من آيير ولدى جزء من «إيفوغاس»

من جنوب الصحراء.

[51] كان دوفيرييه قد أشار بالفعل إلى الاحتمال القوي لتطابق نبات «الدفلى» مع الشجيرة التي يسميها التوارق «إيلال» (ص 212). تؤكد ملاحظة إروين دي باري وجود مجموعة نباتية متوسطية صغيرة في الأجزاء المرتفعة من بلاد التوارق، والتي تشمل بلا شك «الآس» و«العرعر».

[52] يقدم التقرير هنا سلسلة من الإشارات الطبوغرافية لإنشاء خط السير.

[53] يأخذ هنا اسم «وادي تافلامين».

[54] حدد أشرسون نبات «الأنا» بـ «لبتادينيا بيروتكنيكا (Leptadenia pyrotechnica)» (نباتات السلقية). (نباتات شمال إفريقيا الوسطى، في رولفس، كفرة، ص 484).

[55] انظر لاحقًا، ص 63.

[56] نبات غير محدد.

[57] انظر في ف. فورو، تقرير عن مهمتي إلى الصحراء 1893-1894، ص 133، جدول الجزء السفلي من «وادي ميهيرو». الوصفان يكملان بعضهما البعض بشكل جيد.

[58] «السلام! السلام!».

[59] سيكون قتل امرأة عارًا على التوارق، ولن يجرؤ عليه الهقار أنفسهم. هذا ما يفسر إرسال الراعي لزوجته بينما وضع هو نفسه في مأمن.

[60] وجد السيد فورو بركة مياه حتى في «وادي ميهيرو» السفلي. يقال إن الوادي يصبح غير سالك بعد المطر. (المرجع المذكور، ص 130).

[61] بما أن إروين دي باري درس العلوم الطبيعية، يمكن اعتبار الملاحظة مؤكدة. «وادي ميهيرو» هو النقطة الوحيدة حتى الآن التي أُشير فيها إلى بقاء «التمساح» في المساحة الشاسعة التي تفصل النيل عن منحنى النيجر. ومن المعروف أنه اختفى أيضًا من بلاد الأطلس.

[62] منذ ذلك الوقت، لم يرَ أوروبي واحد «وادي ميهيرو» مجددًا: إنه السيد فيرناند فورو. لسوء الحظ، أوقفه في مسيرته، على بعد يومين شمال «السباربره»، تارقي متعصب، مالك المرعى، الذي منعه من الذهاب أبعد من ذلك. (تقرير عن مهمتي إلى الصحراء، 1893-1894، ص 134).

[63] لا ينبغي الاستدلال من هذه التعابير الإعجابية على أن أودية التوارق هذه هي أراضٍ صالحة للاستعمار وتوفر لمستعمرينا مساحات شاسعة قابلة للزراعة. في الصحراء كل شيء نسبي، وأودية الطاسيلي، التي تجتاحها بين الحين والآخر فيضانات سيولية، تجعلها غير سالكة، تشكل قطعًا قابلة للزراعة بائسة ولا تذكر في وسط شاسع الصحراء القاحلة والتي لا يمكن الوصول إليها. وكما قيل، هي مناطق «يمكن عبورها، ولكن لا يمكن استغلالها». (فورو، تقرير عن مهمتي إلى الصحراء، 1893-1894، ص 13).

[64] نبات غير محدد. هذا الاسم لا يظهر في فهرس الأسماء العربية والبربرية المتعلقة بالنباتات الصحراوية الذي نشره السيد فورو مؤخرًا.

[65] لا يجب أن نتفاجأ من هذا الوصف المطبق على توارق من طبقة النبلاء. لدى الأزجر، يوجد عدد قليل جدًا من الأثرياء بين النبلاء؛ فـ«الإمغاد (الأتباع)» هم من يملكون. (فورو، مهمة في ديار التوارق، 1894-1895، ص 74).

[66] من المعروف أن توارق «تايتوق (أو توارق الأهنّت)» الذين أُسروا في عام 1888 ادعوا أنهم جزء من اتحاد مستقل عن الهقار، ولكن يمكن التشكيك في صدقهم (انظر بيسويل، توارق الغرب، الجزائر، 1888). يثبت هذا، على أي حال، أنه في عام 1876 كان التايتوق لا يزالون يُعتبرون ضمن الهقار.

[67] قبيلة أزجرية.

[68] كان في الواقع «مرابط» من آيير، يُدعى «توفيق»، وسيُذكر لاحقًا.

[69] يبدو هذا تفاخرًا، بالنظر إلى ما حدث لاحقًا. في عام 1894، «توغلت «غزوة (رهيزي)» من 70 من التبو في قرية «تادرامت»، على بعد 800 متر من غات، وقتلت ثلاثة رجال هناك؛ ثم سرقت حوالي خمسين جملًا من قافلة

مخيمة تحت أسوار المدينة، وغادرت بهدوء دون أن تحرك الحامية التركية ساكنًا؛ ويبدو أن هذه الحامية تتصرف دائمًا على هذا النحو». (فورو، مهمة في ديار التوارق، 1894-1895، ص 76).

[70] تلك التي قام بها «المقارحة» من وادي الشاطئ، والتي ألحقت بالهقار هزيمة ملموسة بالقرب من جبل تيفيدست.

[71] كانت هناك بالفعل إشارة ثمينة، كان يمكن للعقيد فلاترز الاستفادة منها. يوصي القائد برنارد، عضو بعثة فلاترز الأولى، أيضًا بإضافة حوالي ثلاثين حصانًا كأحد الإجراءات الأكثر فعالية لضمان نجاح مهمة عبر الصحراء (بعثتان فرنسيتان في ديار التوارق، الجزائر، 1896، ص 327). يجب ألا ننسى أن جمال التوارق، غير المعتادة على الخيول، تظهر خوفًا كبيرًا عند رؤيتها.

[72] «كل-وي» من آيير هم توارق ذوو بشرة داكنة جدًا نتيجة لزيجاتهم العديدة من نساء زنجيات.

[73] يظهر هذا العرض الغريب بوضوح نوع المعارضة التي واجهها التغلغل الفرنسي لدى بعض قبائل الأزجر. كان في المقام الأول استياءً من رؤية مصدر دخل جديد يزيد من قوة زعيم حزب منافس. لقد أثارت اتفاقية غدامس الغيرة. كان يمكن أن يصبح الإيمانغاساتن، المعادون الشرسون لفرنسا، أكثر سهولة لو كان لديهم أمل في الحصول على حقوق المرور المخصصة للأمير.

[74] 500 فرنك. هذا هو المبلغ الذي دفعه دوفيرييه والسيد فورو.

[75] شيخ زاوية «تونين». لا يجب الخلط بين هذه الشخصية والشريف العربي «مولاي المهدي»، مرابط التيجانية، الذي تعامل معه السيد فورو في عام 1895، والذي أظهر له موقفًا وديًا للغاية.

[76] كان «عبد القادر ولد باجودة» شيخ قبيلة «أولاد باحمو» العربية. طوال حياته، كان عدوًا للنفوذ الفرنسي. ورث ابنه كراهيته.

[77] دورنو-دوبيريه وجوبرت. كتب إ. دي باري لاحقًا: «كما علمت من مصدر موثوق، كان الجميع يعلم في غدامس أن هؤلاء المسافرين سائرون إلى الموت.

لم تخطر ببال أي من هؤلاء التجار الغيورين على احتكارهم فكرة تحذيرهم. بشكل عام، يجب على الفرنسيين أن يقتنعوا جيدًا بأنه ليس لديهم، في محاولاتهم التجارية، خصوم أكثر ضراوة من هؤلاء الغدامسيين المخادعين والمهذبين. ستفشل جميع الجهود المبذولة في هذا الاتجاه طالما لم تلجأ فرنسا إلى تدابير أكثر حزمًا». (رسالة بتاريخ 1 أبريل 1877، Verhandlungen للجمعية الجغرافية ببرلين، 1877، ص 248).

[78] من المرجح أن المرابط لم يرغب في إخباره بهذه النقطة. من الصعب للغاية الحصول على تفاصيل حول الانتشار الحقيقي للجمعيات الدينية المختلفة؛ كما سنرى لاحقًا، تهرب أصدقاء إروين دي باري من التوارق، عندما طلب منهم التوسط له للانضمام إلى اثنتين من هذه الطرق.

[79] هذا الافتراض الثاني غير مرجح. العديد من المسلمين ينتسبون في وقت واحد إلى عدة طرق.

[80] كافر.

[81] الأرواح.

[82] لا ينبغي أن نتفاجأ من هذا. يشك المسلمون المتعلمون في الصحراء في الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام، ولم يأخذ إ. دي باري هذا الشعور في الحسبان على الإطلاق.

[83] واحة «الأدرار» الجنوبي.

[84] أشار بارت (رحلات، الأول، ص 524، 542)، بناءً على المعلومات المقدمة من «كل-وي»، إلى مراحل طريق الحجاج في جنوب الصحراء.

[85] «تاغاما» الخاصة ببارت.

[86] لكل من هذه الأودية مالك لا يسمح برعي جمال الآخرين إلا مقابل رسم، ويطالب حتى برسوم من المسافر الذي يمر فقط عبر أرضه. وبموجب هذا الحق في الملكية، أرسل الشيخ محمد في عام 1894 أمرًا إلى السيد فورو بمغادرة وادي ميهيرو، على الرغم من وجود مبعوث من الزعيم الأعلى للأزجر.

[87] اسم غير معروف. ألا يوجد خطأ في النسخ هنا؟

[88] أمير الهقار.

[89] لم تصل هذه القصة إلى أوروبا أبدًا.

[90] يمكن للمرء أن يتساءل عما إذا كان هذا الحادث قد كلف المسافر حياته.

[91] قبيلة من اتحاد الأزجر، تخيم عادة في سهل «أدمر». يرسم لها دوفيرييه صورة غير مواتية على الإطلاق.

[92] مر جميع المسافرين الذين احتكوا بالتوارق بالتجربة نفسها. يقول السيد فورو: «التوارق هم متسولون قبل كل شيء، من الزعماء إلى آخر العبيد؛ جميعهم يأتون لطلب المال والهدايا والطعام من المارة. إنها آفة حقيقية، ولا يمكن لأحد التملص من هذه العادة المؤسفة المتمثلة في التلقي من الصباح إلى المساء، وتوفير المسافر للطعام لجميع الزوار. والأعذار الرئيسية لهذا العيب هي: فقر البلاد، وبؤسهم، وصعوبة الحصول على الكسب، والعادة المتجذرة للنهب. تنبع غرائزهم المتسولة أيضًا قليلاً من تنظيمهم. لديهم ثلاث طبقات: النبلاء، وعددهم قليل، والخدم، والزنوج. اعتاد النبلاء على أخذ كل ما يناسبهم من الطبقة الثانية، الذين هم أتباعهم؛ وهؤلاء يردون بالمثل على المارة، عندما يكون النبلاء قد طالبوا أولاً بحقوق المرور». (ف. فورو، تقرير عن مهمتي إلى الصحراء، 1893-1894، باريس، 1894، ص 210).

[93] من المحتمل أن الاسم نُسخ بشكل غير صحيح.

[94] نتيجة لزيجاتهم المتكررة من نساء تم شراؤهن من السودان، يتحدث «كل-وي» اللغة الهوساوية بطلاقة مثل لهجتهم البربرية الخاصة. هذه اللهجة مختلطة أيضًا بالعديد من التعابير الهوساوية. (بارت، رحلات واكتشافات في شمال ووسط إفريقيا، الأول، ص 374).

[95] يشير هذا إلى قلة خبرة إروين دي باري. لو كان لديه عمل بارت بين يديه، على سبيل المثال، لكان رأى أن هذا المعدل الذي بدا له باهظًا لم يمثل

حتى الربح العادي الذي يحصل عليه التاجر العابر للصحراء من بيع بضائعه. نظرًا لارتفاع المخاطر وكثرة الخسائر، يجب أن يرتفع معدل الأرباح بالتناسب.

[96] يجب أن نتذكر أن ليالي الصحراء في هذا الموسم غالبًا ما تكون باردة جدًا.

[97] لا يبدو أن هذا الصندوق وصل إلى وجهته. وبالتالي، نحن مضطرون إلى الاعتماد على الملاحظة الجيولوجية الموجزة التي ستجدها في نهاية هذا المجلد.

[98] من الواضح أن هناك عملية ابتزاز متفق عليها. بما أن القافلة ذهبت، حسب العادة، للتخييم بعيدًا عن المدينة في الليلة التي سبقت مغادرتها، كان من الضروري اللحاق بها بالأمتعة في نفس المساء بأي ثمن.

[99] انظر، لهذا الجزء من الرحلة، الورقتين 12 (مرزوق) و 19 (أغاديس) من خريطة إفريقيا بمقياس 2,000,000/1 للسيد دي لانوي دي بيسي.

[100] لاحظ إروين دي باري أسفل طبقات الحجر الرملي البني التي تشكل المدرجات العليا لهضبة «تايتا»، شمال شرق غات، انكشافات لطبقات أفقية أيضًا من الطين الصخري الصفحي والطفل الطيني الرقيق جدًا، ذي اللون الأصفر الفاتح أو الأحمر أو البني أو الرمادي، بالتناوب مع الحجر الجيري الرمادي (Zeitschrift der Gesellsch. für Erdkunde in Berlin, 1877, XII, 77 .p-79).

[101] لقد حذفنا هنا وفي الصفحات التالية سلسلة من قراءات البوصلة وإشارات أخرى لا تهم إلا لإنشاء خط السير.

[102] باللغة العربية «شقعاء»، وبالتارقية «جمده». (فورو، محاولة فهرسة للأسماء العربية والبربرية، إلخ، باريس، 1896، ص 12).

[103] «كورنولاكا موناكانتا (Cornulaca monacantha Del.)». إنه أحد النباتات المفضلة لدى الجمال.

[104] اسم غير معروف. يجب أن نقرأ على الأرجح «غات».

[105] نستخدم مصطلح «رق (reg)» المقبول اليوم، على الرغم من أن دي

باري لا يستخدمه بنفسه (إنه يقول «كيزيبين Kiesebene»)، للإشارة إلى هذا الشكل الخاص من التضاريس ذات السطح المستوي والثابت، والمكون من حصى مدورة كبيرة أو صغيرة، والتي تختلط بها أحيانًا شظايا صخور صغيرة.

[106] «وادي تارهارين» على خريطة بارت (رحلات، الأول، ص 5).

[107] مجموعة آبار تتفرع عندها طرق آيير إلى غدامس وطرق آيير إلى توات.

[108] يشكو إروين دي باري أعلاه من عدم اتساق المعلومات المقدمة من «كل-وي»، وهذا مثال على ذلك. من المعروف أن أرض التبو تقع شرق آيير، وأن أرض الأويليميدن تقع غرب نفس البلاد.

[109] الاسم الحقيقي لهذه الشجرة هو «تبورق» (فورو، فهرس الأسماء العربية والبربرية، إلخ، ص 42). إنها «بلانيتيس إيجيبتياكا (Balanites aegyptiaca Del.)»، وبالعربية «هجليج»، وهي شجرة تميز السودان الشمالي. أشار بارت، الذي يظل مساره غربًا قليلاً، إلى ظهورها تحت خط العرض نفسه (رحلات، الأول، ص 294).

[110] أشجار الأكاسيا الصمغية.

[111] مخيم توارق أزجر يقع في «أناهف»، على طريق غربي أكثر (خريطة بارت).

[112] «الدرين» عند العرب («Arthratherum pungens»).

[113] «بوليكاريا أوندولاتا (Pulicaria undulata L.)» (فورو، محاولة فهرسة الأسماء العربية، إلخ، ص 5).

[114] «لبتادينيا بيروتكنيكا (Leptadenia pyrotechnica R. Br.)».

[115] ألا يتعلق الأمر بنبات «السنّا»، «كاسيا أوبوفاتا (Cassia obovata)»، التي أشار بارت إلى حدودها الشمالية على خريطته، تقريبًا تحت خط العرض نفسه؟ من الصعب الإجابة على ذلك، نظرًا لأن دي باري لم يذكر السنّا في أي مكان، كما لاحظ أشرسون بالفعل (نباتات شمال إفريقيا الوسطى، ص 474)، على الرغم من وجودها في آيير.

[116] «إيفوربيا كاليبراتا (.Euphorbia calyptrata Coss)».

[117] من الواضح أن المسافر خلط بين صخور نارية قديمة، مثل «البورفيريت»، وبين «البازلت».

[118] أي: هنا تنتهي أراضي رعي توارق الشمال، وتبدأ أراضي توارق آيير. بارت، الذي مرغربًا، يضع هذه الحدود في «آسيو»، تحت خط العرض نفسه. أما المناطق المأهولة بالسكان، فتقع أبعد بكثير نحو الجنوب.

[119] وفقًا لدوفيرييه وفهرس فورو، يُطلق هذا الاسم أحيانًا على «مايروا ريجيدا (.Maerua rigida R. Br)»، التي لاحظها دوفيرييه في «ويريرات»، شمال غات، وأحيانًا على شجرة مختلفة، لم تُحدد بعد. لم يذكر أشرسون «مايروا ريجيدا» ضمن أنواع آيير المحددة بشكل مؤكد. لكن دي باري يسمي «مايروا ريجيدا» بكل وضوح، وبما أنه كان يحمل معه عمل دوفيرييه الذي يقدم وصفًا مفصلاً لها، فمن غير المقبول أن يكون قد أخطأ فيها.

[120] هنا يلتقي خط سير دي باري بخط سير بارت.

[121] بلا شك «الألوات» في فهرس فورو. ربما يشير إلى «موريكانديا سوفروتيكوزا (.Moricandia suffruticosa Coss)»، باللغة العربية «فول-الجمال»، والمشار إليها على أنها شائعة في الأهقار ومرغوبة جدًا من قبل الجمال (انظر دوفيرييه، توارق الشمال، ص 150).

[122] يبدو أنه نوع من «أرثراتيروم بونغنز (Arthratherum pungens)»، الدرين الصحراوي الجزائري (فورو، فهرس الأسماء العربية والبربرية، إلخ، ص 36).

[123] هذا النبات منتشر في جميع واحات الصحراء، حتى طرابلس، ولكن لا يصل إلى هذا الحجم في أي مكان، باستثناء السودان.

[124] يسميه إ. دي باري لاحقًا: إنه «إيفروان».

[125] التسمية الحقيقية هي «سركي-ن-توراوة»، والتي تعني بلغة الهوسا «قنصل البيض» (بارت). يُطلق هذا الاسم في هوسا على الموظف المسؤول عن

الوساطة بين العرب والسلاطين السود في علاقاتهم.

[126] قطعة قماش قطنية بيضاء يبلغ طولها حوالي 22 مترًا.

[127] لهذه الملاحظة أهميتها. إنها تثبت أنه غرب الكتل الجبلية التي أشار إليها بارت على خريطته (تيمغي، بونداي، إلخ)، توجد كتل أخرى، ربما لا تقل ارتفاعًا، وأن المنطقة الجبلية في آيير أوسع مما يتصوره الناس عمومًا.

[128] نبات غير محدد.

[129] من الواضح أن قائد القافلة تجنب المناطق المأهولة، حتى يصل المسافر بسلام إلى مقر حاميه، «الحاج بلخو».

[130] «بونداي» الخاص ببارت.

[131] ربما «أدجوري» الخاص ببارت.

[132] الخنازير البرية غير معروفة في واحات الصحراء الأخرى. إنها تمثل في آيير، مثل التماسيح في الكتلة الوسطى، مجموعة حيوانية من الناجين، معزولة الآن عن طريق الصحراء.

[133] تنتمي نباتات «ستابليا (Stapélies)» إلى نباتات جنوب إفريقيا؛ هذه هي المرة الأولى التي يُشارفيها إلى نوع من هذا الجنس في الصحراء، حيث تكثر نباتات عصارية أخرى من عائلة السلقيات (مثل «كالوتروبيس بروسيرا»).

[134] «النبق (Zizyphus lotus L.)» هو في الواقع شجيرة متوسطية بوضوح، لا تتجاوز نحو الجنوب «حمادة الحمراء». في المقابل، توجد في الكتلة الوسطى للصحراء، حيث يسميها التوارق «تاباكات»، «تازوغارت» (فهرس فورو، ص 37).

[135] أشار بارت فقط إلى مخاريط «التراكيت» في آيير.

[136] والتي ظلت حبرًا على ورق، حيث غادر «السركي» للإقامة في سوكوتو.

[137] قبيلة توارقية مرهوبة بسبب عاداتها في النهب، وغالبًا ما تتحالف مع الأويليميدن ضد «كل-وي» (انظر بارت، رحلات، الأول، ص 383). ««كل-وي»، كتب إ. دي باري لاحقًا، في حرب مستمرة مع «الأويليميدن» و«كل-فادي»،

لدرجة أنه، منذ سنوات، لم تسلك أي قافلة من أغاديس الطريق الغربي. قطاع الطرق المجندون من «كل-غيريس» و«الأويليميدن» و«كل-فادي» يجتاحون طريق أغاديس إلى سوكوتو بالمثل، ولا تجرؤ سوى القوافل الكبيرة جدًا على المخاطرة به». (رسالة من أجيغو، 1 أبريل 1877، نُشرت في Verhandl. der Geselsch. für Erdkunde, 1877, p. 246).

[138] هذه هي المرة الأولى التي يُشار إليها.

[139] يقول بارت على العكس من ذلك إن «كل-وي» أتوا من الشمال الغربي (رحلات الأول، ص 372).

[140] من الواضح أن هذا لا يتعلق إلا بالجزء من المنطقة المتاخم لأغاديس.

[141] هذه معلومة يجب تذكرها. صحيح أن الموضة متغيرة، وأن سلعة مطلوبة في عام 1877 قد لا تكون كذلك اليوم. لا تظهر «العقيق» في قائمة البضائع المستوردة من قبل القوافل في عام 1862، وفقًا لتقرير القائد ميرشير (مهمة غدامس، ص 39).

[142] وفقًا لـ توارق «تايتوق» الذين أُسروا في عام 1889، تقع «تلابة» على بعد أربعة أيام شمال غرب أغاديس. إنها منخفض يستقبل العديد من الأودية القادمة من الشرق، ومغطى بغابة حقيقية من الأشجار المختلفة (بيسويل، توارق الغرب، ص 191). إذا كانت المعلومة المقدمة لـ إ. دي باري صحيحة، فإن «وادي أودراس»، الذي عبر بارت واديه العلوي في طريقه إلى أغاديس، سيمتد إذن في اتجاه الشمال الغربي لمسافة عدة أيام سيرًا.

[143] هذا التقييم أقوى من تقييم مخبر ريتشاردسون، الذي قدر القوات المجتمعة لـ «غوبير» و«مرادي» بـ 1500 رجل (سرد لبعثة إلى وسط إفريقيا، الثاني، ص 104). تتفق المعلومات الأخرى تمامًا مع معلومات ريتشاردسون، وبارت، وستاودينغر، ومونتيل حول هذا الشعب «الغوبيري» الغامض، العدو اللدود لشعوب سوكوتو.

[144] انظر أعلاه.

[145] إشارة إلى توارق «تايتوق» من الأهنّت، الذين يذهبون للتزود بالمؤن في وادي تيلاك. يذكر إ. دي باري في مكان آخر شكوى أخرى: «لم يأت أي هقار إلى آيير منذ ثلاث سنوات. هذا يرجع إلى رفضهم العنيد لإعادة الجمال المسروقة من المرابط «البكاي» من تمبكتو، وذلك على الرغم من اعتراضات «الحاج بلخو»، الذي استاء من الأمر بشدة». (الرسالة المذكورة، Verhandl. der Ges. für Erdkunde, p. 246). من الواضح أن الهقار، القادرين على التزود بالمؤن في توات، لم يكترثوا باستياء «كل-وي».

[146] سلطة سلطان أغاديس اسمية بحتة. «دوره كله، يقول إ. دي باري أيضًا، يقتصر على تحصيل ضريبة من القوافل القادمة من الشمال. (من هنا جاء اسم «سركي-ن-توراوة»، قنصل البيض، الذي كان يحمله اللص الذي سلب المسافر). أما بالنسبة لـ «كل-وي»، فلا يدفعون أي ضريبة أو رسوم من أي نوع، ويتولى كل شيخ إدارة الشؤون الداخلية لقبيلته كما يشاء». (الرسالة المذكورة، ص 251).

[147] جُمعت المعلومة نفسها مؤخرًا من قبل الملازم أول هورست (بعثة هورست، باريس، ص 225، 1897).

[148] معلومة خاطئة، صححها المسافر لاحقًا (انظر لاحقًا ص 139).

[149] وليس بالاختزال.

[150] لم تكن هذه الضرورة للذهاب لجلب المؤن من السودان أمرًا غير طبيعي. لا تكفي آيير لإطعام السكان الذين يعيشون فيها. «بدون تجارة الملح، يقول ريتشاردسون، سيجد السكان أنفسهم أمام خيارين إما الهلاك أو الهجرة إلى السودان». (سرد لبعثة إلى وسط إفريقيا، الثاني، ص 138).

[151] علاقات «كل-غيريس» مع «كل-وي» من آيير غريبة جدًا. «على الرغم من أنهما اسميًا تحت سيادة سلطان أغاديس، إلا أنهما غالبًا ما يكونان في حالة حرب، ولا يعقدان هدنة إلا عندما تتطلب مصالحهما التجارية ذلك. عندئذٍ، يحضر «كل-وي» ملح بلما إلى أغاديس ويستبدلونه لدى «كل-غيريس»

بمنتجات السودان. لا يبقى «كل-غيريس» في أغاديس إلا بضعة أيام، ثم يعودون إلى منطقتهم في أدر». (إ. دي باري، الرسالة المذكورة، ص 251).

[152] لم تكن هذه المعلومة أكثر دقة من الأخرى. اكتشف إروين دي باري لاحقًا أنه لم يكن هناك خليفة، لسبب بسيط هو أن السلطان لم يمت. كان قد أقام ببساطة في سوكوتو ليجمع تركة إحدى زوجاته.

[153] سؤال مصدر مياه مملحات بلما لا يمكن حله حاليًا. يذكر رولفس تيارًا جوفيًا يتجه من الشرق إلى الغرب (Quer durch Afrika, I, p. 249). يتحدث نايتغال ومونتيل فقط عن طبقة مائية وفيرة، قريبة جدًا من سطح الأرض.

[154] وصف لنا ريتشاردسون (سرد لبعثة إلى وسط إفريقيا، ص 117) وبارت (رحلات، الأول، ص 572) «الإيري» أو قافلة الملح التي ينظمها «كل-وي» كل عام لجلب الملح من واحة بلما. لكن لم يكن لدينا حتى الآن أي تفاصيل حول خط السير المتبع. يقدم بارت فقط خط سير من أغاديس إلى بلما، عبر طريق جنوبي وأكثر صعوبة، حيث يُحسب فيه ثمانية أيام سيرًا بدون ماء (رحلات، الأول، ص 532).

[155] انظر أعلاه ص 124.

[156] هذا الانحدار ليس حديثًا: بدأ منذ نهاية القرن الماضي. عندئذٍ، يقول بارت، هاجر الجزء الأكبر من السكان إلى كاتسينا، وتساوة، ومرادي، وكانو. أغاديس، التي كان يمكن أن تحتوي على ما يصل إلى 50,000 نسمة وفقًا لتقدير بارت في الموقع، لم يعد عدد سكانها سوى حوالي 7000 في عام 1850 (رحلات، الأول، ص 518-520).

[157] يمكن للمرء أن يتساءل عما إذا كان هذا الخوف حقيقيًا. انظر ص 172، ما قاله المؤلف عن علاقات الحاج بلخو بسلطان أغاديس.

[158] كافر.

[159] لا يظهر هذا الاسم في فهرس فورو ولا في فهرس أشرسون.

[160] يتبين أن العبيد استمروا في عام 1877 كأحد البنود الرئيسية للتجارة

العابرة للصحراء في غات. حتى قبل وصوله إلى هذه المدينة، كان إ. دي باري قد حصل على دليل على ذلك. في 3 أكتوبر 1876، في وادي لجمال، رأى إحدى قوافل العبيد هذه تمر، وكانت متجهة من غات إلى طرابلس. في 1 سبتمبر، باع رفيقه في السفر، التاجر الطرابلسي مصطفى سميت، الشريك مع إيطالي في تجارة السودان، عبدًا أسود دون إخفاء الأمر. (رسائل رحلة من شمال إفريقيا، Zeitsch. der Gesellsch. für Erdkunde, 1877, XII, p. 167 et XV, p. 56).

[161] أكاسيا صمغية («Acacia tortilis»، أو «Acacia Seyal»).

[162] من الواضح أنه «تاجدارت» دوفيرييه، الذي يشير إليه في الأهقار (توارق الشمال، ص 166).

[163] نوع غير محدد.

[164] تقع حسب بارت على بعد خمسة أيام من أغاديس (رحلات، الأول، ص 527).

[165] «تكيدة» بارت، تقع على بعد ثلاثة أيام سيرًا من إنغال وخمسة أيام في الغرب والجنوب الغربي من أغاديس. يقول بارت أيضًا أنها تُنتج ملحًا ذا نوعية جيدة جدًا واعتقد أنه يمكن تحديدها بمدينة «تاكيدا»، المشهورة في القرن الرابع عشر بمناجم النحاس (ابن بطوطة). لكن لا بارت ولا دوفيرييه ولا إ. دي باري جمعوا أي معلومات حول هذه المدينة القديمة وتلك المناجم. هناك مشكلة مثيرة للاهتمام تُركت لمستكشفي المستقبل.

[166] ربما «أليمصار»، الذي كان، وفقًا للمعلومات الأخيرة للملازم أول هورست، سلف الأمينوكال الحالي للأويليميدن (بعثة هورست، ص 229).

[167] اسم يطلقه أهل آيير على «تايتوق» من أدرار أهنّت.

[168] توارق فزان.

[169] انظر أعلاه، ص 107.

[170] إشارة إلى معلومة غريبة قدمها التبو لدوفيرييه. يُزعم وجود آثار

عجلات ومنحوتات صخرية في «أناي»، على الحمادة، في منتصف الطريق تقريبًا بين طريق غات إلى آيير وطريق بلما، «تمثل قافلة من العربات التي تجرها الثيران ذات السنام ويقودها رجال» (توارق الشمال، ص 458). يعود إ. دي باري لاحقًا إلى هذا السؤال.

[171] يُلاحظ تغير مزاج الشيخ، منذ أن قرر المسافر العودة إلى غات، بدلاً من التوجه جنوبًا.

[172] أشار دوفيرييه بالمثل، وفقًا لمخبريه، إلى وجود جداول دائمة في أعالي الأهقار (توارق الشمال، ص 88). من المعروف أن بعثة فلاترز وجدت تيارًا مائيًا وأسماكًا في وادي «أمغيد»، على «إيغرغار» العلوي (وثائق تتعلق ببعثة فلاترز، باريس، 1885، ص 330). لا شيء يظهر بشكل أفضل العمل المفيد للجبال، التي تلعب دور المكثفات في الصحراء.

[173] آيير هي الواحة الصحراوية الوحيدة حتى الآن التي أُشير فيها إلى «الأسد». لم يُعثر عليه مرة أخرى إلا في السودان، وراء الهضاب القاحلة التي تفصل السودان عن آيير.

[174] ملاحظة ذات أهمية كبيرة لتاريخ الأجناس في إفريقيا القديمة. في الواقع، على جدار معبد مدينة هابو، بالقرب من طيبة، يُرى رمسيس الثالث يقود أمام آمون والإلهة موت، من بين مهزومين آخرين، ممثلين مقيدين لقبائل ليبية من الغرب، جميعهم لديهم على جانب واحد من الرأس، الضفيرة الطويلة أو اللولب المعكوف، يسقط على الرقبة من أمام الأذن (دي روجيه). من بين جميع الشعوب التي حفظ لنا المصريون القدماء صورتها، هؤلاء وحدهم مزينون بهذه التصفيفة الغريبة. من ناحية أخرى، نعلم من هيرودوت أن الماكسيين، إحدى القبائل الليبية الرئيسية، اعتادوا على تضفير شعرهم على الجانب الأيمن من الرأس (التواريخ، الرابع، الفصل 191)، ويتفق الجميع على التعرف في هؤلاء الماكسيين على قبيلة «الماشوخ»، الرئيسية بين تلك التي غزت مصر تحت حكم رمسيس الثالث. سهولة استبدال الأصوات س، ز، ش

ببعضها البعض في اللهجات البربرية، سمحت بالتساؤل عما إذا كان هؤلاء الماشوخ، الماكسيون، هؤلاء البرابرة من الغرب لم يكونوا ببساطة «المازيغ»، أي البربر. ولاحظ الجنرال فايدربي في هذا الصدد أن «الزناكة»، بقايا قبيلة بربرية قديمة، احتلت الصحراء الغربية في العصور الوسطى، قد حافظت على استخدام «الضفيرة الليبية». من ناحية أخرى، تُظهر لنا وقائع مزاب لأبي زكريا، التي نشرها السيد ماسكيراي، ابن إمام مدينة تاهرت (تيارت) البربرية القديمة منشغلاً بتضفير شعره من قبل أخته. لكن هذه المؤشرات كانت قليلة جدًا بحيث لا يمكن استخلاص نتيجة إيجابية منها.

حتى الآن، لم يكن بالإمكان ملاحظة استمرار مثل هذه العادة لدى التوارق. تكتسب ملاحظة إروين دي باري، التي تلتها ملاحظة أخرى أكثر دقة (انظر 6 يونيو)، أهمية خاصة لأن «كل-فادي» هي إحدى قبائل التوارق التي لم تتأثر فيها نقاء العرق (بارت، الأول، ص 384). رأى إروين دي باري لاحقًا بقليل (13 أغسطس) «إيفوغاس» من «السوق» يصففون شعرهم بالطريقة نفسها. والسوق (تادمكة)، شمال شرق منحنى النيجر، تُشار إليها كأحد الأماكن التي استقر فيها التوارق أصلاً. من المؤكد أنه من الهام رؤية أن استخدام الضفيرة الليبية قد استمر تحديدًا لدى قبائل التوارق التي بقيت في مكانها، أو التي لم تتأثر بأي اختلاط بدم أجنبي.

[175] قبر من الحجارة الخام. انظر أعلاه.

[176] يتعلق الأمر إما بالقبيلة الكبيرة «برابر»، التي لديها مناطق رعي في الصحراء المغربية، أو بالأحرى بالقبيلة العربية «برابيش»، التي تسيطر على طريق القوافل بين أراوان وتمبكتو. البرابيش في عداء مستمر مع توارق الهقار، وخاصة مع «تايتوق». مشاركة «الإيفوغاس» في هذه الغزوة هي دليل جديد على غرائز النهب لهذه القبيلة، التي جعلها دوفيرييه بشكل حصري مجتمعًا من المرابطين المسالمين الذين يحملون السلاح للدفاع عن أنفسهم فقط.

[177] «تاراكاتي» في فهرس فورو. «جريويا» نوع غير محدد (Grewia spec. ?).

[178] في تيبستي.

[179] اسم غير معروف.

[180] «بلانيتيس إيجيبتياكا (Balanites aegyptiaca Del.)».

[181] يذكر السيد فورو بالفعل في معجمه نباتًا باذنجانيًا («Solanum sodomaeum») يحمل الاسم العربي «تفاح-الذئب (تفاح-النوم)» (ص 43).

[182] لاحظ بارت فيضانًا مماثلًا بتاريخ 1 سبتمبر (رحلات، الأول، ص 356).

[183] النص الأصلي لا يسمح بمعرفة ما إذا كانت هذه الضفائر متدلية من نفس الجانب من الرأس.

[184] يكتب بارت «أرار» في كتابه، «أدر» على خريطته. ويتحدث أيضًا عن قوة فرسانهم (الأول، ص 388). تقع «أدر» شمال سوكوتو، ويضعها بعض المؤلفين خطأً ضمن مقاطعات هذه الإمبراطورية: لم يتوقف «كل-غيريس» أبدًا عن كونهم مستقلين تمامًا.

[185] هذا رأي شائع في آيير، حيث كان بارت قد جمع المعلومة نفسها بالفعل: «تتسع جميع الأودية المنحدرة نحو الغرب بمجرد خروجها من الجبل، وتتلاشى تدريجيًا، دون أن تتحد (رحلات، الأول، ص 587). ولكن يجب أن نأخذ في الاعتبار الجهل النسبي لسكان آيير، الذين لديهم القليل من الاتصالات أو لا توجد لديهم علاقات مع جيرانهم في الغرب. وإذا أخذنا في الاعتبار أن الشيخ عثمان من الإيفوغاس أعطى دوفيرييه نسخة معاكسة (وفقًا له، يتلقى «وادي تافاساسات» في مجراه السفلي العديد من الروافد القادمة من آيير)، فلا يمكن اعتبار المسألة محسومة.

[186] «كل-أتارار» الخاص ببارت. يقول بارت فقط إنهم يسكنون بالقرب من أغاديس ولا يتمتعون بأفضل سمعة (رحلات، الأول، ص 382).

[187] قال ريتشاردسون وبارت الشيء نفسه: «قافلة الملح، يكتب ريتشاردسون، هي مسألة حياة أو موت لآيير... بدون هذا الملح (الذي يُستبدل بمؤن السودان)، سيجد السكان أنفسهم قريبًا أمام خيارين إما الهلاك أو

الهجرة إلى السودان». (سرد لبعثة إلى وسط إفريقيا، الثاني، ص 138). «يمكن زراعة الكثير من الدخن، لكن الزراعة، المقيدة بقيعان الأودية الضيقة، لن تتمكن أبدًا من توفير ما يكفي من الحبوب لاحتياجات أولئك الذين يعيشون فيها». (بارت، الأول، ص 588).

[188] نوع غير محدد.

[189] انظر أعلاه، ص 161.

[190] «رهزر» ليس اسمًا خاصًا. يُطلق اسم «كل-رهزر» أو «كل-رزار»، «أهل الوادي»، على سكان وادي «سلوفيت» و«تنتارودي» الكبيرين (بارت، الأول، ص 380).

[191] هذا هو السبب على الأرجح في أن الحاج بلخو منع المسافر من الذهاب إلى أغاديس.

[192] عندما طلب إ. دي باري إعداد فاتورة المؤن التي زُوِّد بها، بنية تسديدها بمجرد عودته إلى غات، لم يأخذ في الحسبان عادات الصحراء، التي تقضي بأن الرجل المهذب لا يدفع ثمن المؤن التي تُقدم له، بل يرد بهدية ذات قيمة أعلى مما قُدم له.

[193] أو «تكيندويهير».

[194] انظر لاحقًا، الملحق الأول.

[195] يوجد عدد قليل جدًا من اليهود في الصحراء؛ وبالكاد يمكن العثور على بعضهم في توات، وربما لم يرَ هذا التارقي من آيير واحدًا قط.

[196] كان من المثير للاهتمام معرفة ما هي هذه الكتب، التي وصلت إلى آيير.

[197] «أكاسيا ألبيكا (Acacia albida Del.)». نوع سوداني.

[198] يبدو أن هذه العداوات بين الهقار والأويليميدن متكررة. كان بارت، في عام 1853، قد سمع بالفعل عن غزوة كبيرة قام بها 400 من الأويليميدن ضد الهقار (رحلات، الرابع، ص 503). في عام 1862، علم دوفيرييه أنه كان هناك «في الوقت الحالي هدنة من الأعمال العدائية، ولكن ميلًا أكبر إلى النفور». (توارق

الشمال، ص 371). في عام 1881، كان «كنان أغ تيسي»، أحد التايتوق الذين اعتقلوا لاحقًا في الجزائر، جزءًا من غزوة موجهة ضد الأويليميدن، الذين كانوا قد أغاروا على التايتوق سابقًا (بيسويل، توارق الغرب، ص 7). الآن وقد استقررنا في تمبكتو، يمكننا محاولة استغلال هذا النفور القديم للأويليميدن ضد الهقار.

[199] أمير الهقار.

[200] يثبت هذا خطأ بعض المؤلفين، الذين يحوّلون سلطان أغاديس إلى تابع لسلطان سوكوتو. يداري زعيم أغاديس جاره القوي، لكنه لا يدين له بالطاعة. حدد إ. دي باري أعلاه (ص 159) نوع الاحترام الذي يكنه توارق آيير لهذا «أمير المؤمنين». في عام 1886، قال ستاودينغر بوضوح شديد الشيء نفسه: «لا يملك حاكم سوكوتو أي سلطة حقيقية، ولا حتى ظاهرية، على الجزء من آيير حيث تقع أغاديس. بشكل عام، قد يدفع التوارق الشرسون له بالفعل رسومًا تجارية عندما يذهبون للتجارة في مملكته، لكنهم خطرون بقدر ما هم ضروريون، ومن مصلحة الهوسا أن يراعوهم» (في قلب بلاد الهوسا، برلين، 1889، ص 518).

[201] يسميه المؤلف في مكان آخر «سيدي إج-قرجي».

[202] يتحدث إروين دي باري لاحقًا عن إحدى هذه القبائل (ص 181).

[203] يقدم توارق الشمال تفسيرات أخرى. وفقًا لهم، يعود تاريخ إنشاء الإمغاد أو الأتباع إلى الوقت الذي كان فيه جنوب الصحراء لا يزال معرضًا لغزوات الملوك السود. عندها، يُقال إن العائلات الضعيفة طلبت حماية المحاربين البربر، وأصبحت رعايا لهم. أما الإمغاد الآخرون، الملونون، فيعود أصلهم إلى العبيد الزنوج، وبما أن الطفل يتبع حالة والدته وفقًا للعادات التارقية، فإن حالة الإمغاد كانت نوعًا من التحرير بالنسبة له. أخيرًا، يعترف التوارق بأن بعض قبائل الإمغاد البيض هم ببساطة من بني جلدتهم استُعبدوا بقوة السلاح. (دوفيرييه، توارق الشمال، ص 336-337).

[204] يذكر بارت قبيلة «كل-أغلال»، دون أن يعرف أنها تتطابق مع «كل-رزار» (الأول، ص 380).

[205] هناك أمثلة أخرى لقبائل عربية استقرت وسط التوارق، وأصبحت تابعة لهم. وهكذا، فإن «السقاكنة» و«المزيل»، الذين يوفرون الجمال للقوافل بين توات وتمبكتو، هم عرب يعيشون تحت حماية توارق «تايتوق» (بيسويل، توارق الغرب، ص 24).

[206] لقد حذفنا هنا وفي الصفحات التالية سلسلة من إشارات الطريق والمعلومات حول «أداماوا»، التي لم تعد ذات أهمية اليوم.

[207] «كالوتروبيس بروسيرا (Calotropis procera)».

[208] هذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها مسافر غارات العبيد التي تُنفذ على سكان من العرق الأبيض. من المعروف أن القرآن ينهى صراحة عن استعباد المسلمين. فهل لا يزال يُنظر إلى الخدم في هذا الجزء النائي من الصحراء على أنهم شبه وثنيين؟ على الرغم من ذلك، سيكون هناك انتهاك صارخ لعادات التوارق؛ يقول دوفيرييه إن الإمغاد يُورَّثون أو يُوهَبون، لكن لا يُباعون، وهذا ما يميزهم عن العبد.

[209] لم يتحقق هذا الاحتلال أبدًا. عندما مر العقيد مونتيل ببلما عام 1892، كانت الواحة لا تزال تحكمها شيخ «تبو»، تحت تبعية «كل-وي» من آيير.

[210] انظر بارت، رحلات، الأول، ص 599. عادة تسمين النساء بالغذاء المناسب هي سمة من سمات الزنوج، وليست بربرية.

[211] هذه المعلومة أكثر ترجيحًا بالتأكيد من تلك المذكورة أعلاه، ص 142.

[212] يبدو هذا يشير إلى أن ظواهر السيول الجارفة، التي كانت شديدة في الصحراء الشمالية، لم تكن غائبة أيضًا في الصحراء الجنوبية. انظر لاحقًا ملاحظة مماثلة.

[213] يتعلق الأمر هنا بفصيل من الإيفوغاس، «ن›إيغيداد»، الذي

ظل مخيمًا حول مكان منشئه «تادمكت» أو «السوق»، أحد أقدم الأماكن التجارية في الصحراء، والذي أصبح اليوم أطلالًا. من الغريب ملاحظة أن هؤلاء التوارق الذين بقوا في مكانهم هم من حافظوا على استخدام «الضفيرة البربرية». (انظر أعلاه، ص 157).

[214] ضريبة الحماية.

[215] هذا التقدير من النبلاء لضيف المرابط جدير بالملاحظة. في المجمل، تعامل إ. دي باري في آيير مع ثلاثة أنواع مختلفة من السلطات:

1. «السركي-ن-توراوة»، ممثل سلطان أغاديس، رجل غير محترم، دوره الوحيد هو تحصيل ضريبة القوافل لسيده، والذي تصرف تجاه المسافر كقاطع طريق بسيط؛ كان الزعيم التارقي الذي انتهك ضيافته سيجبره بالتأكيد على إعادة ما أخذه، لولا أن الرفيق الماكر غادر أغاديس للقيام بجولة في السودان؛

2. «الشيخ بلخو»، بدون وظيفة رسمية، ولكنه، في عالم الصحراء هذا، حيث لا شيء للوظيفة وكل شيء للهيمنة الشخصية، أصبح، في عام 1877، الزعيم الأكثر نفوذاً لـ «كل-وي» من آيير؛ هو الذي قادهم، في ظروف حرجة، إلى الحرب ضد «الأويليميدن» و«أولاد سليمان» (انظر ص 127). أما «الأمينوكال» أو السلطان الشرعي لـ «كل-وي»، الذي كان بالفعل في زمن بارت مجرد شبح أمير («das Schattenbild eines Fürsten»)، فدوره، في عام 1877، باهت للغاية، لدرجة أن دي باري لم يذكره ولو لمرة واحدة في يومياته؛ نعلم من إحدى رسائله فقط أنه يُدعى «أناستافيديت» ويقيم في «أسودي» (Verhandl. der Gesellsch. für Erdkunde, 1877, IV, p. 251)؛

3. «مرابطو كل-رهزر» من «تنتارودي» و«تين-تيلوست»، الذين يبدون، في عام 1877، أكثر الشخصيات نفوذًا في آيير بأكملها. عندهم (ص 121) يتداولون، بعد الفضيحة التي تسبب فيها «السركي-ن-توراوة»؛ عندهم يجد المرء الرفاهية والثروة؛ هم الذين يتفاوضون، بمبادرة منهم، على السلام بين

«كل-وي» و«الهقار»، وحتى بين «الهقار» و«الأزجر». سيكون من غير الحكمة الحكم على الوضع السياسي الحالي بناءً على ما حدث قبل إحدى وعشرين سنة، ولكن من المحتمل أن تعتمد بعثة عابرة للصحراء قبل كل شيء على مرابطي آيير هؤلاء.

[216] مما يدل على مدى الأهمية التي يوليها هؤلاء اللصوص المتمرسون للبقاء على علاقة جيدة مع توات، التي هي مكان تموينهم.

[217] لم يُظهر الأزجر من جانبهم جرأة أقل. في ديسمبر 1876، توغلت عصابة متحالفة من «الأوراغن» و«الإيمانغاساتن» حتى أبواب «عين صالح»، وهاجمت قافلة من الهقار كانت عائدة منها بالمؤن، وقتلت 15 رجلاً واستولت على 400 جمل. في الشهر نفسه، توغلت عصابة أخرى عبر «ديدر» في الأهقار، واستولت على 200 جمل من «التايتوق»، وقتلت 5 رجال، أحدهم شقيق «سيدي إج-قرجي». واجه هؤلاء الرجال الخمسة 150 أزجريًا: ومع ذلك قُتلوا. في هذه الغزوات، لا يأخذ المنتصرون أسرى. (إ. دي باري، رسالة موجهة إلى رئيس الجمعية الجغرافية ببرلين، Verhandl. der Gesellsch. für Erdkunde, 1877, IV, p. 250).

[218] إشارة إلى معلومة جمعها دوفيرييه حول هذا الطريق القديم من «جرما» إلى آيير: «في «أناي»، يقول، لا يزال الطريق، بآثاره القديمة، واضحًا بما يكفي لدرجة أن «التبو»، مخبريّ، الذين وصلوا منه، لم يتركوا في ذهني أي شك في هذا الصدد. علاوة على ذلك، أضافوا، لقد كلف القدماء أنفسهم عناء نحت لوحات في الصخر، على إحدى ضفاف الطريق، تمثل قافلة من العربات، ذات عجلات، تجرها ثيران ذات سنام ويقودها رجال» (توارق الشمال، ص 458). استنتج دوفيرييه من ذلك أنه كان الطريق الذي سلكه الجيش الروماني عندما ذهب من «غراما» إلى «أجيسيمبا». لسوء الحظ، لا يسمح تصريح شيخ «الإيهادانارين» بالاستنتاج بهذه الحدة. التبو مخبرون مشكوك فيهم، وليس من المستبعد أنهم، تحت الضغط، قالوا أكثر مما رأوا.

لم يرَدي باري، ولا ريتشاردسون وبارت، أي أثر لمرور الرومان في آيير. على أي حال، يشكل استكشاف طريق «أناي» هذا أحد أكثر الرغبات إثارة للاهتمام في الجغرافيا القديمة لإفريقيا.

[219] لن يكون هذا هو «النمر المرقط (leopard)»، المعروف جيدًا في بلاد السودان، والذي يحمل اسم «داموسا» (الجمع «دامسا» لدى هوسا سوكوتو). (ستاودينغر، في قلب بلاد الهوسا، ص 693).

[220] سلطان «غوبير».

[221] من المستحيل استنتاج أي شيء من هذا الوصف، الذي يذكر ببعض السمات «الضبع»، وبسمات أخرى «الفهد» أو «الوشق» (serval). يقول ستاودينغر إنه بصرف النظر عن جلود النمر المرقط، يجلب توارق آيير إلى السودان جلود قطط برية أخرى، لم يتمكن من تحديد نوعها: «بدت لي بعضها وكأنها تعود إلى «الوشق الصحراوي (lynx du désert)»، والبعض الآخر إلى نوع من «الوشق (serval)» أو «الفهد الصياد (guépard)»». (المرجع المذكور، ص 693).

[222] ميّز أوفر فيغ، مع ذلك، بين وادي «الحاسي» ووادي «الشاطئ»، أحجارًا رملية بنية حديدية وأحجارًا رملية ذات كسر أبيض، مغطاة فقط بقشرة سوداء رقيقة، حديدية، في الأجزاء المعرضة للهواء. (Geognostische Bemerkungen auf der Reise von Philippeville über Tunis nach Tripoli, und von hier nach Marzuk in Fezzan, Zeitsch. der d. Geol. Gesellsch. 1851, III, p. 101).

[223] توجد مثيلاتها في وسط وادي التعرية الواسع لوادي الشاطئ (أوفر فيغ، المرجع المذكور، ص 102).

[224] نشرت من قبل هذا الأخير في .Zeitsch. der Gesellsch. für Erdk 1878, XIII, p. 350. هذه الرسالة هي نوع من استنتاج للملاحظات النباتية التي قام بها المؤلف حتى 11 أبريل. وضوح هذه الآراء يعطي فكرة عما كان يمكنه أن

يفعله، لو كان لديه الوقت لمعالجة مواده الأخرى. أثرى البروفيسور أشرسون النص ببعض الملاحظات الثمينة، التي نعيد إنتاجها مع الإشارة إليها بالحرف «A».

[225] وفقًا لدوفيرييه (توارق الشمال، ص 225) ور. هارتمان (Zeitsch. der Gesellsch. für Erdk., 1868, III, p. 56)، «فهد»، «فحاد» هو الاسم العربي لـ «الفهود الصيادة (Felis jubata)». (أ).

[226] ربما «وبر» (Hyrax). أشار كلونزينغر (Bilder aus Oberägypten, p. 241) وشفاينفورت إلى نوع من هذا الجنس («Hyrax syriacus Schreb.») في الصحراء العربية. (أ).

[227] يمكنني أن أشهد بالشيء نفسه. لم أتعرض أبدًا للإزعاج من هذه الحشرة في واحات الصحراء الليبية، بينما كان هذا هو الحال في كثير من الأحيان في مساكن وادي النيل. (أ).

[228] «السدرة» في طرابلس و»السدرة» في آيير تمثلان بالتأكيد نوعين مختلفين من جنس «الزفيزف (Zizyphus)»: 1) «زفيزف لوتس (Zizyphus Lotus Lmk.)»؛ 2) «ز. سبينا كريستي (Z. Spina Christi L.)»، المعروف بالفعل في فزان بالاسم الكانوري «كورنا». (أ).

[229] ربما «بوسيا (Boscia senegalensis Lmk)» «(Boscia.» ؟) قارن، شفاينفورت، Zeitsch. für allg. Erdk., 1865, XIX, p. 389 وما يليها. (أ).

[230] بلا شك «نخيل الدوم (Hyphaene Thebaïca Mart)» الذي يذكر بارت وجوده في آيير (الأول، ص 349، 419). يلاحظ هذا المسافر أنه لم يتمكن من معرفة الاسم الأصلي للشجرة. هذا الاسم «فرعون»، الذي يذكر بوضوح شديد (على الأقل في أذهان السكان الأصليين) الأصل المصري للنبات، جدير بالاهتمام. (أ).

إذا تذكرنا، في الواقع، تقليدًا آخر جمعه بارت عند منحنى بوروم على النيجر، والذي يفيد بأن فرعونًا مصريًا وصل إلى هناك (رحلات الخامس،

ص 194)، وإذا أخذنا في الاعتبار من ناحية أخرى، أنه على عكس الشعوب الزنجية الأخرى، كان «السنغاي» المستقرون في هذا المنحنى من النيجر يحنطون موتاهم بالطريقة المصرية، قبل اعتناقهم الإسلام (أحمد بابا، تاريخ السودان، Zeitsch. der deutschen morgenländ, Gesellsch., IX, p. 532)؛ وأن اسم «الأتارانتس»، المعروفين لدى المصريين القدماء بأنهم يسكنون الصحراء على بعد عشرة أيام سيرًا من «الجرامانتس»، يذكر بمصطلح الهوسا «أتارا» الذي يعني «الرجال المجتمعون» (بارت، Sammlung und Bearbeitung central-Afrikanischer Vokabularien, p. c-c II)، وأنه وفقًا لتقليد قديم، يعود أصل شعب «غوبير»، أول من احتل آيير، إلى أقباط من مصر (دنهام، رحلات واكتشافات، الثالث، ص 202)؛ وأخيرًا أن اسم «تاغاما»، إحدى المدن التي وضعها بطليموس على خط العرض السابع عشر، موجود لدى قبيلة «تاغاما»، المستقرة جنوب آيير، فلا يمكن للمرء إلا أن يرى في اسم نخيل «فرعون» هذا مؤشرًا إضافيًا لصالح قدم العلاقات بين مصر وآيير.

[231] «بانيكوم تورغيدوم (Panicum turgidum Forsk.)»، باللغة العربية «أبوركبة» (فورو، فهرس، ص 2).

[232] هل هو «بوكيروسيا (Bucerosia)»؟ (أ).

إنتهى الكتاب بحمد الله تعالى

*******

لا ينبغي أن تُفهم هذه الانطباعات المتحمسة على أن وديان التوارق أراضٍ صالحة للاستعمار أو أنها تمنح مستعمرينا مساحات زراعية واسعة. فكل شيء في الصحراء نسبي؛ إذ إن وديان الطاسيلي، التي تجتاحها أحيانًا السيول العارمة فتجعلها غير سالكة، لا تضم سوى رقع زراعية ضئيلة وبائسة وسط امتداد الصحراء القاحلة التي يصعب الوصول إليها. وكما يُقال، هي مناطق «يمكن عبورها، لا استغلالها».

(فورو، تقرير عن مهمتي إلى الصحراء، 1893-1894).

LIBYAN
WORD
BRIDGE
Translation

الجمعية
الليبية
للدراسات
الأمازيغية